بسم الله الرحمن الرحيم

إسطنبول: ١٤٣٦هـ- ٢٠١٥م

إسطنبول: ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م

اسم الكتاب باللغة التركية: Nebiler Silsilesi -3

الترجمة للعربية: سلسلة الأنبياء -٣

ترجمة: د.أرسين اشجي أوغلو

مراجعة وتصحيح: د.أرسين اشجي أوغلو/ فاطمة اشجي أوغلو.

تصميم وتنضيد: حسام يوسف

ISBN: ٩٧٨-٩٩٤٤-٨٣-٨٠٦-١

Language : Arabic

طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم

العنوان:

▸ Address: Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi
Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 60/3-C
Başakşehir - İstanbul / TURKEY

Phone : +90 212 671 07 00 (Pbx)
Fax : +90 212 671 07 48
E-mail : info@islamicpublishing.net
Web site : www.islamicpublishing.net

في ضوء القرآن الكريم

سلسلة الأنبياء

-٣-

عثمان نوري طوباش

دار الأرقم

يقول الله تعالى:

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (القيامة، ٣٦)

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الأعراف، ٦)

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ (المزمل، ١٧)

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (يس، ٦٨)

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ. وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ. وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ. وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ. عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ (الإنفطار، ١-٥)

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران، ١٩١)

❁ ❁ ❁

يقول سيدنا داوود عليه السلام:

إلهي! لا تبعدني عن مجالس الذاكرين لك! وإن توجهت إلى مجالس الغافلين عنك، فاكسر قدماي قبل الدخول في مجالسهم!

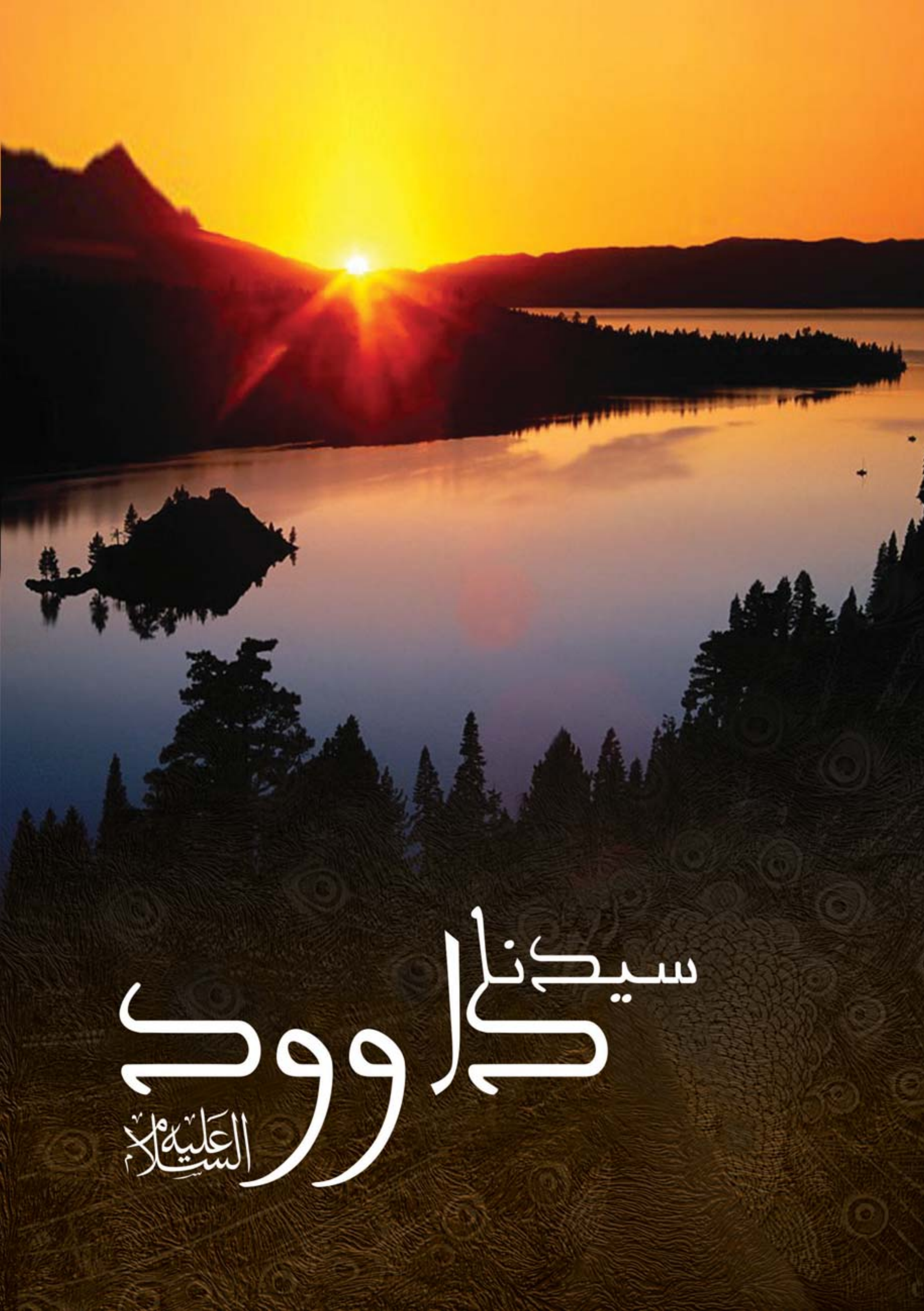
لأن كسرك قدمي من أكبر نعمك علي.

❁ ❁ ❁

وجاء في المثنوي:

من الممكن كتابة ظاهر القرآن الكريم بمقدار معينٍ من الحبر، وأما أسراره فلا يكفي لكتابتها ملء محيطات وبحار لا حدود لها من الحبر!

القرآن الكريم هو أوصاف وأحوال الأنبياء، فاقرأ القرآن الكريم بخشوع، وطبّق أحكامه وكأنك في حضرة الأنبياء والأولياء! وعندما تقرأ قصص الأنبياء يبدأ قفص الجسد بالتضييق على طيور الروح!


سیدنا داوود
علیہ السلام

سيدنا داوود عليه السلام
الذي تخشع بذكره
الجبال، والحجارة، والحيوانات المتوحشة

وُلد سيدنا داوود عليه السلام في القدس، وتوفي حسب التقديرات عن عمر يناهز المائة عام، ويعود نسبه إلى يهودا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. وقد بعث داوود عليه السلام نبياً في قومه وعُين حاكماً عليهم في الوقت نفسه. وتعود فترة حكمه حسب تقديرات المؤرخين إلى الفترة ما بين عامي ٩٧٥-١٠١٥ قبل الميلاد.

ورد ذكر اسم سيدنا داوود عليه السلام في القرآن الكريم في ستة عشر موضعاً، وقد أنزل عليه الكتاب السماوي "الزبور" باللغة العبرية.

طالوت وجالوت، والتابوت

لقد كان الأنبياء الذين أرسلوا إلى بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام يتبعون أحكام التوراة الذي أُنزل على موسى عليه السلام إلا أن اليهود كانوا يقومون بتحريف التوراة مستغلين الفرصة القصيرة التي تخلو من الأنبياء، ويأولوه بما يتماشى مع أهوائهم وشهواتهم، فتفسد بذلك عقيدتهم وأخلاقهم، إلى أن يُبعث فيهم نبيٌّ جديد فيصلح ما أفسدوه، إلا أنهم ما إن يتوفى ذلك النبي حتى يعودوا إلى الفساد واتباع الأهواء من جديد.

وفي تلك الفترة كان هناك قوم من العمالقة يقطنون ما بين بلاد الشام ومصر، ويحكم هؤلاء القوم قائد بالغ القوة والشدة يُدعى "جالوت"، وقد سلط الله ﷻ جالوت على بني إسرائيل، فهاجم جالوت بني إسرائيل وهزمهم، فأخذ أولادهم ونساءهم أسرى لديه.

ولقد كان لدى بني إسرائيل صندوقٌ ذو قيمة عظيمة احتفظوا به منذ عهد موسى عليه السلام، ويوجد بداخله أمانات مقدسة بالنسبة إليهم، ووقع ذلك الصندوق بين يدي جالوت فرماه به في أماكن الأوساخ زيادة في تحقير بني إسرائيل والحطّ من شأنهم، وقد ورد ذكر هذا الصندوق في القرآن الكريم باسم "التابوت."

فأصيب بنوا إسرائيل بهمٍّ عظيم جراء ابتعادهم عن وطنهم، وخسارتهم لبيوتهم، وأملاكهم، وأموالهم، وحزنوا بشدة لفقدانهم التابوت، فأصبح جُلُّ أملهم هو استرجاع التابوت والاحتفاظ به مرة أخرى.

وحسب الروايات فإن نبي بني إسرائيل في تلك الفترة كان صموئيل . فطلب منه اليهود سلطاناً ينقذهم مما هم فيه من الذل والهزيمة، ودعا النبي صموئيل عليه السلام ربه، وتضرع إليه لاستجابة طلب بني إسرائيل، فأوحى الله ﷻ بأن يعينوا شخصاً يُدعى بـ "طالوت" سلطاناً وملكاً عليهم إلا أن قسماً من اليهود اعترضوا على الأمر الإلهي، ولم يرضوا بتعيين طالوت سلطاناً عليهم، وقالوا:

- إن طالوت ليس من نسل الملوك!

وذلك لأن الأنبياء الذين بُعثوا لبني إسرائيل إلى تلك الفترة كانوا من نسل "لاوي" بن يعقوب، وأما الحكام فكانوا من نسل يهودا بن يعقوب، وأما طالوت فلم يكن من نسل الاثنين.

وقد تم بيان هذا الأمر في القرآن الكريم:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[1]

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[2]

فحسب رأي وجهاء بني إسرائيل ينبغي أن يكون الملك لأصحاب رأس المال والثروة الكبيرة، إلا أن هذا التفكير يشكل خطأً

١ البقرة، ٢٤٦.

٢ البقرة، ٢٤٧.

فادحاً بحق مصلحة الجماعة ومبادئ العدالة، لأن الملك أو السلطة لا ينبغي أن يكون بيد الأغنياء، وإنما يجب أن يكون بيد من هم أهل للأمر، وهذه الأهلية مرتبطة بقوة الشخص المعنوية، وخبرته وعلمه، إلى جانب شجاعته وقوته البدنية.

وحسب ما أورده فخر الدين الرازي، فإن صموئيل عليه السلام رد طلب بني إسرائيل لأربعة أسباب، وهي:

١. إن من اختار طالوت ملكاً هو الله عز وجل.

٢. ينبغي أن يتوفر في الحاكم صفتان رئيسيتان:

أ. معرفة علم (إدارة) السياسة.

ب. التمتع بالقوة البدنية والمعنوية (الروحية.)

٣. إن الملك لله تعالى، ويهبه لمن يشاء.

٤. إن الله تعالى يُغني الفقير بكرمه وإحسانه. ويعلم بحق من الأجدر بالسلطة والملك. [٣]

ولما رد صموئيل عليه السلام اعتراض زعماء بني إسرائيل، قالوا:

- إن كان طالوت صاحب الملك علينا بحق، فليأتنا بدليل على ذلك.

فأورد القرآن الكريم جواب نبيهم بشأن هذا الدليل:

٣ فخر الدين الرازي، التفسير، ٦، ١٤٧.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [٤]

لقد وردت روايات كثيرة حول التابوت، وحسب هذه الروايات فإن التابوت في البداية نزل على آدم عليه السلام، وانتقل منه إلى شيث عليه السلام، ومن بعد شيث انتقل إلى إبراهيم عليه السلام، ومن ثم إلى يعقوب ومن بعده إلى موسى عليهما السلام، وقد وضع موسى عليه السلام في هذا الصندوق الذي سُمي بالتابوت، وضع فيه ألواح التوراة، وبعض الأشياء المهمة الأخرى، وقد كان هذا التابوت يوضع في مقدمة الجيش خلال المعارك، ليرفع من معنويات الجند والإقدام على القتال بكل قوة وشجاعة.

وفي نهاية الأمر، وضع الله عز وجل التابوت أمام بيت طالوت عن طريق الملائكة، فهدأ بنوا إسرائيل الذين رأوا التابوت أمامهم، وقبلوا بطالوت ملكاً عليهم.

وهكذا فإن الله سبحانه وتعالى تفضل بإظهار علامة ملك طالوت التي طلبها بنو إسرائيل، ولكن مع ذلك فإن الله عز وجل تعلقت إرادته بامتحان بني إسرائيل لإظهار مدى صدقهم وإيمانهم.

---

٤ البقرة، ٢٤٨.

الامتحان:

بعد تنصيب طالوت ملكاً على بني إسرائيل بدأ بتجهيز جيشه والسير إلى الملك جالوت.

وقد كانت حاجة الجنود إلى الماء شديدة بسبب حرارة فصل الصيف اللاهبة، وجاءت إلى النبي صموئيل عليه السلام أوامر من الله عز وجل فأخبر بها طالوت، ولما سمعها طالوت خرج إلى جنوده قائلاً:

- إن الله سبحانه سوف يمتحنكم بالماء، فمن شرب من الماء حتى الارتواء فليس من جنودي!...

وأذِن لهم بالشرب من النهر الذي سيواجههم اغترافاً فقط، وهذا النهر حسبما رُوي عن ابن عباس الذي كان يسمى بنهر الشريعة هو نهر الأردن اليوم.[٥]

ولما بلغ طالوت وجنوده إلى ضفة النهر الذي حذرهم طالوت الشرب منه، وكان تعداد جنوده يصل إلى ثمانين ألف جندي، فشرب من ماء ذلك النهر حتى الارتواء ٧٦ ألف جندي ضاربين تحذير ملكهم طالوت بعرض الحائط، ولم يبق منهم إلا أربعة آلاف جندي أطاعوا أمر ملكهم، وبعد مسافة قصيرة لاذَ أغلب هؤلاء بالفرار أيضاً، ولم يبق منهم سوى ثلاثمائة وثلاثة عشر جندياً فقط، وهذا العدد هو نفس عدد جنود المؤمنين الذين اشتركوا في غزوة بدر.

---

٥ ابن كثير، قصص الأنبياء، ص. ٥١١.

حيث روي عن البراء رضي الله عنه:

"أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، ولم يجاوز معه إلا مؤمن، بضعة عشر وثلاثمائة." [٦]

لقد ازداد عطش الذين شربوا من النهر أكثر، فجُفت شفاههم، وأصابهم التعب والإنهاك، وفي نهاية الأمر تفرقوا وهاموا على وجوههم، وأما الذين التزموا تحذير طالوت واغترفوا من النهر بأيديهم فكفتهم الغرفة، وأروت ظمأهم، وازداد إيمانهم، وارتفعت هممهم وشجاعتهم، وتضاعفت قوتهم.

ويصور لنا البيان الإلهي حال جيش طالوت فيقول:

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [٧]

تشير الآية الكريمة إلى مبدأ عسكري مهم، وهو أن نصر أي جيش مرتبط أولاً بمدى إطاعة الجنود لأوامر قائدهم والالتزام بكل

---

٦ البخاري، المغازي، ٦.

٧ البقرة، ٢٤٩.

توجيهاته لهم. فالانتصار في المعركة لا يتوقف على العدد، وإنما يتوقف على الالتزام بالحق والاستقامة والتحلي بالمشاعر والمبادئ الإيمانية. ويُوضع تاج النصر على رأس الجيش الكيفي وليس الكمي. وخير شاهد بارز على هذه الحقيقة هو مجاهدو العصر الإسلامي الأول، ومجاهدو معركة "جاناك كاله" في تاريخنا القريب واحد من الأمثلة الجلية أيضاً على هذه الحقيقة.

سيدنا داوود عليه السلام والنصر:

لقد كان في جيش طالوت شاب يبلغ الثامنة عشرة من عمره، اسمه "داوود". وقد انضم داوود عليه السلام إلى جيش طالوت مع أبيه وإخوته الثلاثة عشرة حسب ما رواه البيضاوي.

وقد كان عليه السلام راعياً للأغنام، يتمتع بشجاعة نادرة بالإضافة إلى كونه رامياً ماهراً في قذف الحجارة بالمقاليع وقد قال لأبيه ذات يوم:

– إني أسمع الجبال، والحجارة تسبّح معي!

فردّ والده على ذلك بقوله:

– يا داوود، لتكن هذه بشارات لك!

ولِتمتع داوود عليه السلام بصوت جميل وشجي فقد أُحضر إلى طالوت، فاتخذه طالوت نديماً له، وانضمّ خلال ذلك إلى جيش طالوت الذي كان يتحضّر لمواجهة قوم العمالقة.

لقد أطلع الله ﷻ نبيه صموئيل عليه السلام على أن جالوت سوف يقتل على يدي داوود، ولذلك فقد اصطحب داوود معه، وأبقاه إلى جانبه. وفي الطريق نطقت ثلاث أحجار وكلمت داوود عليه السلام قائلة:

– خذنا معك، فإنك ستقتل جالوت بنا! فأخذ داوود عليه السلام تلك الأحجار الثلاثة، ومن ثم تجمعت هذه الحجارة فيما بينها وتحولت حجرة واحدة.

ومن جهة أخرى فقد قال طالوت قاطعاً على نفسه وعداً:

– من يقتل جالوت، فإني سأزوجه ابنتي!

وفي نهاية الأمر تقابل جيش طالوت المؤلف من ثلاثمائة وثلاثة عشر من الجنود المؤمنين، تقابل مع جيش العدو وجهاً لوجه.

وتصور لنا الآية الكريمة ذلك:

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [8]

وحسبما تشير إليه الآية الكريمة فإن الجندي الذي يخرج لمواجهة الأعداء ينبغي عليه الاتصاف بثلاث صفات:

١. الصبر عند الشدائد.

٢. الشجاعة والثبات في المعركة.

---

٨ البقرة، ٢٥٠.

٣. العون الإلهي، أي التضرع إلى الله تعالى بالدعاء مع اليقين والإيمان بحصول التأييد الإلهي له.

وعندما تقابل الجيشان برز جالوت أمام جيشه وطلب المبارزة من جيش طالوت، بأن يخرج إليه مقاتل شديد لمنازلته، فخرج داوود عليه السلام لمواجهته، وأُصيب الجميع بالحيرة والدهشة، لأن جالوت كان فارساً ضخماً يتمتع بقوة هائلة، ولما رأى جالوت داوود عليه السلام استصغره واستهزأ به مغتراً بقوته وجبروته، وقال:

– أيها الصغير الحقير، أتخرج أنت لمنازلتي؟ هيا تكلم لما جئت إليَ؟

فقال داوود عليه السلام:

– جئت لمحاربتك ومبارزتك! عندها سخر منه جالوت.

فأخرج داوود عليه السلام مقلاعه، ووضع تلك الحجارة في مكانها، ومن ثم صوبها نحو جالوت، أصاب الحجر منتصف جبهة جالوت فتهاوى عن ظهر حصانه، وسقط على الأرض ميتاً.

لقد غُلب جالوتُ هذا الملك والفارس العظيم المغتر بقوته، لقد غُلب على الرغم من تفوقه الظاهري الواضح من حيث العدة والعتاد. وبذلك فإن الله عز وجل يبين لعباده أن النصر غير مرتبط بالشروط الظاهرية من عدة وعتاد لوحدها، وإنما النصر يرتبط في الحقيقة بإرادة الله تعالى. وفي هذه الحادثة، يعلمنا الله عز وجل بأن ما يبدو للناس قوة هي في الحقيقة

ضعف، وأن ما يراه الناس ضعفاً في الظاهر يمكن تحوله إلى قوة بإرادة الله تعالى. فمهما بلغت قوة المنكرين والظالمين وتجلت مظاهرها أمام الأعين فإنها سوف تتحول إلى ضعف شديد بأصغر الأسباب عندما تتحقق إرادة الله سبحانه وتعالى. وما حصل لأبرهة الحبشي خير مثال على ذلك...

وفي هذه الحادثة حِكم أخرى تعلقت إرادة الله ﷻ بتحقيقها وهي:

لقد أراد الله سبحانه وتعالى نقل الملك والسلطة من بعد طالوت إلى داوود عليه السلام، ومن بعده أراد توريث الحكم لولده سليمان عليه السلام. حيث أن داوود عليه السلام أثبت للناس قوته وشجاعته بقتله لجالوت، وبذلك تم تهيئة المناخ المناسب والملائم والمناسبة لتوليه الملك والحكم.

حيث يقول الله تعالى في هذا الشأن:

﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [٩]

وفي هذه الآية الكريمة بيان لسنة من سنن الله تعالى الكونية التي تسير وفقها حياة الناس في هذه الحياة الدنيا. إذ لو أن الله ﷻ لم يجعل في الدنيا سلاطين يحكمون بين الناس بالعدل لضاعت الحقوق، وأباد

٩ البقرة، ١٥٢.

الأقوياء الضعفاء وقضوا عليهم، وقد ورد حديث بهذا الخصوص، حيث يقول النبي ﷺ:

"إن السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم" [١٠]

وقال سيدنا عثمان رضي الله عنه:

"إن الله تعالى يَزَعُ بالسلطان ما لا يَزَعُ بالقرآن" [١١]

ومن جانب آخر فإن الله عز وجل ربط تأسيس الاستقرار الاجتماعي بين البشر بعدة أسباب وعوامل، ولذلك فقد جعل الناس أصنافاً مختلفة ومتباينة، فمنهم الأغنياء ومنهم الفقراء، ومنهم من يتمتع بالقوة وآخر ضعيف، وصنف من الناس يتمتع بالصحة والعافية، وصنف يعاني من الأمراض؛ وهناك المؤمنون وغيرهم منكرون، فجعل الخلاف بينهم لإقامة العلاقات وإجراء المعاملات، ولكي يتمكن الناس من تأمين نوع من الحالة الاجتماعية والعيش المشترك، والحالة هذه تشبه إلى حد كبير الطاقة الكهربائية، حيث تتولد الطاقة من الشرارة الناتجة عن التقاء قطبي الموجب والسالب، وكذلك فإن الصراع الذي يجري بين البشر السلبيين والإيجابين، والمعارك التي تنشب بينهم تنتج كثيراً من العِبر، والحكم. وهكذا نستنتج من الآية التي مرت آنفاً بعض السنن المتعلقة بالنظام الإلهي في الكون، حيث أن

١٠ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٥، ١٩٦؛ الديلمي، المسند، ٢، ٣٤٣.

١١ ابن كثير، قصص الأنبياء، ص ٥١٦.

الله تعالى يُتبع تلك الآية الكريمة بالآية الآتية:

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [12]

ثم إنه بعد تحقيق النصر أحرق طالوت كل الأموال والأشياء التي غنمها من جيش جالوت، لأن الغنائم حسب شريعة موسى عليه السلام محرمة ولا يجوز لأحد أخذها، وإنما تُحرق.

ولدى عودة طالوت إلى القدس، قال له النبي صموئيل عليه السلام:

– لقد حقق الله عز وجل البشارة التي بشرك بها، وجعل النصر من نصيبك، والآن عليك تنفيذ الوعد الذي قطعته على نفسك!

وهكذا زوّج طالوت ابنته لداوود عليه السلام.

وبعد وفاة طالوت استلم الحكم من بعده داوود عليه السلام، وبعدها بمدةٍ من الزمن كُلف بمهمة الرسالة والنبوة، وبذلك أصبح أول نبي يُكرم بالنبوة والملك في الوقت نفسهن وتمتع بدرجة عالية من ناحية الامتياز المعنوي والفضيلة الروحية، وعلى ضوء ما جاءت به الآية الكريمة، فقد أُنزل على داوود عليه السلام الزبور وهو أحد الكتب السماوية الأربعة المعروفة:

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [13]

---

١٢ البقرة، ٢٥٢.

١٣ الإسراء، ٥٥.

وقد حكم داوود عليه السلام بالعدل طيلة حياته، وكان عليه السلام يتنكر بتغيير زيّه ويختلط بعامة الناس، ويسأل عن أحوال الشعب وما إن كانوا راضين عن الإجراءات التي يطبقها والطرق التي يتبعها في الحكم، ويستفسر منهم عن الاقتراحات والأفكار التي يحملونها حول حكمه، فلم يكن يصادف أحداً يشتكي من إدارته أو يتذمّر من حكمه، وجميع الناس يطيعونه ويتبعونه.[١٤]

يقول الله تعالى بحقه:

﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[١٥]

وحسب الروايات التي جاءت عن داوود عليه السلام فإنه كان صاحب همة عالية، وحالة اشتياق كبيرة نحو العبادات، إذ كان يصوم يوماً، ويفطر يوماً، وقد عُرف فيما بعد هذا النوع من الصيام "بصوم داوود" عليه السلام لشدة حرصه عليه والتزامه به، حتى اشتُهر بالصيام.

وقد كان داوود عليه السلام شديد الحرص على تحرّي أفضل الأوقات لكي يتعبد الله تعالى فيها. حيث أنه سأل جبريل عليه السلام يوماً:

- يا جبريل! أي الليل أفضل؟

فقال جبريل عليه السلام:

---

١٤ القرطبي، التفسير، ١٤، ٢٦٦.

١٥ ص، ١٧.

- ما أدري إلا أن العرش يهتز من السحر.[16]

وقد قسم سيدنا داوود ﵇ ليله إلى ثلاثة أقسام، فينام في قسم، ويقضي بقية الليل في العبادة والتضرع إلى الله تعالى.

ويقول الله سبحانه وتعالى في الآية الكريمة:

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ. وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾[17]

﴿...وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾[18]

لقد وهب الله ﷿ داوود ﵇ صوتاً شجياً وجميلاً، فعندما يرتل الزبور بصوته الجميل تجتمع الحيوانات البرية إليه لتستمع إلى صوته الذي يملأ الآذان طرباً، وعلاوة على ذلك فقد علَم الله تعالى داوود ﵇ صناعة الدروع، وأمدّه بقدرة استثنائية في هذا المجال، حيث يقول الله تعالى في هذا الشأن:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ. أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[19]

---

١٦ أحمد بن حنبل، الزهد، ص. ٧٠؛ ابن أبي شيبة، المصنف، ١٣، ٢٤٠.

١٧ ص، ١٨- ١٩.

١٨ الأنبياء، ٧٩.

١٩ سبأ، ١٠- ١١.

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [٢٠]

فعمل داوود عليه السلام في صناعة الدروع، وبذلك كان يحمي جيشه من الأعداء، ويكسب رزقه ولقمة عيشه من كده وعرق جبينه. فعلى الرغم من أنه كان متمتعاً بقوة سياسية، وذا سلطة راسخة، وحائزاً على إمكانات اقتصادية ومالية هائلة، فإنه بالرغم من ذلك كله فضّل سبيل العمل والإنتاج لكسب متطلبات معيشته بيديه، يقول نبينا الكريم ﷺ:

"ما أكل أحد طعاماً قط، خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داوود عليه السلام كان يأكل من عمل يده" [٢١]

وقد نال داوود العون والمدد من الله عز وجل فأصبح نبياً قوياً ومبجلاً مرهوب الجانب، إذ أُحيط بحراس أشداء، إضافة إلى وجود جيش جرار يُرعب الأعداء تحت إمرته وقيادته. ومن جهة أخرى فقد أصبح صاحب نبوة، ورأي سديد، وكتاب سماوي، وشريعة، ووهبه الله تعالى علماً غزيراً، ومتعه بالهمة في العمل، وبلسان طليق وحكمة نادرة.

وقد قال الله تعالى في ذلك:

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [٢٢]

---

٢٠ الأنبياء، ٨٠.

٢١ البخاري، البيوع، ١٥،الأنبياء، ٣٧.

٢٢ ص، ٢٠.

وفصل **الخطاب** معناه حسب ما عرفه المفسر السدي هو: علم القضاء بالإصابة في الحكم، وإفهام الحديث عند الكلام. وأما مجاهد فقد عرفه بأنه إصابة القضاء وفهمه.

وقد خاطب الله تعالى داوود عليه السلام كما جاء في القرآن الكريم:

﴿يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [٢٣]

وقد قسّم داوود عليه السلام الذي كان نبياً وحاكماً في آن معاً، قسم وقته إلى أربعة أوقات:

أما الوقت الأول فقد خصصه للانشغال بالعبادة.

وأما الوقت الثاني فقد جعله للفصل في النزاعات القانونية.

وأما الوقت الثالث فقد فرّغ نفسه فيه لوعظ الناس وإرشادهم.

فأما الوقت الرابع فقد خصصه لقضاء أموره الشخصية.

امتحان داوود عليه السلام:

لقد تعرض داوود عليه السلام في مسيرة حياته لبعض الامتحانات الإلهية، وقد تنبّه نتيجة تلك الامتحانات إلى جوانب الضعف في طبيعته البشرية، واحتمال وقوعه في الأخطاء. وإن الله عز وجل قد لفت

٢٣ ص، ٢٦.

نظره إلى الأخطار التي تحيط بطريقه السائر نحو الحياة الأبدية، من خلال الأخطاء والهفوات التي كان يقع بها، وقبول توبته عنها، إذ كان داوود عليه السلام سريع التوبة والالتجاء إلى ربه عز وجل كلما زلّت به القدم ووقع في محظور، فيتوب الله تعالى عليه.

ذات يوم جاء رجلان إلى داوود عليه السلام بينما كان مشغولاً بالعبادة، حيث أنه لم يكن يدخل أحد على داوود عليه السلام خلال خلوته في المعبد وانشغاله بالذكر والعبادة لله تعالى، اضطرب داوود عليه السلام لهذه الحالة التي جرت في وقت غير مناسب، لأنه لا أحد يجرؤ على الاقتراب أو الدخول بهذا الشكل إلى المعبد المقفل الأبواب في مثل هذه الأوقات، وكلما حاول إعلامهم بأنه في وقته المخصص للعبادة زاد إصرارهما على الدخول غير آبهين لكلامه، وقالا له:

– ليس هناك يوم للعبادة! ومن ثم عرضا عليه حاجتهما قائلين:

– لا تخف! نحن خصمان تجاوز أحدنا حق الآخر، وجئنا إليك لتحكم بيننا، فاقض بيننا بالعدل!

فقال داوود عليه السلام:

– إن كان كذلك، فتفضلا بعرض خصومتكما!

قال أحد المتخاصمين:

– إن لأخي تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة، وبالرغم من ذلك فقد أراد ضم نعجتي إلى نعاجه، وغلبني في الجدال.

فثارت ثورة داوود ﷺ للظلم الذي بدا له في الخصومة، و دون توجيه أي سؤال إلى الخصم الآخر،

أعطى حكمه في الخصومة على الشكل التالي:

- لقد ظلمك أخوك الذي أراد ضم نعجتك الوحيدة إلى نعاجه، وإن الذين لا يؤمنون بالله تعالى هم الذين يظلمون، وقليلون هم الناس الصالحون.

فتبسم الرجلان وانصرفا عنه.

لقد استعجل داوود ﷺ في إصدار الحكم، إذ أعطى قراره دون الاستماع إلى حجج وأقوال الطرف الآخر في الخصومة، حيث أن الأمر قد يتغير كلياً أو جزئياً في حال الاطلاع على المسألة بجميع وجوهها وسماع أقوال الطرف الآخر، وقد يظهر بتقليب الخصومة على جميع وجوهها أن الذي حُكم له بالحق هو المعتدي، والذي حُكم عليه هو صاحب الحق، ولذلك فقد أدرك داوود ﷺ الخطأ الذي وقع فيه بعد انصراف المتخاصمين عنه مباشرة، وعلم أن الأمر امتحانٌ إلهي له فخرّ ساجداً لله تعالى، والتجأ إليه بالتوبة والاستغفار، فعفا الله ﷻ عنه وتاب عليه.

وإن الحكمة من مثل هذه الحوادث هي إظهار عجز البشر حتى الأنبياء منهم أمام قدرة الله تعالى، وفيها إشارة إلى ضرورة تطبيق الأصول والحكم المستخلصة من هذه الوقائع من قبل أتباع هؤلاء

الأنبياء عليهم السلام. وإن هذه الحالة لا تخلّ أبداً بصفة العصمة والنبوة الثابتة بحق الرسل، ومن وجهة نظر المفسرين فإن هذه الامتحانات الإلهية بحق الأنبياء والرسل تدخل في حكم (حسنات الأبرار سيئات المقربين)[٢٤].

فالحوادث التي تجري للأنبياء والرسل والتي تبدو لنا بشكل أخطاء، هي في الحقيقة إرشاد لنا إلى كيفية التصرف في حال وقوعنا في نفس تلك الأخطاء.

ويوضح لنا القرآن الكريم الحادثة بشكل جلي:

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ. إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾[٢٥]

فقال أحد الخصمين:

﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾[٢٦]

---

٢٤ إن بعض الحالات والأعمال التي تشكل حسنات ومثوبة للأبرار (وهم أصحاب التقوى والخير والإحسان)، تُعتبر هذه الحسنات في حق من هم أعلى مرتبة منهم – المقربون (العباد القريبون بدرجاتهم من الله تعالى) بمثابة السيئات.

٢٥ ص، ٢١– ٢٢.

٢٦ ص، ٢٣.

فكان جواب داوود عليه السلام:

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [٢٧]

﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [٢٨]

إن داوود عليه السلام سوف يكون من المقربين إلى الله تعالى يوم القيامة، حيث يقول النبي ﷺ في الحديث الشريف:

"المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور، عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم، وأهليهم وما وَلُوا" [٢٩]

ويقول النبي ﷺ في حديث آخر:

"إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلسا إمام عادل، وأبغض الناس إلى الله وأبعدهم منه مجلسا إمام جائر" [٣٠]

لقد وردت بعض الأحداث والوقائع المسيئة والافتراءات المجحفة والمخالفة للحقيقة في التوراة والإنجيل المحرفين بحق داوود

٢٧ ص، ٢٤.

٢٨ ص، ٢٥.

٢٩ أحمد بن حنبل، مسند، ٢، ١٦٠/ ٦٤٩٢.

٣٠ الترمذي، الأحكام، ٤/ ١٣٢٩؛ النسائي، الزكاة، ٧٧.

عليه السلام، على عكس ما هو ثابت في القرآن الكريم والذي بينته الآيات السابقة التي ذكرناها.

وقد روي عن الإمام علي كرم الله وجهه في هذا الشأن:

- كل من يروي قصة داوود كما يذكرها القصاصون (بشكل مسيء وخاطئ) سوف أجلده مائة وستين جلدة.

ومما لا شك فيه أن لداوود عليه السلام مقام عال عند الله سبحانه وتعالى، وله مرتبة رفيعة في جنة الخلد التي سوف يدخلها بإذن الله تعالى.

قصة أصحاب السبت:

لقد كان أصحاب السبت يسكنون في مدينة مَديَن على سواحل البحر الأحمر الذي يفصل بين مصر والمدينة المنورة، ويبلغ تعدادهم حوالي سبعين ألف نسمة، ولم يكن هؤلاء يفعلون شيئاً في أيام السبت سوى العبادة، لأن الأعمال الأخرى غير العبادة كانت محرمة يوم السبت، بالإضافة إلى ذلك فإنهم قد وعدوا داوود عليه السلام بالامتناع عن الصيد في ذلك اليوم.

وبمرور الأيام وسوس لهم الشيطان بالقول:

- إنكم لم تُمنعوا من الصيد، ولكن مُنعتم من الأكل في هذا اليوم!

ولحكمة إلهية كانت الأسماك تتجمّع وتكثر في ذلك اليوم بشكل كبير، وتقِلّ في الأيام الأخرى، وبسبب ذلك فإن وساوس الشيطان جاذبة لبعض أولئك القوم، وقد انقسم أهل مدين بشأن هذا الأمر

إلى ثلاثة أقسام:

- **القسم الأول**، خالف أوامر الله تعالى واصطاد السمك، فأكلوا منها وباعوها، حيث كان هؤلاء يرمون بشباكهم في البحر يوم السبت ويستخرجونها يوم الأحد وقد امتلأت بالسمك.
- **القسم الثاني**، فلم ينغمسوا في خطيئة صيد الأسماك، إلا أنهم لم يعارضوا أولئك الذين خالفوا الأوامر الإلهية، أي أنهم بقوا صامتين تجاه انتهاك الأوامر الإلهية ولم يقوموا بواجب الإرشاد والنصيحة.
- **القسم الثالث**، فقد التزموا بالنواهي الإلهية، وفي نفس الوقت قاموا بمهمة النصح والوعظ لأولئك المنتهكين للأوامر الإلهية، وقد بيّنوا لمن التزم الصمت خطأ موقفهم، وبذلك فإنهم قاموا بواجبهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على أكمل وجه.

وقد ردّ الملتزمون بالصمت على واعظيهم بالقول:

- لماذا تعظون هؤلاء القوم الهالكين وتتعبون أنفسكم معهم؟ نأسف لجهودكم وتعبكم!

فأجاب عليهم القائمون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

- إننا نفعل ذلك حتى نكون معذورين أمام مولانا سبحانه وتعالى، ولا نكون مسؤولين عن تقصيرنا!

وبعد ذلك، أشاد هؤلاء حائطاً يفصل بينهم وبين القوم الظالمين الذين خالفوا الأوامر الإلهية حتى لا تصلهم المصيبة التي سوف تحلّ بالمخالفين. وبعد فترة عندما انقطعت الأصوات التي كانوا يسمعونها خلف الحائط، تسلقوا الحائط ليروا ما الذي حلّ بالقوم، فوجدوهم قد تحولوا جميعاً إلى قردة!...وقد ظل هؤلاء الذين تعرضوا لغضب الله تعالى ومُسخوا إلى قردة نتيجة عصيانهم ومخالفتهم أوامره، ظلوا يجولون لفترة من الزمن بجانب أقربائهم الذين نجاهم الله من العذاب وقد خيّم عليهم الحزن والهمّ. وبعد مضي ثلاثة أيام مات جميع العصاة الذين تحولوا إلى قردة.

وقد ورد في كتاب معالم التنزيل للإمام البغوي:

"أن الذين لم يصطادوا يوم السبت، ولكنهم التزموا الصمت تجاه العصاة، ولم يبادروا إلى وعظهم ونهيهم عما هم فيه من العصيان ومخالفة الأوامر الإلهية، قد مُسخوا معهم إلى قردة."

ويبين لنا القرآن الكريم أمر العصاة وحالهم في الآيات الآتية:

﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [٣١]

---

٣١ الأعراف، ١٦٣.

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [٣٢]

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ. فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [٣٣]

وقد ذكَر الله تعالى الأجيال التي جاءت بعد هؤلاء بالعقاب الذي حلّ بهم، ليتخذوا منه عبرة وموعظة لهم، إذ قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [٣٤]

﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [٣٥]

لقد لعن داوود عليه السلام أهل أيلة عندما خرجوا على أوامر عز وجل بشأن يوم السبت وظلموا أنفسهم فتحولوا إلى قردة خاسئين [٣٦]

---

٣٢ الأعراف، ١٦٤.

٣٣ الأعراف، ١٦٥– ١٦٦.

٣٤ البقرة، ٦٥.

٣٥ البقرة، ٦٦.

٣٦ الماليلي يازر، دين الحق لغة القرآن، ٣، ١٧٨٦.

وتشير الآية الكريمة الآتية إلى وقوع هذه الحادثة في فترة نبوة وحكم داوود عليه السلام:

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى لِسانِ داوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [٣٧]

ولأن المؤمنين يعتقدون ويؤمنون بالأنبياء والرسل جميعاً، ولا يفرقون بين أحد منهم، ويؤمنون بنبوة سيدنا عيسى عليه السلام، فقد كان اليهود يقولون: لا نعلم ديناً أسوأ من دينكم!

وقد نزلت الآية الجليلة بسبب ذلك، حيث يقول الله عز وجل:

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [٣٨]

كما تبين الآية الكريمة فإن الله تعالى قبل أن يبيد بني إسرائيل الذين أصروا على خطاياهم وعنادهم وعصيانهم مَسَخهم إلى قردة، ومن ثم أهلكهم أجمعين. ولا علاقة لهذه الحادثة التي جرت لبني إسرائيل بالنظريات الشائعة في عصرنا التي لا أصل لها من الصحة والتي تدعي بأن القرد هو أصل الإنسان.

---

٣٧ المائدة، ٧٨.

٣٨ المائدة، ٦٠. الواحدي، أسباب النزول، ص. ٢٠٣.

الذكرى الباقية من سيدنا داوود عليه السلام: صوم داوود عليه السلام:

إن "صوم داوود" عليه السلام، أي الصوم يوماً والإفطار يوماً هو ذكرى عزيزة وباقية من داوود عليه السلام إلى أمة محمد ﷺ وواحدة من العبادات التي يلتزم بها المسلمون، وقد بين النبي عليه الصلاة والسلام أن من أفضل الصيام هو "صوم داوود" عليه السلام.

وقد روي عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه قال:

"أُخبر رسول الله ﷺ أنه يقول: لأقومن الليل ولأصومن النهار، ما عشت، فقال رسول الله ﷺ: **"آنت الذي تقول ذلك؟"** فقلت له: قد قلته، يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ:

"فإنك لا تستطيع ذلك، فصم وأفطر، ونم وقم، وصم من الشهر ثلاثة أيام، فإن الحسنة بعشر أمثالها، وذلك مثل صيام الدهر".

قال قلت: فإني أطيق أفضل من ذلك، قال: **"صم يوما وأفطر يومين"** قال قلت: فإني أطيق أفضل من ذلك، يا رسول الله، قال: **"صم يوما وأفطر يوما، وذلك صيام داود عليه السلام، وهو أعدل الصيام"** قال قلت: فإني أطيق أفضل من ذلك، قال رسول الله ﷺ: **"لا أفضل من ذلك"** قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: "لأن أكون قبلت الثلاثة الأيام التي قال رسول الله ﷺ، أحب إلي من أهلي ومالي" [39]

[39] البخاري، الصوم، ٥٥- ٥٧، التهجد، ٧؛ مسلم، الصيام، ١٨١/ ١١٥٩.

فضل سيدنا داوود عليه السلام:

- كان داوود عليه السلام يتوجه في كل شؤونه إلى الله تعالى.
- قال الله عز وجل بحقه "عبدنا داوود" وهو صفة تشريفية رفيعة.
- أُنزل عليه الزبور أحد الكتب السماوية الأربعة.
- كانت الجبال والطيور تشترك معه في ذكر الله تعالى.
- كان يعلم منطق "لغة" الطير.
- كان صاحب صوت شجي جميل ورائع، إذ أن الجبال والطيور كانت تستمع إليه عندما يتلو الزبور.
- لان الحديد بين يديه مثل شمع العسل، فكسب لقمة عيشه من عمل يده بصناعة الحديد، وقد مدح نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم هذه الصفة في داوود عليه السلام.
- أوتي داوود عليه السلام فصل الخطاب (القدرة الفائقة على التمييز بين الحق والباطل) وأوتي الحكمة.
- كانت مملكته في تلك العصور من أقوى الممالك وأعظمها هيبة.
- كان داوود عليه السلام عبداً شكوراً لله تعالى، وقد قال ذات مرة:

– يا رب! كيف لي أن أشكرك وأنا لا أصل إلى شكرك إلا بنعمتك؟

فأتاه الوحي: أن يا داوود، أليس تعلم أن الذي بك من النعم مني؟

فقال داوود عليه السلام: بلى يا رب.

قال الله تعالى: فإني أرضى بذلك منك. [٤٠]

- وفوق كل ذلك فإن الله تعالى اعتبر داوود عليه السلام واحداً من الأنبياء المقربين، وأصحاب المقام العالي عنده.

حيث جاء في الآية الكريمة:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا...﴾ [٤١]

وفاة سيدنا داوود عليه السلام:

يقول النبي صلى الله عليه وسلم:

"كان داوود النبي فيه غيرة شديدة وكان إذا خرج أغلقت الأبواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع، قال فخرج ذات يوم وغلقت الدار فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار فإذا رجل قائم وسط الدار فقالت لمن في البيت من أين دخل هذا الرجل الدار والدار مغلقة والله لتفتضحن بداوود. فجاء داوود فإذا الرجل قائم وسط الدار. فقال له داوود: من أنت؟ قال:أنا الذي لا أهاب الملوك ولا يمتنع مني شيء. فقال داوود: أنت والله ملك الموت فمرحبا بأمر الله. فرمل داوود مكانه حيث قبضت روحه..." [٤٢]

---

٤٠ ابن كثير، قصص الأنبياء، ص. ٥٢٤.

٤١ سبأ، ١٠.

٤٢ أحمد بن حنبل، المسند، ٢، ٤١٩.

لقد كانت فترة حكم داوود عليه السلام التي استمرت أربعين عاماً، من أكثر عصور بني إسرائيل ازدهاراً وتألقاً، وقد فتح داوود عليه السلام القدس، وجعلها عاصمة لدولته، فكان داوود نبياً وحاكماً في آنٍ معاً، حيث امتاز بهاتين الخاصيتين من قبل مولاه الحق سبحانه وتعالى، وانتقلت من بعده إلى ولده سليمان عليه السلام، وبُعث هو الآخر نبياً لقومه.

الزبور ومحتواه:

لقد ورد ذكر الزبور في القرآن الكريم بكلمة مفردة "الزبور" إلى جانب ذكر صيغة الجمع لتلك الكلمة أيضاً بعبارة "الزبر". وتعني كلمة الزبور: الكتاب، أما الزبر فإنها تعني: الكتب.

ومرت كلمة الزبور في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع، وفي كل مرة مرتبطة بذكر النبي داوود عليه السلام. حيث يقول الله عز وجل في الآية الكريمة:

﴿...وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [43]

وأما كلمة الزبر فإنها ليست متعلقة بالنبي داوود عليه السلام دائماً، وإنما تُذكر في القرآن الكريم للإشارة بشكل عام إلى كل الكتب السماوية التي أُنزلت على الأنبياء والرسل عليهم السلام.

حيث ورد ذكرها في القرآن بالعبارة الآتية:

﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾[44].

---

٤٣ النساء، ١٦٣.

٤٤ الشعراء، ١٩٦.

وإن في هذه الآية الكريمة تلميح بورود ذكر نبينا محمد ﷺ في الكتب السماوية السابقة، والبشارة ببعثته.

وهناك معلومات في القرآن الكريم تتعلق بنزول الزبور على داوود عليه السلام، وذلك في الآية الآتية:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [٤٥]

والمقصود بالذكر هنا "التوراة."

وهناك المزيد من المعلومات في القرآن الكريم والتي تتعلق بالزبور. فقد ذُكر في المصادر الإسلامية أن إنزال الزبور على داوود عليه السلام هو واحد من خصائصه المتميزة.

وقد قال العلماء المسلمون أن الزبور جاء خالياً من المسائل المتعلقة بالأحكام والمعاملات، وإنما اقتصر مضمونه على احتواء الأدعية والنصوص التي يناجي بها العبد ربه سبحانه وتعالى.

وقد كان داوود عليه السلام الذي بُعث بعد موسى عليه السلام يطبق تعاليم التوراة في المسائل المتعلقة بالأحكام، وكان الزبور عبارة عن مجموعة من النصوص والأدعية الإلهية التي يعبر بها العباد عن شوقهم ومحبتهم السامية لله تعالى، والالتجاء والتضرع بصورة مثالية إلى مولاهم عز وجل.

---

٤٥ الأنبياء، ١٠٥.

فالزبور هو كتاب القصائد. حيث أن اشتمال هذا الكتاب على قسم تحت مسمى "المزامير" يفيد بأن هذه المقاطع القصائدية يتم ترتيلها وفق أداء موسيقي منتظم. وإن عدد المقاطع في الزبور مائة وخمسون منها سبعون مقطعاً منسوبة إلى داوود عليه السلام، وأما بقية المقاطع فيقال أنها عائدة إلى غيره.

وبالمناسبة، فإن الزبور الموجود اليوم ليس ذلك الزبور الذي نصّ القرآن الكريم على أنه الكتاب المُنزل على سيدنا داوود عليه السلامن وذلك لأن الكتاب المقدس بكل أقسامه لم يجر تحريره والمحافظة عليه بالشكل الذي أُنزل عليه، وإنما تعرّض لتدخلات وتحريفات بشرية كثيرة إلى يومنا هذا. وعلى ضوء هذه الحقيقة التاريخية، فإن احتمال وجود الزبور هذا اليوم بشكله ومضمونه الأصلي غير وارد ومجاف للحقيقة.

حيث أن الزبور الموجود في أيامنا هذه جرى تدوينه وكتابته بعد مرور خمسمائة عام على وفاة داوود عليه السلامن ومن جانب آخر فقد رُوي أنه تمت إضافة حياة داوود عليه السلام وتبليغاته وإرشاداته إلى الزبور، وعلاوة على ذلك فقد جرى تضمين التوراة بأشعار نحو مائة من الشعراء المجهولين.

ولم يثبت إلى اليوم بقلم من جرت كتابة الزبور الموجود حالياً، ولم يُعرف إن كان تم تدوينه بوحي إلهي أم بإلهام الكتاب. ويقول المستشرق هورن:

"إن الادعاءات بأن الزبور قد تدوينه من قبل داوود ﷺ، عبارة عن قناعات ضعيفة لا أصل لها من الصحة، وإن بطلان هذه الأفكار وخطؤها ظاهر للعيان."

وإن فكرة التلاقي مع الإله الواردة في الزبور تشبه دعوى التجسيم للإله التي ذكرت في التوراة، فهي شكل من أشكال إضافة التصوير على الذات الإلهية وتشبيهه بالبشر، تنزه الله تعالى عن كل ذلك، وكذلك مثل نسبة الابن إلى الله تعالى التي جاءت في أقسام أخرى من الكتاب المقدس، فمثل هذه التصورات مخالفة للحقيقة وتتعارض مع التوحيد. وتنقل لنا إحدى الروايات الموجودة في الزبور المتداول في أيامنا هذه مناجاة سيدنا داوود ﷺ على الشكل التالي:

- قال الرب لي: "إنك ابني! واليوم تبنيتك ولداً لي!" [٤٦]

والنتيجة، إن الزبور الموجود في يومنا هذا هو عبارة عن كتاب شعر فقط لا غير، ولا يوجد فيه شيء سوى بعض نصوص المناجاة المنسوبة إلى داوود ﷺ وغيره، ولا يُعلم مدى صحتها أو مطابقتها لما ورد في الزبور الحقيقي.

٤٦ المزامير، ٢/ ٧.

القراءة الجميلة لأجمل كلام:

إن الصوت الجميل لقارئ كلام الله تعالى، والقراءة الصحيحة الخالية من اللحن والأخطاء تلعب دوراً مهماً وبارزاً في إحداث التأثير البالغ على المستمعين المخاطبين بهذا الكلام من الجن والإنس. وحتى الكلام البشري تختلف معانيه وتأثيراته باختلاف أساليب تلفظه وطرق إلقائه، ففي بعض الأحوال يزداد تأثيره، وفي أحوال أخرى ينخفض تأثيره. فالتوسلات التي يتلفظ بها الشحاذ لا يبرز تأثيرها بالكلمات التي ينتقيها فقط، وإنما يكون التأثير أيضاً بالأسلوب والطريقة التي يلفظ بها كلمات التوسل تلك، ولا يمكن إنكار الأثر الإيجابي والقوة التي تنبعث في نفوس الجنود نتيجة الجهود التي يبذلها قائدهم في طريقة وأسلوب إلقاء الخطب الحماسية والتشجيعية قبل المعارك التي تحمل في طياتها النار والموت. يعني أنه لا يمكن إنكار ما للموسيقا في الكلمة من التأثير والقوة العجيبة والمختلفة على مسامع الجنود، حيث أن قوة هذا التأثير هي العامل الذي أخرج للوجود "الماهتار" أنشودة التعبئة العامة التي تحوز على مكانة مهمة في تاريخنا وحضارتنا.

فإذا كانت كيفية النطق تحدث تأثيراً بالنسبة للكلام البشري البسيط، فمن باب أولى أن تحمل أهمية أكبر بالنسبة للكلام الإلهي الذي هو القرآن الكريم. ومن يعلم! ربما يكون وجوب الاستماع إلى القرآن

الذي تعتبر قراءته سنة بناء على هذه الحكمة، وبناء على هذه الحقيقة فقد شكل علم قراءة القرآن "تلاوة القرآن" فرعاً مستقلاً وقائماً بذاته بين العلوم الإسلامية الأخرى. وقد خرج أئمة "لعلم القراءات" مثل أئمة المذاهب الفقهية.وإن من صفات داوود عليه السلام الذي كان واحداً من الأنبياء المُنزل عليه كتاب سماوي، إن من صفاته صوته الجميل الذي أصبح عَلَماً في التاريخ البشري باسم "الداوودي."

ومن الثابت في القرآن الكريم أن داوود عليه السلام عندما كان يقرأ كلام الله تعالى بصوته الشجي كانت الطيور، والجبال المسبحة تنحني بأعناقها نحوه. [٤٧]

وكانت الحيوانات البرية، وحتى الجمادات تشترك معه في التسبيح على صوته الجميل. [٤٨]

فالصوت واحد من النعم الكبيرة التي أنعم الله عز وجل بها على مخلوقاته.

فلولا الصوت لعانت الكائنات من فراغ كبير، لأن الصوت ظرف مهم لوجود القوة المحركة الإيجابية أو السلبية.

والصوت نعمة مثل النعم الأخرى فكما يمكن استخدامها في الخير، يمكن أن تكون وسيلة للشر أيضاً. ومن جهة أخرى فكما أن لكل حالة أو ظرف في العالم وجهان خير وشر، حسن وقبح، أو له

٤٧ انظر: الأنبياء، ٧٩.

٤٨ انظر: سبأ، ١٠.

قطبان، فكذلك يوجد للصوت جمال وقبح، فكم يبعث صوت البلبل الجميل النشوة في الروح، ويملأ القلوب بالسرور، وعلى عكس صوت البلبل فإن صوت الغراب يحدث أثراً سيئاً وموحشاً في النفس.

كما أن للصوت آثار بين البشر، كذلك فإنه يُحدث آثاراً بين الحيوانات أيضاً سواء بالتأثيرات الإيجابية أو السلبية. ففي حين أن زئير الأسد في الغابة يصيب قلوب الحيوانات الضعيفة بالهلع؛ فإن الثعبان الذي يُعد أبرد الحيوانات أعصاباً يخرج على صوت الناي الجميل من سلّة الفقير الهندي ويبدأ باستعراض الرقص، وكذلك فإن الجِمال في الصحاري يتم حثها على الإسراع في جريها عن طريق التغني، وإن العرب يطلقون على هذا اللحن الموسيقي اسم "الحدو."

وإن الصيادون بحسب الروايات، يصطادون الغزلان المسكينة ذوات المظاهر الجميلة على منابع المياه بجذبها عن طريق صوت الناي الشجي، إذ تخرج الغزلان من مخابئها بين الأشجار على سماع صوت الناي الجميل، وتتجه نحو رأس النبع، لتتمدد هناك بدون حراك، فتستمع إلى الموسيقى والدموع الساخنة تنهمر من عينيها، وفي تلك الأثناء يخرج أولئك الصيادون من أماكنهم التي تواروا فيها عن الأنظار، مستغلين هدوء هذه الحيوانات السريعة وسكونها على صوت الناي، فيصطادوها بكل سهولة ويسر.

إن كان تأثير الأصوات يبلغ إلى هذه الدرجة بشأن الحيوانات، فلم لن يُحدث ذلك التأثير على أحاسيس الإنسان الذي يُعتبر بدون شك

أكثر تكاملاً وشاعرية من تلك الحيوانات العجماء! حيث أن صوت النقود يؤثر على الماديين، وصوت المياه والبلابل تلهم الرومانسيين وأصحاب الأحاسيس الشعرية؛ أما الصدى العلوي لصوت قراءة القرآن الكريم والأذان فإنه منبع طمأنينة الباحثين عن الحق، الذين تحررت أرواحهم من عوالق المادة والأهواء.

كان النبي ﷺ عندما يشعر بضيق صدره من المسائل الدنيوية، ومن أجل استعادة طمأنينة قلبه وسكينته، كان يقول لبلال رضي الله عنه:

"يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها" [٤٩]

عندما تغني البلابل فإن الجبال تصمت لغنائها، وعندما يتردد صدى الآذان مخترقاً فراغ السماء فلا يصدر من وجه الأرض صوت غيره، فكلما كانت أحاسيسنا ومشاعرنا مرهفة كلما ازدادت تأثيرات هذه الأصوات الجميلة واتقادها في نفوسنا.

ويقوم مولانا الرومي بتكليم النادي، ليفرغ ما يختلج في داخله من هموم ونجوى فيقول في بكاء ونحيب للذين لا يفهمون لسانه:

"لقد تحول صدى الناي إلى لهب من النار، فلا تظننه نغمة بلا معنى، فمن ليس فيه هذا اللهب، فالويل كل الويل له"

يقول أحد عازفي الناي: "إن صدى وأنين نايي يكون مختلفاً في أوقات السحر! ومحاولاً التعبير عن حكمة رقيقة وحساسة في صدى الناي."

٤٩ أبو داوود، الأدب، ٧٨/ ٤٩٨٥.

ويقول محي الدين بن عربي قدس الله سره:

"إن كل الموجودات تلهج بذكر الله تعالى بطريقتها الخاصة بهان وتختلف أحوال هذه الموجودات عن بعضها البعض. تأتي الجمادات في المرتبة الأولى. أي العالم الذي لا روح فيه من الحجارة، والتراب، والماء، والمعادن (فهي من أكثر الموجودات ذكراً لله تعالى) وذلك لأنها بعيدة عن أهواء النفس، ومستغنية عن حاجات الطعام والشراب، والتنفس وبالتالي فهي أبعد ما تكون عن الغفلة."

وقد ذكر الله ﷻ يقظة الجمادات هذه في الآية الكريمة:

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [٥٠]

ويقول الله تعالى في آية أخرى:

﴿... وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [٥١]

وحسبما بينه ابن العربي رحمه الله فإن النباتات تأتي في المرتبة الثانية بشأن ذكر الله ﷻ بعد الجمادات، إذ أن للنباتات مجموعة من الحاجات مثل الماء، والهواء، والشمس، فهي متكاملة أكثر من الجمادات، حيث أنها تمتص من الأرض بعض المواد الكيميائية، وتركّبها في جسمها بقدرة إلهية فتُظهر إلى الوجود أزهاراً مختلفة الألوان والروائح، وأوراقاً

---

٥٠ الحشر، ٢١.

٥١ الأنبياء، ٧٩.

نضرة، وفاكهة متعددة الأصناف. ولهذا السبب فإن النباتات تذكر الله تعالى بشكل أقل بالمقارنة مع الجمادات.وبعدها تأتي الحيوانات، فالحيوانات أكثر تكاملية من النباتات من حيث الوظائف الحياتية، ولذلك فإن احتياجاتها كثيرة، ونفسيتها مرتفعة.

وأما الإنسان الذي يأتي في المرتبة الأخيرة فإن أُفقه واسع سواء في الاتجاه الإيجابي أو السلبي، وهذه نتيجة طبيعية لكونه مخاطباً بالتكليف الإيماني. لكن الأنانية والتخيلات، والخواطر، والرغبات والشهوات الدنيوية تقود الإنسان وتوقعه في الغفلة بشكل مستمر.

حيث يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾[٥٢]

إن هذه الآية تصوير رائع وجميل لحالة الأصناف الأربعة التي مرّ ذكرها في الأعلى، وكل حسب خصائصها وطبيعتها، وإنها تُظهر بشكل جلي عدم وجود كائنات لا تسبح الله تعالى.[٥٣]

---

٥٢ الحج، ١٨.

٥٣ الذكر والتسبيح نوعان:

أ- **الذكر التسخيري**: هو الذكر والتسبيح الذي تقوم به المخلوقات من تلقاء ذاتها بشكل لا إرادي. وإن حياة النباتات والحيوانات وتصرفاتها مرتبطة بهذا الذكر. وهذا الذكر يعتبر بالنسبة لها بمثابة نفس الحياة. فبانتهاء الذكر تنتهي حياتها.

ب- **الذكر الإرادي**: هو الذكر والتسبيح الذي يقوم به البشر بمحض إرادتهم.

وإن الكائنات الأكثر غفلة، والأقل ذكراً لله تعالى، والأبعد عن الحق هم قسم من البشر. وفي آية أخرى يبين الله ﷻ المخلوقات التي تستغرق في ذكره على الدوام، إذ يقول:

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [٥٤]

أما الناس الذين توهجت أحاسيس قلوبهم، فإنهم يشعرون بالتسبيح في كل حركة أو صوت يبلغ آذانهم، إنهم تماماً مثل الولي الصالح الذي إذا ما مرّ من أمام دكان لصائغ الذهب فإنه يصاب بالوجد من الذكر الذي في نغمات صوت مطارق الذهب متسامياً في الخشوع مثل المنشغل بكل قلبه في ذكر الله، ويعيشون حياتهم في تناغم وانسجام مع ذكر عامة الكائنات.

وإن الشاعر نجيب فاضل يبين في أشعاره بشكل جميل ورائع حالة رجال القلب والوجد الذين يعيشون في عالم أسرار ذكر الله تعالى:

أولئك الرجال، إنهم في فضاءات القلب،

تتمرغ جباههم في التراب!

سُبّحتُهم النجوم يسبحون سبحة سبحة

ويختبئون في الصفوف الأخيرة في الصلاة

٥٤ الإسراء، ٤٤.

وعباداتهم التي تخالطها النفوس والرياء

يقضونها ويعيدونها واحدة تلو أخرى

إن يفرغوا من طاعةٍ في يومهم ينصبوا لأخرى

مشغولون بشراء سندات الجنة الأبدية.

إن طريقة الذكر لعامة الكائنات متحررة من قيود الصوت أو الأحرف، أو الحركات، وهو ذكر لا يمكن وصول صداه إلى كل الآذان، وإن سماع هذا الذكر السري خاصية محصورة بمن هو من أهل الذكر، وإن حديث "يونس أمره" المليء بالوجد والنشوة الروحية مع الوردة الصفراء هو من قبيل هذه الخاصية.

ثم إن الذين تنشغل قلوبهم بالذكر في كل أحوالهم، ويتجاوزون بالاتحاد مع الذكر أهواءهم ورغباتهم النفسية ليعودوا بأنفسهم إلى حالة الصفاء الطبيعي الأصلي، بإمكان هؤلاء بعد تجاوز هذه المرحلة من تربية النفس، بإمكانهم إدراك جانب الذكر في كل صوتٍ يتناهى إلى مسامعهم.

وباختصارٍ، فإن الذكر هو جمال كل الأصوات، سواء ذوات الأحرف أو الخالية من الحروف. فإلى جانب المعنى الخاص لكلمة الذكر، فإنها أصبحت اسماً للكتب الإلهية وتحولت إلى كلمة غنيّة بالمعاني والمحتويات، وقد تم تناول كلمة "الذكر" في آيات التوراة الشريف والقرآن الكريم بشكل كثير.

وبهذا الاعتبار وبناءً على الأمر الإلهي الأول من جناب الحق سبحانه وتعالى في القرآن الكريم وبموجب قوله (اقرأ باسم ربك الذي خلق) فإن الأصوات والأنفاس قد اكتسبت خصوصية شرف وعزة الذكر النابع من صدى القرآن الكريم.

ويقول النبي ﷺ:

"زينوا القرآن بأصواتكم" [٥٥]

"حسنوا القرآن بأصواتكم، فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً" [٥٦]

وفي رواية أخرى يقول النبي ﷺ:

"ليس منّا من لم يتغنَّ بالقرآن" [٥٧]

وقال العلماء المسلمون أن المقصود بالتغني في هذا الحديث الشريف هو تحسين الصوت عند قراءة القرآن، وأما الأشخاص الذين لا يتمتعون بصوت حسن، قالوا: عليه بذل غاية الجهد لتحسين صوته عند تلاوة القرآن الكريم.

لأن القرآن الكريم هو أفضل الكلام على الإطلاق، ولذلك فإن الصوت البشري يخرج في غاية الاحتشام والحسن والجمال بصدى القرآن الكريم.

---

٥٥ ابن ماجه، الإقامة، ١٧٦/ ١٣٤٢.

٥٦ الدارمي، فضائل القرآن، ٣٤.

٥٧ البخاري، التوحيد، ٤٤/ ٧٥٢٧؛ أبو داوود، الوتر، ٢٠/ ١٤٦٩.

فالإنسان يعتاد على كل صوت جميل ويشبع منه بعد مدة من الزمن، إلا القرآن فإن صداه لا يُمل أبداً!.. لأن نغماته العلوية تُطرب أصحاب القلوب الرقيقة وكأنها نسمات من رياحين الجنة قد وُهبت لهم.

يقول النبي ﷺ:

"لم يأذن الله لشيء ما أذن للنبي أن يتغنى بالقرآن"[٥٨]

إن هذه الأحاديث الشريف تبين لنا مدى أهمية قراءة القرآن الكريم بالترتيل، ومراعاة أحكام التجويد فيها.

وإن طمأنينة وسكينة قلوب المتكدرين والتائبين مخبوءة في نغمات القرآن حيث تحوي العلاج الذي تنتشي به الأرواح، والباحثون عن سبيل النجاة الأبدي يحتاجون إلى إرشاد وهدى لسان أهل الجنة الذي وهب الحياة لأرواحهم.

أما الغافلون الذين أغلقوا قلوبهم عن صوت القرآن وصداه، حتى لو أدركوا ظاهر الحياة، فإنهم يبقون محرومين من حقائق وحكم العالم الباطني. إنهم يتيهون مدى عمرهم في السير خلف شهوات وملذات الدنيا، ولكنهم غافلون عن الحكمة الكامنة وراء وجود العالم.

إنهم يستغلون هذه الحياة لأقصى درجة، وينهلون من مائدة الدنيا حتى التخمة، ولكنهم يجهلون صاحب المائدة "الرزاق" الحقيقي.

---

٥٨ البخاري، فضائل القرآن، ١٩، التوحيد ٣٢/ ٥٠٢٣.

حتى وإن دفنوا أقرباءهم في المقابر، إلا أنهم يتابعون حياتهم في غفلة وجهالة عن المغامرة العظيمة التي تنتظرهم تحت التراب، أولئك لا يفهمون شيئاً من شواهد الجنائز الصاكة التي لا تتكلم.

بالرغم من المصائب الكثيرة التي تصفع وجوههم من الزلازل، والعواصف وغيرها، إلا أنهم يصرون على إدارة ظهورهم للحقائق، ويعزّون أنفسهم باللجوء إلى ادعاءاتٍ مزيفة وتسمية تلك التحذيرات بـ "الكوارث الطبيعية"، باحثين عن مخرجٍ يفرون منه.

ما أغرب أمرهم، إذ أنهم يعيشون في ملك الإله، ويناصبون صاحب الملك الحقيقي العداء!

أما المؤمنون الذين أضيئت قلوبهم بنور القرآن الكريم، فإنهم في حالة تفكر عميق بالحقائق السامية.

وإن الكلام الإلهي الذي يقرؤونه يلهمهم القول بلسان حال قلوبهم:

"إنك عبد لله تعالى، وتعيش في ملكه! وإن أرزاقك هي بعطاء ومنحة من الله تعالى. فانشغل بأسرار القرآن الكريم والتزم بحكمته، وسر إلى ربك بقلب سليم!"

وإن الذين يلقون السمع ويسلمون القلب للإلهام الإلهي في القرآن الكريم، يحيون حياتهم دائماً ضمن مشاعر من العبودية التامة لله تعالى. فيشكرون ربهم عَزَّ وَجَلَّ على النعم التي أسبغها عليهم، ويبذلون

غاية جهدهم لجعل دنياهم الفانية رأسمالهم من أجل الفوز بالحياة الأبدية الخالدية يوم القيامة.

ولهذا، فإن القرآن الكريم يعتبر بالنسبة للذين يتمكنون من الحصول على إحساس من الروحانية المحمدية، يُعتبر لغة الأرض والسماء، وخزينة من الفيوضات والبركات.

ويُعتبر النبي ﷺ والقرآن الكريم مصدرين كبيرين للنور الذي تفضل الله تعالى بهما على عباده.

وهناك ثلاثة موجودات تتجلى فيه كل صفات الله ﷻ وهي: "الكائنات، والقرآن، والإنسان"

فالكائنات هي تجلٍ فعلي لصفات الله تعالى؛ أما القرآن فهو تجلٍ كلامي، وأما الإنسان فهو الزبدة في الموجودات ويعتبر مجموع كلّ التجليات. فكما أن الدنيا تكون موحشة ومملة بغير الإنسان، كذلك يكون الإنسان بدون القرآن.

حيث يقول النبي ﷺ:

"إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب" [٥٩]

إن الكائنات قرآن صامت، وفي القرآن كائنات ناطقة، أما الإنسان الذي هو أثر لتجلي الأسرار الإلهية، فيعتبر بمثابة الخلاصة أو الزبدة لكل الموجودات، فالقرآن الكريم معجزة بيانية وخطاب

---

٥٩ الترمذي، فضائل القرآن، ١٨/ ٢٩١٣؛ الدارمي، فضائل القرآن، ١.

الحق، والقلب البعيد عن حقائق القرآن يكون مظلماً كالمكان الذي مُلِئ بالقطران ولا نور فيه، وسيء الحظ في العالَمين الدنيا والآخرة.

❀ ❀ ❀

وأذكر فيما يلي بعضاً من بركات وحكم القرآن الكريم التي لا حصر لها:

إن القرآن الكريم يلفت نظر الإنسان إلى التأمل في مظاهر القدرة الإلهية وروعة الخلق في العلم الخارجي، ليوقظ فيه عالمه الداخلي، فيصرف العبد عن الكائنات الجميلة في الكون بقلب مرهف حساس، ويأخذ بقلبه إلى مناخ مفعم بمحبة الله تعالى ورسوله الكريم ﷺ.

والقرآن الكريم الذي يُعد سبيل السعادة في العالَمين ينظم حياة الملتجئين إليه بمعايير سامية، ويجول بهم في بساتين السعادة لحياة مطمئنة ومتوازنة.

بينما الكائنات جميعاً وكل ذرة بداخلها خاضعة بشكل طبيعي إلى قانون متوازن لدرجة فائقة في الدقة والعظمة، فإن الإنسان الذي لا يرتمي في أحضان القرآن ويفقد توازنه وطبيعته الأصلية، يكون قد حط من شأنه وإنسانيته وألقى بها في غياهب الخسران والشقاء، لأن التوازن الذي في بدن الإنسان وروحه هو أثر من آثار فيوضات القرآن الكريم.

فالقرآن الكريم يُعتبر محيطاً لا قرار له لإنسان القلب والوجدان للتفكر، وإذا كان تفكر كل إنسان صاحب إدراك في مظاهر العظمة

الإلهية التي تحيط بكل زمان ومكان، وأخذ العبر من القصص المليئة بالحكمة شرطٌ ليصل إلى الكمال، فإن كل ذلك واحد من تجليات الرحمة للقرآن الكريم.

وإن بسط خريطة الآفاق من أسرار العالم الخفية المجهولة والعصية على الرؤية، بسطها أمام الأعينن وتقديم ومضات الحقيقة من آفاق عالم الغيب بين يدي الإنسان، يُعتبر ذلك أيضاً واحداً من تجليات أسرار القرآن الخاصة.

والقرآن الكريم مجموعة من المواعظ والنصائح التي تدعو الإنسان إلى الاستقامة، والأخلاق الحسنة، والعبادة، والعلم، وتدعوه إلى السعادة الأخروية، وإن إدراك هذه الأمور بشكل قيم يمكن من خلال الفراسة التي أنعم الله بها على الإنسان.

يدعو القرآن الكريم البشرية قاطبة إلى الهداية والرشد. وإن مرشد الهداية هو نبينا محمد ﷺ الذي كان بماهية التفسير الحيّ للقرآن الكريم خلال مسيرة حياته. أي أن القرآن الكريم والنبي ﷺ يعتبران بحكم صيدلية علوية تحتوي على الشفاء الوحيد لأمراض غفلة الإنكار التي تعاني منها البشرية، ولهذا السبب فإن كل البشرية حتى آخر فر من أفرادها إلى قيام الساعة تعتبر من الأمة المحمدية، وقسم من هؤلاء يطلق عليها أمة الإجابة لأنها قبلت الدعوة السامية التي دعا لها، وهم الذين يعتبرون بحق أمة محمد الحقيقين، وأما الآخرون فإنهم يسمون بالأمة غير المجيبة (أمة الدعوة)

وإن مصدر سعادة وطمأنينة كل البشر مرتبطٌ بالإحساس عن طريق القرآن الكريم، والدخول في مناخ فيوضاته، والعمل بأحكامه، والتحلي بأخلاقه، ولهذا فإن الحياة البعيدة عن القرآن تعتبر انتحاراً أبدياً؟

وإن كثيراً من الأسرار والألغاز المحيرة التي تصيب إدراك البشر بالشلل والعجز والمتعلقة بالروح، والحياة، والموت، والبعث، والخلود، لا يمكن الوصول إلى كنهها والحصول على إجابات مطمئنة ومؤثرة بشأنها إلا عن طريق القرآن الكريم.

ويوجد في القرآن الكريم الذي يعتبر واحداً من تجليات كلام الله ﷻ وعلمه اللامحدود، يوجد فيه اطمئنان فريد لا نظير له يعجز الإنسان عن تعريفه، وهدوء وجداني وانسجام باهر معجز، ومرة أخرى فإن التاريخ شاهد على أن كل واحد من الأنبياء الذين يُعتبرون شموع الدعوة الإلهية في حالة من التأييد والتصديق لمن سبقه من الأنبياء، وأما الفلاسفة فإنهم غارقون في مسالك مآزقهم العقلية، ومتاهات فلسفاتهم المنحرفة والضالة ومع ذلك فإنهم يكذّبون أسلافهم ويتهمونهم بالضلالة، وحتى العلوم البشرية التي استخرجت على مرّ التاريخ بواسطة الإمكانات العقلية المحدودة لاحتواء معاني الحياة والكائنات التي لا حصر لها ضمن أسماء ومفاهيم معينة، لا زالت تغوص في اختلافات وتناقضات عميقة ومتضاربة.

ولهذه الأسباب، فإن المؤمنون الذين تشبعوا بالتربية القرآنية أصبحت قلوبهم من منابع الحقائق الإلهية، بينما الفلاسفة الذين يتبعون نظرياتهم البشرية التي وضعوها بمدارهم المتصفة بالعجز والمحدودية، ومحاولين بواسطتها إيجاد طريقهم بالتلمس في الظلمات، قد أصبحوا في حالةٍ من الفقر والإفلاس الأبدي.

❁ ❁ ❁

وعلى ذلك فإن الحياة الحقيقية، هي عبارة عن العيش في جنة الحقائق القرآنية. حيث أن النبي ﷺ قال ذات مرة:

"إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد".

قيل: فما جلاؤها يا رسول الله؟

قال: "تلاوة القرآن، وذكر الله" [٦٠]

وقال النبي ﷺ أيضاً:

"أعطوا أعينكم حظها من العبادة".

فقالوا: وما حظ العيون يا رسول الله؟.

قال النبي ﷺ:

"النظر في المصحف، والتفكر فيه، والاعتبار عند عجائبه" [٦١]

---

٦٠ علي المتقي، كنز العمال،٢، ٢٤١.

٦١ السيوطي، الجامع الصغير، ١، ٣٩.

وقد جعل الله تعالى القارئين لكتابه الكريم بكثرةٍ على رأس عباده السعداء بنيل الفوز الأبدي يوم القيامة. فيقول الله ﷻ في الآية الكريمة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ. لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [٦٢]

ويقول أيضاً:

﴿... يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [٦٣]

وذلك لأن الإيمان يزداد بتلاوة آيات الله الكريمة. حيث يقول الله تعالى في آية أخرى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [٦٤]

ومما لا ريب فيه أن تلاوة كتاب الله تعالى من أفضل العبادات التي يؤديها المرء، ولذلك فإن تلاوته بالشكل الحسن وبالترتيل تُعتبر إحدى التكاليف المهمة التي أنيطت برقابنا. فيقول الله ﷻ:

٦٢ فاطر، ٢٩– ٣٠.

٦٣ آل عمران، ١١٣.

٦٤ الأنفال، ٢.

﴿... وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلا﴾ [٦٥]

ومن جهة أخرى، فمن الأهمية بمكان الاستماع إلى تلاوة القرآن والالتزام بالصمت خلالها. إذ أن قراءة القرآن تُعتبر من السنة، أما الاستماع فيُعتبر فرضاً. حيث يقول الله تعالى:

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [٦٦]

وعلى ذلك، ينبغي الالتزام بالصمت التام والانتباه بكل دقة إلى تلاوة القرآن الكريم سواء أكانت في الصلاة أو خارجها، وذلك من أجل فهم وإدراك معانيه بشكل صحيح، والاستفادة من مواعظه والالتزام بإرشاداته في سلوكنا.

لأن الصمت يهيّئ للاستماع بتيقظ، والاستماع الجيد وسيلة للتبصر، والبصيرة تؤدي إلى الإيمان والعمل، والإيمان والعمل وسيلة للوصول إلى الرحمة والنعم الإلهية.

والنبي ﷺ يحب الاستماع إلى القرآن الكريمة إلى جانب حبه لقراءته، وفي بعض الأحيان كان يأمر ابن مسعود رضي الله عنه بقراءة القرآن الكريم ويستمع إليه بنشوة بالغة. وذات مرة كان يستمع النبي ﷺ إلى قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه للقرآن الكريم فأدمعت عيناه المباركتين.

---

٦٥ المزمل، ٤.

٦٦ الأعراف، ٢٠٤.

وينقل لنا عبد الله بن مسعود ﷺ هذه الحادثة، حيث يقول:

قال لي النبي ﷺ ذات يوم:

"اقرأ علي القرآن".

فقلت: يا رسول الله أقرأ عليك؟ وعليك أنزل؟

قال النبي ﷺ:

"إني أشتهي أن أسمعه من غيري"

فقرأت عليه من أول سورة النساء حتى إذا بلغت إلى قوله:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [٦٧]

رفعت رأسي، أو غمزني رجل إلى جنبي، فرفعت رأسي فرأيت دموعه تسيل عليه الصلاة والسلام. [٦٨]

وفي حديث آخر عن أُسيد بن خضير:

بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة، وفرسه مربوطة عنده، إذ جالت الفرس، فسكت فسكتت، فقرأ فجالت الفرس، فسكت وسكتت الفرس، ثم قرأ فجالت الفرس، فانصرف، وكان ابنه يحيى قريباً منها، فأشفق أن تصيبه، فلما اجتره رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدّث النبي ﷺ.

---

٦٧ النساء، ٤١.

٦٨ البخاري، التفسير، ٤/ ٩؛ مسلم، المسافرين، ٢٤٧/ ٨٠٠.

فقال النبي عليه الصلاة والسلام:

"اقرأ يا ابن حضير، اقرأ يا ابن حضير"

قال أسيد ﵁: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى، وكان منها قريباً، فرفعت رأسي فانصرفت إليه، فرفعت رأسي إلى السماء، فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها،

قال النبي ﷺ: **"وتدري ما ذاك؟"**

قال أسيد ﵁:لا، يا رسول الله.

قال النبي ﷺ: **"تلك الملائكة دنت لصوتك، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها، لا تتوارى منهم"** [٦٩]

يدل الحديث الشريف على أن الملائكة وحتى الحيوانات تشعر وتحسّ بصدى القرآن الكريم. فإذا كان الأمر كذلك، فمن يعلم كيف يُفشي القرآن الكريم أسراره وخفاياه لقلب متحرر من كثافة المادة ومحاطٌ بالنورانية؟

وإن حالة سيدنا عمر بن الخطاب ﵁ مثال رائع يدعو إلى التدبر والتفكير، حيث يقول:

"لقد ختمت سورة البقرة في اثنتي عشرة سنة، وذبحت جملاً شكراً لله على ذلك" [٧٠]

---

٦٩ البخاري، فضائل القرآن، ١٥/ ٥٠١٨؛ مسلم، المسافرين، ٢٤٠- ٢٤٣.

٧٠ القرطبي، التفسير، ١، ٤٠.

لأن قراءته للقرآن الكريم لم تكن عبارة عن قراءة لفظية فقط، وإنما كانت قراءة تدبر للوقوف على أسرار وحكم القرآن وفهم الحكم الإلهية الكامنة فيه ومن ثم الالتزام بكل ذلك في سلوكه الحياتي. وإن قراءة القرآن بالمعنى الحقيقي والاستفادة المناسبة منه لا بد أن يكون بالشكل الذي طبقه عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وإن المثال الآتي حول قراءة القرآن بالكيفية المثالية، يحوي الكثير من العبرة:

كان لأبي بكر الوراق ولد صغير، فأرسله إلى شيخ من أجل تعلم القرآن الكريم، وذات يوم عاد الولد من المدرسة في وقت مبكر شاحب الوجه، ويرتجف جسمه، فاحتار أبو بكر الوراق رحمه الله بحال ولده وسأله:

- خيراً يا ولدي، ما هذه الحالة، ولم عدت من المدرسة باكراً؟

فأجاب الولد الذي سيطرت خشية الله تعالى على قلبه الصغير وتحوّل وجهه إلى ورقة خريفية ذابلة:

- يا أبت! اليوم علمني شيخي آية من القرآن الكريم، وعندما أدركت معناها أصابتني هذه الحالة من شدة خوفي!

فقال أبوه هذه المرة:

- وما هي تلك الآية الكريمة؟

بدأ الولد الصغير بالقراءة:

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾[٧١]

وبعد مدة وقع الولد الصغير فريسة المرض وأصبح طريح فراش الموت من شدة دهشة وهيبة تلك الآية الكريمة، ولم يمض وقت طويل حتى سلّم روحه الزكية إلى بارئها.

لقد تأثر والد الصغير أبو بكر الوراق بهذه الحادثة كثيراً، وقد كان يزور قبر ولده باستمرار فيبكي هناك ويقول لنفسه:

- يا أبا بكر! إن ولدك تعلم آية واحدة من القرآن الكريم ومن شدة خشيته لله سلم روحه وفارق الحياة. وأما أنت يا أبا بكر فقد مضى زمن طويل وأنت تقرأ القرآن، ولكنك لم تخف من الإله الحق حتى بقدر هذا الولد الصغير!"

فهذا هو القرآن الكريم، إنه مصدر للحكم والأسرار التي ترتجف لها القلوب الرقيقة وتضطرب لسماعه.

وكم تعكس الآية الآتية حجم القرآن المعنوي الكبير، وعلم وحاكمية وعظمة الخالق اللامتناهية، حيث يقول الله تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٧٢]

---

٧١ المزمل، ١٧.

٧٢ لقمان، ٢٧.

وإن الإنسان ينهل نصيبه من هذا المحيط بقدر استعداده القلبي، ولكن مهما بلغ الإنسان في نهله فإنه لن يبلغ إلى مقدارٍ أكبر مما تأخذه نملة من هذا المحيط اللامتناهي، وإن الشاعر يعبر عن هذا المعنى بشكل جلي، حين يقول:

نزلت في بحرٍ من الجواهر،

ونهلت منه ما استطعت إليه سبيلاً

كانت قطرة كل ما نلته،

فتلاطم المحيط مرة أخرى غير آبه بي.

وخلاصة القول، فإن خلاص البشر الوحيد من عجزهم هو الالتجاء إلى لطف الله تعالى ورحمته.

وكم مثيرٌ للدهشة سر الحديث الشريف:

"من عرف نفسه فقد عرف الله" [٧٣]

ويقول مولانا بديع الزمان النورسي قدس الله سره:

"من الممكن كتابة ظاهر القرآن بمقدارٍ من الحبر، ولا يكفي لأسراره ملئ محيطات لا قرار لها، وبحارٍ لا شواطئ لها من الحبر."

ولذلك. فإن أهل القرآن الحقيقيين تتلذذ أرواحهم بتلاوة القرآن، وتسير حياتهم وفق أحكامه، وتتطابق أخلاقهم مع أخلاقه،

٧٣ العجلوني، كشف الخفاء، ٢، ٣٦١.

ويتكاملون بحكمه. ولأجل هذه الصفات التي يتميز بها أهل القرآن يُؤمر التراب بأن لا يُبلي أجسادهم.

وهكذا فإن واحداً من أهل الله الحافظ محمود سامي ابن رمضان قدس الله سره الذي تمتع بصفة أهل القرآن وتوفي في أضنة، بعد ثلاثين عاماً عندما فُتح قبره لأسباب ضرورية من أجل نقل رفاته إلى مكان آخر، وُجد جسده كما هو لم يمسسه أي سوء وحتى كفنه كان يلمع وكأنه لُف به اليوم، وقد روى هذه الحادثة واحدٌ ممن رآها بنفسه.

❀ ❀ ❀

وإن رسولنا الكريم ﷺ الذي أدى مهمته بقراءة كلام الله تعالى وتبليغه للناس مثل كل الأنبياء عليهم السلام، قال في الحديث الشريف:

"خيركم من تعلم القرآن وعلمه" [٧٤]

لأن القرآن الكريم ذلك الكلام العلوي، يُعد أكبر هدية مُرسلة إلى البشرية من عند الله تعالى. ويقول النبي ﷺ بهذا الخصوص:

"فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه" [٧٥]

أي أن القرآن الكريم لا يمكن وضعه قيد المقارنة مع كلام البشر، فهو كلام لا مثيل له، ولا حدود ولا نهاية له. ويلزم قراءة الكلام

---

٧٤ البخاري، فضائل القرآن، ٢١/ ٥٠٢٧.

٧٥ الدارمي، فضائل القرآن، ٦.

الإلهي بقلب متيقظ لأن القرآن الكريم يكشف أسراره بحسب حالة قلب القارئ.

ويقول النبي ﷺ:

"مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة، ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة، لا ريح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة، ليس لها ريح وطعمها مر" [٧٦]

ويقول النبي ﷺ في حديث شريف آخر بشأن الذين يقرؤون القرآن بغفلة عن تدبره:

"...يقرؤون القرآن لا يجاوز حلوقهم، أو حناجرهم..." [٧٧]

إذاً، فإن قارئ القرآن بدون التدبر والتفكر فيه لا يحصل على شيءٍ من بركة القرآن الكريم.

وإن مثل هذه القراءات تودي بأصحابها إلى نار جهنم يوم القيامة. حيث يقول الله تعالى بحق الذين يتلون القرآن بهذه الشاكلة:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [٧٨]

٧٦ البخاري، فضائل القرآن، ١٧، ٣٦/ ٥٤٢٧؛ مسلم، المسافرين، ٢٤٣.

٧٧ البخاري، فضائل القرآن، ٣٦/ ٦٩٣١.

٧٨ محمد، ٢٤.

فإن العباد المتمتعين بالقلوب السامية وأصحاب الفكر الحساس والعميق يأخذون من هذا التحذير عبراً كثيرة. كيف لا يجب التفكير بالقرآن والنبي ﷺ عندما نزلت الآية الكريمة:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [٧٩]

بقي يبكي إلى الصباح والدموع تنهمر من عينيه مثل نجمة متلألئة تحسدها نجوم السماء.

ويروي لنا التابعي عطاء بن رباح رحمة الله عليه، حيث يقول:

"دخلت مع ابن عمر رضي الله عنهما على عائشة رضي الله عنها، فقال ابن عمر رضي الله عنهما لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: حدثينا بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ. فقالت أم المؤمنين رضي الله عنها: كل أمره عجيب، غير أنه أتاني في ليلتي، فدخل معي في فراشي حتى ألصق جلده بجلدي، فقال: **"أتأذنين لي أن أتعبد لربي"**؟

فقلت: والله إني لأحب قربك، ولأحب هواك، فقام إلى قربة فتوضأ منها، ثم قام فبكى وهو قائم حتى بلغت الدموع حِجره، ثم اتّكأ على شقه الأيمن، ووضع يده اليمنى تحت خده الأيمن، فبكى حتى رأيت الدموع بلغت الأرض، ثم أتاه بلال بعدما أذن الفجر، رآه

٧٩ آل عمران، ١٩١.

يبكي. قال بلال: لم تبك يا رسول الله وقد غُفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟

قال رسول الله ﷺ: **"يا بلال، أفلا أكون عبداً شكوراً؟ وما لي لا أبكي وقد نزلت علي الليلة:**

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ. رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾"[٨٠]

وبهذا الاعتبار، فإن دموع المؤمنين التي تنهمر من خشية الله تعالى تُعتبر زينة لياليهم الفانية، ونجوماً متلألئة في ظلمات قبرهم، وقطرات الندى لبساتين الجنة.

أدعو الله سبحانه وتعالى أن لا يجعلنا ممن لا تتأثر وتخشع قلوبهم بأسرار القرآن وحِكَمه، ولا تمتلئ أعينهم بالدموع عند تلاوته!

❀ ❀ ❀

وخلاصة القول، ينبغي عدم الاكتفاء بالتلاوة اللفظية للقرآن الكريم فقط، وإنما يجب بذل أقصى جهد ممكن للتخلق بأخلاقه، وتطبيق أحكامه في الحياة، لأن هذه الأمور هي الفائدة الحقيقية لبركة

٨٠ آل عمران، ١٩١– ١٩٢. ابن حبان، ٢، ٣٨٦.

القرآن، وإن تعاليم رسول الله ﷺ لأصحابه الكرام وبالتالي لنا نحن أمته كانت بهذا الاتجاه.

يقول أبو عبد الرحمن السُلمي:

"حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبي ﷺ: إنهم كانوا يقترئون من رسول الله ﷺ عشر آيات فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قالوا فعلَمنا العلم والعمل." [٨١]

ويقول مولانا بديع الزمان قدس الله سره:

"القرآن الكريم هو أوصاف وأحوال الأنبياء، فاقرأ القرآن الكريم بخشوع، وطبق أحكامه وكأنك في حضرة الأنبياء والأولياء! وعندما تقرأ قصص الأنبياء يبدأ قفص الجسد بالتضييق على طيور الروح!"

"وإننا تخلصنا من هذا القفص الجسدي بهذه الوسيلة، ولا يوجد سبيلٌ للخلاص من ذلك القفص سوى طريق التوحيد!"

يا رب! لا تحرم قلوبنا من نور القرآن ومن محبة الحبيب المصطفى ﷺ!

آمين!

٨١ ابن حنبل، ٥، ٤١٠؛ الهيثمي، ١، ١٦٥.


دمشق
البحر الأبيض
حيفا
طبريا
الناصرة
نهر الأردن
بصرى
فلسطين
يافا
الرملة
أريحا
عمّان
اسدود
القدس
بيت لحم
البحر الميت
السدوم


سيدنا سليمان
عليه السلام

سيدنا سليمان عليه السلام

الذي حفظ قلبه من ثروة الدنيا الهائلة وسلطة التصرف فيها

وُلد سليمان عليه السلام في غزة، وكان عندما توفي والده داوود عليه السلام في الثانية أو الثالثة عشر عاماً من عمره، ومثل أبيه تولى الحكم في أمره، ثم بُعث نبياً في قومه، وقد بنى سليمان عليه السلام بيت المقدس (المسجد الأقصى) في سبع سنوات. تزوج من بلقيس ملكة سبأ، وتوفي عليه السلام في القدس.

❁ ❁ ❁

كان سليمان عليه السلام صاحب رأي سديد منذ نعومة أظافره، يتمتع بذكاء خارق. ويبين رسول الله ﷺ هذه الخاصية لدى سليمان عليه السلام من خلال الحديث الآتي:

"كانت امرأتان معهما ابناهما، جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت صاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك، فتحاكمتا إلى داوود عليه السلام، فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان بن داوود عليهما السلام فأخبرتاه، فقال: ائتوني بالسكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله، هو ابنها، فقضى به للصغرى." [٨٢]

لأن شفقة الأمومة لم تكن لترضى بموت ابنها.

---

٨٢ البخاري، الأنبياء، ٤٠/ ٦٧٦٩.

وهناك رواية أخرى تتعلق بفراسة ونباهة سليمان عليه السلام:

ذات ليلة اقتحم قطيعٌ من الغنم حقل أحد الناس وعاث فيه فساداً ودماراً، فجاء صاحب الحقل إلى داوود عليه السلام يشكو إليه صاحب الغنم. وكانت قيمة مزروعات الحقل التي أُتلفت مساوية لقيمة قطيع الغنم، ولذلك فقد حكم داوود عليه السلام بإعطاء الأغنام إلى صاحب الحقل، وفي تلك الأثناء وعلى الرغم من صغر سن سليمان عليه السلام، فقد قال:

"يا أبتي إن للمسألة طريقة أخرى للحكم! لنعطِ الأغنام إلى صاحب الحقل كدينٍ في ذمته مدة من الزمن؛ وليستفد من حليبها وصوفها، وخلال هذه المدة يتم إصلاح الحقل وزراعته من جديد، وتبقى الأغنام لدى صاحب الحقل حتى يعود حقله إلى حالته السابقة. وعندما تنصلح أموره وتعود إلى طبيعتها، يسلم القطيع إلى صاحبه!

أُعجب داوود عليه السلام بهذا الاقتراح وحكم بموجبه، وقد ورد ذكر هذه الحادثة في القرآن الكريم، حيث يقول الله تعالى:

﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ [٨٣]

ويقول تعالى في الآية الأخرى:

﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا...﴾ [٨٤]

---

٨٣ الأنبياء، ٧٨.

٨٤ الأنبياء، ٧٩.

وقد اختار داوود ﷺ ولده سليمان لخلافته في الحكم من بين أبنائه التسعة عشر وذلك بسبب فراسته ونباهته الفائقة، وتعلق قلبه بالحق سبحانه وتعالى، إلا أن بني إسرائيل اعترضوا على هذا التعيين بالقول:

إن سليمان يُعدّ صغير السن؛ وإن بيننا من هو أعلى وأكبر منه!

ولتفادي الاختلاف فقد أجرى داوود ﷺ امتحاناً بحضور العلماء وذلك بموجب الأمر الإلهي الذي جاءه من السماء، وقال لولده سليمان سائلاً: ما الشيء الذي إذا صلُح صلُح كل شيء من الإنسان، وإذا فسد فسد كل شيءٍ من الإنسان؟ فقال سليمان ﷺ: هو القلب.

فأعجب الحاضرون لهذا الجواب.

وبعد ذلك قال لهم داوود ﷺ أحضروا عصيّكم فأي عصاة أثمرت فإن صاحبها ولي الأمر بعدي، فرضوا بذلك، وجاؤوا بعصيهم، فقال لهم داوود ﷺ:

- ليكتب كل واحد منكم اسمه على عصاه فكتبوا، ثم جاء سليمان بعصاه وكتب عليها اسمه، ثم أُدخلت جميع العصي إلى بيت وأُغلق عليها الباب وسُد بالأقفال، ووضع تحت الحراسة، و في اليوم التالي فتح داوود الباب وأخرج العصي فكانت عصيهم جميعاً كما هي، إلا عصى سليمان فقد أورقت واخضّرت، ولما رأى داوود ﷺ هذا الأمر حمد الله تعالى وشكره، وأما بنو إسرائيل فقد قبلوا الأمر ورضوا بسليمان ﷺ خليفة لملكهم داوود ﷺ.

وبعد حلّ مسألة الخلافة بلطف الله تعالى وفضله، توجه داوود ﵇ إلى ولده سليمان ﵇ بالنصائح الآتية:

– "يا بني! إياك والهول، فإن نفعه قليل وهو يهيج العداوة بين الإخوان، وإياك والغضب، فإن الغضب يستخف بصاحبه. وعليك بتقوى الله وطاعته، فإنهما يغلبان كل شيء، وإياك وكثرة الغيرة على أهلك من غير شيء فإن ذلك يورث سوء الظن بالناس وإن كانوا برآء، واقطع طمعك عن الناس فإن ذلك هو الغنى، وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر.

وإياك وما يُعتذر منه من القول والفعل، وعوّد نفسك ولسانك الصدق، والْزم الإحسان فإن استطعت أن يكون يومك خير من أمسك فافعل، وصل صلاة مودِع، ولا تجالس السفهاء، ولا ترد على عالم، ولا تماره في الدين، وإذا غضبت فالصق نفسك بالأرض وتحول من مكانك، وارجُ رحمة الله فإنها وسعت كل شيءٍ." [٨٥]

وأصبح سيدنا سليمان ﵇ ملكاً بعد وفاة والده داوود ﵇، حيث يقول الله تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [٨٦]

وأوتي نعماً وملكاً عظيماً، إذ يقول الله تعالى:

---

٨٥ الثعلبي، عرائس المجالس، ص. ٣٢٣.

٨٦ ص، ٣٠.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [87]

وقد كان سليمان عليه السلام يفهم تسبيح الطيور، ويعلم منطقها ولسانها، وفي ذلك يقول الله تعالى:

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَاأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [88]

وقد وضع الإنس والجن تحت أمره، وسُخر له الريح والحيوانات يتصرف فيها كيف يشاء، وقد ورد ذلك في القرآن الكريم:

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ [89]

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [90]

---

٨٧ النمل، ١٥.

٨٨ النمل، ١٦.

٨٩ الأنبياء، ٨١.

٩٠ سبأ، ١٢.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[٩١]

وقد فُسرت كلمة "التماثيل" التي مرت في الآية الكريمة بالتصاوير، والرسوم، والهياكل التي تصنع من النحاس، والطين، والزجاج للكائنات التي فيها روح، والتي لا روح فيها.

ويمكن أن يستنتج من أحد المعاني العامة لكلمة "التماثيل" بأن صناعة الهياكل والرسوم والصور لكل الكائنات الحية وغير الحية، كانت جائزة في شريعة سليمان عليه السلام، وقد اختلف المفسرون في هذه المسألة، ويمكن أن نجمع هذه الآراء في اتجاهين:

١- يرى قسم من المفسرين عدم جواز صناعة الهياكل، والرسوم للكائنات التي لها روح في شريعة سليمان عليه السلام، وذلك لأن سيدنا سليمان يتبع شريعة موسى عليه السلام، وقالوا إن صناعة الرسوم محظورة بشكل جلي حسب شريعة موسى عليه السلام، وحسب هذا الرأي، فإن كلمة "التماثيل" تشمل رسم الكائنات التي ليس لها روح فقط دون غيرها، ولذلك فإن هذا الحكم يتطابق مع التحريم الذي جاء به الإسلام لرسم الكائنات الحية، ومع ذلك، فلو أنه كان من الجائز صناعة الهياكل والصور للكائنات الحية في شريعة سليمان عليه السلام،

٩١ سبأ، ١٣.

فيمكن تفسير ذلك بأن الجواز كان نابع من عدم وجود الخشية أو القلق من تعبد تلك التماثيل في تلك الفترة.

٢- أما البعض الآخر من المفسرين، فقد رأوا جواز صناعة الرسوم والهياكل والتصاوير لكل الكائنات التي لها روح، والتي لا روح لها في شريعة سليمان عليه السلام. وبناء على ذلك يطرح السؤال التالي نفسه:

"هل يمكن التوصل إلى حكم بجواز صناعة الهياكل، والرسوم، والتصاوير للكائنات التي لها روح والتي ليس لها روح في الإسلام أيضاً، وذلك حسب المعنى المستنبط من القرآن الكريم؟

وقد أجاب الفقهاء والمفسرون المسلمون على هذا السؤال بالحكم الآتي:

"إن رسم الكائنات التي لا روح لها فقط جائز في الإسلام، وذلك مثل المناظر الطبيعية، والأشجار والنباتات وغيرها."

لأن النبي ﷺ قد حظر رسم الكائنات التي لها روح في أحاديث شريفة كثيرة، وإن الأحاديث المتعلقة بالرسوم توضح الأمر في هذا الشأن.

حيث إن ابن عباس رضي الله عنه يبين في روايته، أن النبي ﷺ يقول:

"من صور صورة في الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح يوم القيامة. وليس بنافخ" [92]

---

٩٢ البخاري، اللباس، ٩٧؛ مسلم، اللباس، ١٠٠/ ٢١١٠.

وفي رواية لابن عباس ﵄ يبين أن النبي ﷺ يوم فتح لم يدخل البيت الحرام عندما رأى فيه التماثيل والأصنام، وأمر أصحابه بتحطيمها وإتلافها، وقد رأى من بين مجموعة تلك التماثيل رسوماً لسيدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وفي أيديهما سهام القمار (الأزلام)، فقال النبي ﷺ:

"قاتلهم الله، والله إن استقسما بالأزلام قط" [93]

وفي النهاية، حتى لو سُلم بجواز صناعة الهياكل، والرسوم للكائنات التي لها روح في شريعة سيدنا سليمان ﵇، فإن هذا العمل قد تم تحريمه بشكل قطعي وواضح.

وحسبما رواه ابن مسعود ﵁ أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

"إن أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة المصورون" [94]

لأن الاهتمام المفرط الذي يتم إبداؤه تجاه الرسوم والهياكل تقود الإنسان في النتيجة إلى عبادة الأوثان.

وتقول أم المؤمنين السيدة عائشة ﵂ فيما ترويه:

"واعد رسول الله ﷺ جبريل ﵇، في ساعة يأتيه فيها، فجاءت تلك الساعة ولم يأته، وفي يده عصا فألقاها من يده. وقال:

"ما يخلف الله وعده، ولا رسله"

---

٩٣ البخاري، الأنبياء، ٨، الحج، ٥٤، المغازي، ٤٨/ ٣٣٥٢.

٩٤ البخاري، اللباس، ٨٩/ ٥٩٥٠؛ مسلم، اللباس، ٩٦.

ثم التفت فإذا جرو كلب تحت سريره، فقال:

"يا عائشة! متى دخل هذا الكلب ههنا؟"

فقلت: والله! ما دريت. فأمر به فأخرج. فجاء جبريل.

فقال رسول الله ﷺ : **"واعدتني فجلست لك فلم تأت"**

فقال جبريل عليه السلام: منعني الكلب الذي كان في بيتك، إنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة."[٩٥]

ولا ينبغي فهم كلمة "الصورة" التي وردت في هذا الحديث إلى جانب ذكر "الكلب" لا ينبغي فهمها على أنها تعبير عن الرسم بشكل دائم. وإنما تتضمن الكلمة أيضاً معنىً يدل على تصوير الكائنات التي لها روح على شكل هياكل أو نحت ونقش أشكاله على الحجارة أو الأخشاب، فالرسم يمثل ظلّ الأشياء، ولا يتضمن حجمها وامتداداتها، وعلى هذا، فحتى لو أن الصورة تشمل بمدلولها رسم كل نوع من الكائنات التي لها روح، فيمكن اعتبار أن سبب تحريمها يعود إلى احتمال اتخاذها أوثاناً تُعبد بمرور الزمن.

ومن جهة أخرى، فمن المعلوم في أيامنا هذه توسع ساحة استخدام الصور الفوتوغرافية والرسوم في الحياة اليومية، حتى أنها أصبحت في بعض الحالات من الاحتياجات الضرورية للإنسان، ولأن الإسلام دين يتسم بالملائمة لكل الظروف، فقد أذن باستخدام

٩٥ مسلم، اللباس، ٨١- ٨٢/ ٢١٠٤؛ البخاري، بدء الخلق،٧، اللباس، ٤٩.

مثل هذه الأمور التي أصبحت بحكم الحاجات الضرورية في حياة الناس، وذلك ضمن الحدود الشرعية المعروفة.

❀ ❀ ❀

وعلينا التذكير هنا، بأنه ثمة إشارة في الحديث الآنف ذكره إلى حقيقة مهمة وهي أن وجود الكلب في بيت ما سبب لعدم دخول الملائكة إلى ذلك البيت، فلقد حرم ديننا الإسلامي الجليل تربية الكلاب داخل البيوت، لأن نفس الكلب ولعابه من الأشياء النجسة، حيث أثبتت الحقيقة العلمية التي لا تدع مجالاً للشك في عصرنا هذا أن لعاب الكلب، وفروها، وحتى نفسها مصدر لمختلف الأمراض المعدية، وعلاوة على هذا فإن هذه من الحقائق التي توصّل إليها وأثبتها العلم في هذا العصر بما يتعلق بهذا الأمر، فمن يعلم كم من الحكم المجهولة للإسلام التي لم يطلع عليها أحد والتي تقف وراء تحريم مثل هذه الأمور.

وكما بين الحديث الشريف فإن جبريل عليه السلام امتنع عن المجيء إلى النبي ﷺ بسبب دخول جرو كلب صغير صدفة إلى البيت، فإن كان الأمر كذلك، أفلا يجب التفكير بحالة البيوت التي تُربى فيها الكلاب بمحض إرادة أصحابها، ودونما سبب أو حاجة تدعو إلى ذلك؟! وذلك لأن سؤال النبي ﷺ لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها:

"يا عائشة! متى دخل هذا الكلب ههنا؟" وجوابها بقولها:

والله! ما دريت. الذي تضمن القسم بالله يظهر بأن اتخاذ الكلب

داخل بيت المسلم لا يمكن أن يكون حتى مجالاً للبحث والنقاش، وإن هذه الحادثة لم تجر بدون سبب، وإنما جرت بناء على حكمة بليغة وهي بيان الحكم وإظهاره للمؤمنين.

أما القط، فإنه حيوان أليف منزلي، ولا يوجد حظرٌ على تواجده في البيوت، وإنما تربية الكلاب داخل البيوت غير جائزة، ولكن رخص بتربية الكلاب ـ بشرط خارج البيوت ـ من أجل الصيد، أو حماية البساتين والمواشي أي كلاب الرعي، وذلك لما فيه من تلبية لحاجة ضرورية للإنسان.

وفي الحقيقة، فإن الله ﷻ قد جعل الكلب طوع أمر الإنسان، وميّزه عن كثير من الحيوانات بصفات خاصة به، فزوّده بصفة الوفاء النادر والصداقة تجاه صاحبه، وعلاوة على ذلك، فقد جهّزه بمواهب استثنائية لا يمكن لأدقّ الآلات الفنية التمتع بها، حيث أن الكلاب في أيامنا هذه تقوم بخدمات في غاية الأهمية للإنسان، إذ أنها تستخدم في إجراءات الكشف عن المخدرات، وعمليات البحث عن الناس وتثبيت أماكنهم تحت الأنقاض في حالات الكوارث، وتُستخدم في حراسة المنازل والبساتين، إضافة إلى تكليفها بمهمات الحراسة على صحة الإنسان.

واليوم وبشكل خاص في المجتمع الغربي حيث تمزقت العائلات وبدأ الإنسان يعيش حياة فردية منعزلة، لجأ الناس وخاصة الذين يعيشون وحيدين، لجأوا إلى تربية الكلاب في بيوتهم بشكل كبير وذلك لمواجهة خطر اللصوص، والمتشردين، الإضافة إلى ذلك فقد

أُجبر الناس في كثير من الدول الغربية على القيام بالتأمين والضمانات الصحية والحياتية للكلاب التي يتخذوها في بيوتهم. ولا يرى الكثير من الناس هناك بأساً في دفع رسوم التأمين والضمان على الكلاب إضافة إلى مصاريف تربيتها، ويُبدون كرماً سخياً في هذا المجال، في حين أنهم جميعهم أو أغلبهم لا يتسمون بهذا الكرم والسخاء تجاه فقراء المجتمع، وإن أكثر المصاريف وتكاليف المعيشة التي تُبذل هناك هي في سبيل رعاية الكلاب التي يربونها في بيوتهم، وبمرور الزمن تفسد الفطرة السليمة لتلك الكلاب وأصحابها، لأن مشاعر الولع المفرط بالكلب تقود الشخص عملياً مع مرور الزمن إلى النظر للكلب على أنه فرد من العائلة، وبهذا الإفراط، يصل الشخص إلى مرحلة ينظر فيها إلى أولاده على أنهم أفراد من الدرجة الثانية في العائلة، وانتقال الكلب إلى الدرجة الأولى، وإن النتيجة الكارثية والمرعبة لهذا الوضع هو تفشي الأنانية في نفوس الناس، وبدل المحبة للأولاد يتم توجيهها نحو الكلب وبهذه الصورة يبدأ الميل نحو الاهتمام بالأولاد والإنجاب بالضمور والاضمحلال في المجتمع. ولهذا فإن عدد السكان يتجه إلى التناقص بدل الازدياد.

ومع هذا كله، فإن تربية الكلاب في البيوت لا تعتبر شكلاً من الحماية بالنسبة لها، وإنما على العكس من ذلك فإن في هذه الطريقة إجبار لهذه المخلوقات على العيش في ظل ظروف وشروط مناقضة لطبيعة خلقتها.

وبالموازنة مع الإسلام الذي يتصدر العصور بتقدمه، والذي أجاز ضمن حالات الضرورة تربية الكلاب خارج البيوت، فإن المجتمعات الأخرى وخاصة الغربية منها بأطوارها وسلوكياتها المنحرفة تتجه إلى تدمير مرعب للعدالة والعائلة، ولكن مع الأسف فإننا بتنا نشاهد في الفترات الأخيرة عادة تربية الكلاب في المنازل بدأت تتفشى في مجتمعاتنا، وإن هذه ظاهرة من مظاهر التقليد الأعمى وفي المجالات السلبية فقط.

وإن المنع الذي فرضه الإسلام على تربية الكلاب في البيت، لا ينبغي استخدامه بشكل سلبيي تجاه تلك الكلاب. أي لا ينبغي اللجوء إلى إساءة معاملة الكلاب أو عدم تربيتها، وإنما على العكس من ذلك، فلأن رحمة الإسلام تشمل جميع المخلوقات، فقد أمر بحماية كل المخلوقات ومنها الكلاب ومعاملتها بعين الرحمة والشفقة.

حيث أنه ورد في حديث شريف أن امرأة دخلت الجنة لأنها أنقذت كلباً كان على مشارف الموت بسبب العطش بسقايتها له.

وإن في تاريخنا شواهد عظيمة على مشاعر الرحمة تجاه المخلوقات، وحتى على الصعيد المؤسساتي، فقد أنشئت أوقاف مختلفة لأجلها، وقد مدت هذه الأوقاف أيادي الرحمة والشفقة إلى الحيوانات المحتاجة للحماية، وإن مثل هذه الأمور معلومة ومشهورة لدرجة كبيرة.

ولذلك فإن الأمر المهم، بشأن تربية الكلاب هو مراعاة الحدود الشرعية التي وضعها الإسلام.

محبة سيدنا سليمان عليه السلام للخيل

يقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ. فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ. رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾[٩٦]

وحسب بعض المفسرين، فإن سيدنا سليمان عليه السلام قال:

- "إني أحببت الخيل لذكر ربي."

أي أنه لم يعقّ صلاته أو ورده. وفي النهاية أخفيت تلك الخيول خلف الستار، تسللت إلى الحظائر، أو اختفت عن الأنظار في مضمار السباق، وفي هذا الأثناء كان قائماً يصلي ولما أنهى صلاته، قال:

- ""ردوها عليّ"

وبدأ يربت على أعناقها، وأفخاذها ويداعبها، وأبدى العناية بقطعانها.

وحسب رأي فخر الدين الرازي، فإن تربية الخيل والاهتمام بتكاثرها من أجل الحرب كانت مستحبة في شريعة سليمان عليه السلام، كما هو الحال في الإسلام. وذات يوم فتش سليمان عليه السلام خيوله، وعندما

٩٦ ص، ٣١– ٣٣.

رآها تقف بمجموعها على ثلاثة قوائم وتلمس الأرض بأظفر قدمها الرابعة وهي تنتظم في سلسلة، قال:

- "لقد أحببت أموال الدنيا من أجل ذكر اسم ربي، أي من أجل الفوز برضا ربي ونشر اسمه بين العباد؛ ولم أردها من أجل نفسي.!"

ومن ثم أمر سائس الخيل بإخراجها للجري، وبقي متسمّراً في مكانه يشاهد الخيول وهي تجري حتى غابت عن الأنظار، وبعدها قال لمربي الخيل آمراً: "ردوا إليّ الخيل" وبدأ يداعب الخيل ويقبلها، وهكذا فإنه كان يشاهد أحد التجليات الحسنة لقدرة ربه وبديع صنعه.

وقد كانت الخيل على مرّ التاريخ بشارة لبطولات وانتصارات الفرسان البواسل، وأصالتهم وفتوحاتهم.

وإن الخيل من المخلوقات الاستثنائية التي أقسم الله ﷻ بها في القرآن الكريم، حيث يقول الله تعالى:

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا. فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا. فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا. فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا. فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ [٩٧]

وقال النبي ﷺ بحق الخيل:

"الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، الأجر والمغنم" [٩٨]

---

٩٧ العاديات، ١-٥.

٩٨ البخاري، الجهاد، ، ٣٤/ ٢٨٥٢؛ مسلم، الإمارة، ٩٨/ ١٨٧٣ .

وقال أيضاً ﷺ:

"من احتبس فرساً في سبيل الله، إيماناً بالله، وتصديقاً بوعده، فإن شبعه وريّه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة" [٩٩]

ومن الناحية الروحية فإن الخيل من أقرب المخلوقات الإنسان، وإن الفارس الذي يتأهب لخوض المعارك يختار الفرس الأقرب إلى أحاسيسه ومشاعره، لأن الخيل تشعر في مواجهة الأعداء بنفس مستوى الحماس الذي يعيشه الفارس الممتطي لسرجها، وفي الوقت نفسه فإن الخيل واحدة من تجليات القدرة الإلهية، وجسمها يتمتع بتناسقٍ لا يُضاهى، وروعةٍ في جمال المظهر.

امتحان سيدنا سليمان عليه السلام:

ذات يوم أخضع الله سبحانه وتعالى سليمانَ عليه السلام لامتحان إلهي، فسلبه كل قدراته وإمكاناته دفعة واحدة، حيث يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [١٠٠]

وهناك روايات متعددة بشأن "الفتنة" أي الامتحان المذكور في الآية السابقة:

- أن سليمان عليه السلام فقدَ نفوذه وسلطته بسبب التمرد الذي قامت به مجموعة من الشياطين خلال بناء المسجد الأقصى والذين كانوا من

٩٩ البخاري، الجهاد، ٤٥/ ٢٨٥٣؛ النسائي، الخيل، ١١.

١٠٠ ص، ٣٤.

ضمن الحرفيين العارفين بفنون وحيل المهنة من الذين استقدمهم سليمان عليه السلام، وإما أنه ابتعد عن عرشه وأصبح في حالة من الضعف الجسدي أفقدته القدرة على الحكم، أو أن عرشه تعرّض للاحتلال وأُجلس مكانه واحدٌ مثل هيكلٍ لمدة أربعين يوماً.

وفي رواية أخرى:

"قال سليمان بن داود نبي الله: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة، كلهن تأتي بغلام يقاتل في سبيل الله، فقال له صاحبه - أو الملك -: قل: إن شاء الله، فلم يقل ونسي، فلم تأت واحدة من نسائه إلا واحدة جاءت بشق غلام" [١٠١]

وعندما سئل نبينا محمد ﷺ عن الروح، وأهل الكهف، وذو القرنين أجاب السائلين:

"عودوا غداً لأخبركم"

إلا أنه نسي قول "إن شاء الله" ولهذا السبب انقطع الوحي عن النبي ﷺ مدة من الزمن.

ويقول الله تعالى:

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا . إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ [١٠٢]

---

١٠١ البخاري، الأنبياء، ٤٠، الأيمان، ٣؛ مسلم، الأيمان، ٢٣/ ١٦٥٤.

١٠٢ الكهف، ٢٣- ٢٤.

- وبحسب رأي آخر، فإن سيدنا سليمان عليه السلام امتُحن بإصابته بمرض شديد، وبقي على عرشه مثل جسد لا روح فيه.
- وحسب رواية أخرى، أن الله تعالى أدخل إلى قلبه رعباً وخوفاً شديداً، وأصبح في حالة الجسد الذي لا روح فيه نتيجة هواجسه وقلقه من حلول المصائب والبلاء.

وبعد هذا الابتلاء والامتحان تلطف الله تعالى به وكرمه بعودته إلى حالته السابقة، واستغفر سليمان عليه السلام ربه، حيث يقول الله تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾[103]

وإنَّ طلب سيدنا سليمان عليه السلام إيتاءه ملكاً وقوة لا ينبغي لأحد غيره لم يكن من أجل التفاخر والتباهي بنفسه، وإنما كان ذلك من أجل إذلال الملوك والسلاطين الظالمين والطغاة الذين كانوا في عصره، لأن الملوك الذين في عهده كانوا يظلمون الناس ويسومونهم أشد أنواع العذاب بكل غرور واستكبار، وتجبر.

وقد أورد فخر الدين الرازي دعاء سيدنا سليمان عليه السلام بهذا المعنى:

"يا رب! هب لي ملكاً عظيماً لكي يقال بعد نيلي له ووفاتي (لو أن لملك الدنيا إخلاص لأحداً، لأخلص لسليمان)، ولا يبقى بعد ذلك لأحد الطمع والرغبة في أبهة الدنيا !"

---

١٠٣ ص، ٣٥.

وحسبما يُفهم من هذا الكلام، فإن القصد الأساسي لسيدنا سليمان عليه السلام لم يكن طلب ملك الدنيا، وإنما إرادة ملك الآخرة.

وقد جاء في الآية الكريمة:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآَخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [١٠٤]

وفي آية أخرى يشير الله عز وجل إلى قبوله لدعاء سليمان عليه السلام:

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ. وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ. وَآَخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [١٠٥]

وحسبما يُفهم من هذه الآيات الكريمة، فإن الله عز وجل قد سخر الشياطين (الجن) لسيدنا سليمان عليه السلام وجعلها طوع أمره من أجل استخدامها في البناء والغوص في البحار، وقد كان قسمٌ من هذه الشياطين يقوم بإشادة الأبنية الضخمة، والمساجد، والقصور، والرسوم، وتصنع قدوراً كبيرة كالأحواض، ومراجل ثابتة عظيمة، مما يعجز البشر عن القيام بمثلها، ويقوم قسمٌ آخر من هذه الشياطين باستخراج مختلف النعم من البحار، وكذلك الجواهر والكثير من الأشياء الجميلة والرائعة التي لا يمكن الحصول عليها إلا من البحار.

١٠٤ الشورى، ٢٠.

١٠٥ ص، ٣٦-٣٨.

وأما قوله تعالى في الآية الكريمة:

﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾

فقد تم تفسيره على رأيين:

- **الرأي الأول**: فقد رأى بعض المفسرين أن المقصود بالآية هم الأسرى والعبيد الذين كانوا بين يدي سليمان عليه السلام، وحسب هذا التفسير، فإن سليمان عليه السلام قد قيد هؤلاء الأسرى والعبيد من أجل القيام بأعمال السخرة، ومنعهم من الهرب.
- **الرأي الثاني**: وأما البعض الآخر من المفسرين فقد قالوا: بأن الآية الكريمة تعني أن بعض الشياطين عصت سليمان عليه السلام وخرجت عن أوامره وبسبب ذلك تم تقييدها بالسلاسل عقاباً لها على عصيانها ولتقوم بالأعمال التي كُلفت، وقد قبل أكثر المفسرين هذا الرأي وأخذوا به.

وقد تبنى ابن كثير رحمه الله هذا الرأي الثاني، وقال:

أنه تم تقييد قسم من الشياطين بالسلاسل من الذين أعلنوا العصيان والعناد، وامتنعوا عن القيام بالأعمال التي كُلفوا بها، فقاوموا الأوامر أو أدوا أعمالهم بشكل سيء.

إن الله عز وجل الذي أعطى سليمان عليه السلام مثل هذه القدرة والعظمة، قد منحه أيضاً صلاحية واسعة من التصرف في الكون، وفي ذلك يقول الله تعالى:

﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ. وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [106]

وحسب الرواية التي نقلها لنا أبو هريرة ﵁، يقول النبي ﷺ:

"إن عفريتاً من الجن تفلت البارحة ليقطع علي صلاتي، فأمكنني الله منه فأخذته، فأردت أن أربطه على سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم، فذكرت دعوة أخي سليمان:

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [107] **فرددته خاسئا"** [108]

وعلى الرغم من الغنى والسلطة والأبّهة التي تفضل الله تعالى بها على سليمان ﵇، فإنه عاش حياة عبودية مطلقة لربه سبحانه وتعالى ملؤها الخشوع، والتواضع، والوجد، وأبقى قلبه طاهراً متحرراً من الدنيا ومستغنياً عن مفاتنها.

وقد ورد في بيان فضل سليمان ﵇ وخشوعه:

"أرأيتم سليمان وما أوتي في ملكه، فإنه لم يرفع رأسه إلى السماء حتى قبضه الله تخشعاً لله" [109]

---

١٠٦ ص، ٣٩- ٤٠.

١٠٧ ص، ٣٥.

١٠٨ البخاري، الصلاة، ٧٥، الأنبياء، ٤٠/ ٣٤٢٣؛ مسلم، المساجد، ٣٩/ ٥٤١.

١٠٩ ابن أبي شيبة، المصنف، ج ٨، ص. ١١٨.

بناء بيت المقدس:

لقد بدأ داوود ﷺ بناء البيت المقدس بأمر الله ﷻ إلا أن البقية الباقية من العمر لم تكفه لإتمام بنائه، ومن أجل ذلك جمع سليمان ﷺ الجن، وتابع بهم إتمام بناء البيت المقدس، وأنشأ حوله مدينة تتألف من اثنا عشر حياً، وكان ذلك في العام (٩٦٧– ٩٥٣ قبل الميلاد)

وقد عُرف هذا المعبد في البداية باسم "البيت المقدس" ثم أصبح اسمه "المسجد الأقصى". ومن ناحية الفضل والأهمية فإنه يُعتبر من أحد أفضل ثلاثة مساجد، وأول هذه المساجد الثلاثة هو المسجد الحرام "الكعبة الشريفة"، وثانيها هو المسجد النبوي الشريف، وأما ثالثها فهو المسجد الأقصى.

وقد كان في هذا المسجد التابوت الذي يحتوي بداخله على الأمانات المقدسة وألواح التوراة.

وقد تعرّض البيت المقدس بعد وفاة سليمان ﷺ إلى التخريب عدة مرات في عصور مختلفة، حيث أنه في العام / ٥٨٦ ق. م/ ، اقتحم بختنصر (نبوخذ نصر) القدس وأحرق المدينة، وأخذ معه المجوهرات الموجودة في المسجد الأقصى إلى بابل، وقد بقي البيت المقدس في حالة حرب لسنوات طويلة، وعندما هَزَمَ الفرسُ البابليين وأذنوا لليهود بالعودة إلى عهودهم وأرضهم القديمة وبناء المعبد من جديد، تمت إشادة المعبد للمرة الثانية في عام / ٥١٥ ق. م/ . إلا أن الرومانيين

أحرقوا المعبد ودمروه في العام / ٧٠ م / ، وبقي مكان المعبد فارغاً لمدة طويلة من الزمن، ولكن مع كل ذلك فإن هذا المكان المبارك ظلّ يُعرف كمعبد مقدس وتُنفض عنه الغبار من جديد، ويروى أن سيدنا عمر بن الخطاب ﵁ أقام مسجداً في هذا المكان وذلك العام / ٦٣٧ ميلادي / ، وفي عام / ٦٩١ ميلادي / أقام الخليفة الأموي عبد الملك بجانب المكان الذي وضع عليه النبي ﷺ قدمه في المعراج "قبة الصخرة" أقام بجانبها "المسجد الأقصى"، واكتملت عمليات البناء في عهد ولده وليد الأول، وقد جرت عدة إصلاحات وتعديلات على المسجد الأقصى إلى يومنا هذا.

❀ ❀ ❀

للمسجد الأقصى مكانة سامية، وفضيلة عُليا في ديننا الحنيف، لأنه أولى القبلتين للإسلام، حيث بقي المسلمون يتجهون إلى المسجد الأقصى ويصلون إليه حتى الشهر السادس عشر للهجرة، ومن جهة أخرى فقد كان المسجد الأقصى نقطة نهاية حادثة الإسراء، ونقطة بداية معراج الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

يقول النبي ﷺ في الحديث الشريف:

"لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول ﷺ، ومسجد الأقصى" [١١٠]

---

١١٠ البخاري، فضائل الصلاة، ٦/ ١١٨٩؛ مسلم، الحج، ٢٨٨/ ٨٢٧.

وفي حديث شريف آخر يقول عليه الصلاة والسلام:

"إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه ﷻ خلالا ثلاثا، فأعطاه اثنتين، ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة: سأله حكما يصادف حكمه فأعطاه إياه، وسأله ملكاً لا ينبغي لاحد من بعده فأعطاه إياه، وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه؟ فنحن نرجو أن يكون الله قد أعطانا إياها"[١١١]

سليمان عليه السلام والنمل:

يقول الله تعالى:

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ. حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[١١٢]

قالت النملة لصاحباتها:

- "إن سلطة سليمان عظيمة، وسوف تُداسون وتُسحقون تحت أقدامهم! فأسرعوا في الدخول إلى مأواكم."

وعندما بلغت هذه الكلمات مسامع سليمان عليه السلام قال:

---

١١١ النسائي، المساجد، ٦؛ ابن ماجه، إقامة الصلاة، ١٩٦/ ١٤٠٨.

١١٢ النمل، ١٧- ١٨.

- "لا، إن سلطتي وعظمة ملكي فانية! وحياتي الدنيوية محدودة. وإن السعادة التي تأتي بها كلمة التوحيد لا حدود لها!"

يقول الله ﷻ:

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [113]

وكما يتبين من الآية الكريمة، فإن سليمان عليه السلام على الرغم من عظمة ملكه وواسع سلطته لجأ بخشوع وتواضع كبيرين وضمن مشاعر من العبودية المتذللة إلى رحمة الحق سبحانه وتعالى طالباً العفو والرحمة له ولوالديه.

ويخبرنا النبي ﷺ النصيحة التي قدمتها أم سليمان لولده، فيقول:

"قالت أم سليمان بن داود لسليمان: يا بني لا تكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيرا يوم القيامة " [114]

وعلى ذلك، فمن أجل تجنب الوقوع في فقر يوم القيامة، يتطلب الأمر منا بذل غاية الجهد والطاقة في سبيل التحلي بالعبودية والخضوع التام للحق سبحانه وتعالى، وعدم الانخداع ببريق الدنيا وسلطتها وراحتها.

---

١١٣ النمل، ١٩.

١١٤ ابن ماجه، إقامة الصلاة، ١٧٤/ ١٣٣٢.

سيدنا سليمان عليه السلام، وطائر الهدهد وبلقيس:

مع انتهاء أعمال بناء المسجد الأقصى واكتماله جمع سيدنا سليمان عليه السلام جيشه المؤلف من الريح، والجن، والإنس، والطير، والحيوانات الوحشية الأخرى ليتجه معهم في رحلة إلى مكة المكرمة، وقد بشر سليمان عليه السلام بأن مكة المكرمة سوف تتشرف ببعثة نبينا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، ومن مكة اتجه سليمان عليه السلام في رحلته إلى صنعاء، وخلال مسير الجيش أراد الصلاة في واد جميل صادف طريقهم. وفي هذه الأثناء فارق الهدهد الجيش بقصد البحث والتجوال في تلك الأنحاء التي يمر بها لأول مرة، وانضمّ إلى أعدادٍ من طيور الهدهد التي صادفها في تجواله، وخلال تجواله رأى مناظر ومشاهد في الأماكن التي وصل إليها أصابته بالحيرة والدهشة الشديدة، وأخذته طيور الهدهد الأخرى في نزهة بين بساتين وحدائق قصر بلقيس.

وخلال ذلك، التفت سيدنا سليمان عليه السلام حوله باحثاً عن الهدهد من أجل إيجاد ماء للوضوء، لأن وظيفة الهدهد كانت إعلام سليمان عليه السلام عن أماكن المياه من أجل الوضوء.[115]

١١٥ حسبما يقوله ابن عباس رضي الله عنه، أن الهدهد يعلم بأماكن المياه، وبالتالي يجد لسليمان عليه السلام الماء، وحتى أنه يعرف مدى قرب المياه أو بعدها. فحيثما تصادف أماكن المياه تبدأ بالنداء، فتأتي الجن لتحفر المكان وتستخرج الماء. وقد قيل لابن عباس: إذا كان الهدهد يتمتع بهذه الخصلة، فكيف عندما ينصب طفل صغير فخاً، ويغطيه بقليل من التراب، فيأتي الهدهد ودون أن يرى الفخ الذي تحت التراب، ويدوس على المكان فيعلق في الفخ. بينما يُفترض أنه يرى الماء تحت الأرض. فأجاب ابن عباس: إذا جاء القدر عمي البصر، وذهب العقل من الرأس.

بحث سليمان عليه السلام عن الهدهد طويلاً لكنه لم يعثر عليه، ويخبرنا الله تعالى عن ذلك في الآية الكريمة:

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ [116]

في البداية بحث سليمان عليه السلام عن الهدهد بعين الشفقة والخوف عليه قائلاً: "مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ"، وعندما علم أنه فارق الجيش بدون إذنه، هذه المرة قال حسب ما تقتضيه قواعد الانضباط التي تحكم وتنظم الجيش:

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [117]

ولم يمض وقت طويل حتى عاد الهدهد، حيث يقول الله تعالى:

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [118]

سبأ: اسم لقبيلة في اليمن يقترن ذكره باسم الأسلاف والأجداد، ومدينة سبأ؛ هي عاصمة المملكة التي حكمتها الملكة بلقيس. ويقول الله تعالى بشأن سبأ:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [119]

---

١١٦ النمل، ٢٠.

١١٧ النمل، ٢١.

١١٨ النمل، ٢٢.

١١٩ سبأ، ١٥.

وتابع الهدهد كلامه يروي لسليمان عليه السلام ما شاهده من الأمور:

﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ. وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ. أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ. اللهُ لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [١٢٠]

فكان جواب سليمان عليه السلام الذي ينقله لنا الله تعالى:

﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [١٢١]

لقد كان لسليمان عليه السلام ختمٌ يحمل شكل حجر خاتم اليد، وعندما يضع هذا الختم في أصبعه تخضع له المخلوقات جميعاً بالطاعة، وحسب الروايات الواردة في هذا المجال فإن الخاتم كان مكتوب عليه عبارة "لا إله إلا الله محمد رسول الله"

كتب سليمان عليه السلام كتاباً بدأه بـ "بسم الله الرحمن الرحيم"، وطبع عليه ختمه ثم سلمه إلى الهدهد، وأردف منبهاً له:

---

١٢٠ النمل، ٢٣- ٢٦.

١٢١ النمل، ٢٧.

﴿اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ ١٢٢

أخذ الهدهد الكتاب من سليمان وذهب به إلى مملكة سبأ، فألقاه على عرش بلقيس. ومن ثم انسحب إلى ناحية في القصر وبدأ يراقب الأحداث التي ستجري فيه.

وفي الصباح عندما استيقظت بلقيس من نومها، وجدت الكتاب الملقى على عرشها، فذهلت من الأمر وأصابها فضول شديد لمعرفة محضر هذا الكتاب، لأن الأبواب كانت مغلقة بإحكام، فسألت حراس القصر:

- من جلب هذا الكتاب إلى قصري؟

أجاب الحراس:

- كنا نحرس أمام الباب، ولم يدخل أحد إلى الداخل!

وفي حالة من الحيرة والدهشة لهذا الأمر فضّت بلقيس الكتاب، قرأت الكتاب وازدادت حيرتها أكثر من ذي قبل، فاستدعت وجهاء القوم ووزراءها إلى اجتماع عاجل، وقالت لهم:

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ. إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ١٢٣

---

١٢٢ النمل، ٢٨.

١٢٣ النمل، ٢٩- ٣٠.

قال بعض المفسرين إن هذا الاحترام الذي أظهرته بلقيس تجاه الكتاب ومضمونه يشير إلى النتيجة التي انتهت بتشرفها بنور الهداية. ومثله ما قاله سحرة فرعون لموسى عليه السلام:

– يا موسى! إما أن تلقي أنت أولاً، أو نكون نحن الملقون؟ مظهرين احتراماً ورقّة في كلامهم وسلوكهم وكانت النهاية أن تشرفوا بنور الإيمان.

وعلى العكس من هذا، فإن كسرى فارس عندما تلقى كتاب النبي محمد ﷺ الذي يدعوه إلى الهداية والإيمان قام بتمزيقه وألقاه مظهراً الاستحقار والسخرية به، فكانت النتيجة أن انهارت امبراطوريته وزال ملكه، وانتهت حياته على الكفر ليلقى عاقبته بالخسران المبين.

كان أحد أولياء الله تعالى وهو "بشر الحافي" قد رأى ذات يوم ورقة ملقاة على الأرض مكتوب عليها اسم "الله" تعالى فأخذها ونظفها ثم عطرها بريح طيبة وعلقها في مكان جميل من بيته، وبسبب هذا الاحترام المليء بالإجلال والتعظيم جازاه الله تعالى بمكافأة عظيمة، وألحقه بقافلة أوليائه الصالحين.

تابعت بلقيس قراءة الكتاب:

﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [١٢٤]

---

١٢٤ النمل، ٣١.

لقد بين سليمان عليه السلام لبلقيس في كتابه الذي بدأه بالبسملة ضرورة التوجه بالعبادة إلى الله تعالى وحده، وبعد بيان الاعتقاد الصحيح، دعاهم إلى ضرورة الوقوف مع أنفسهم ومحاسبتها مع الالتزام بعدم التكبر على سليمان، وبالتالي المجيء إليه مسلمين، وبهذا فقد أوضح لهم أن السعادة الحقيقية تكمن في الإسلام.

وبعد ذلك قالت الملكة بلقيس لمجلسها:

﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ [١٢٥]

فأجابها الوزراء، وقالوا:

﴿نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [١٢٦]

قالت الملكة:

﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ. وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [١٢٧]

---

١٢٥ النمل، ٣٢.

١٢٦ النمل، ٣٣.

١٢٧ النمل، ٣٤-٣٥.

إن بلقيس التي تلقت كتاب سليمان عليه السلام المرسل عن طريق الهدهد والذي تضمّن ﴿**أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ**﴾، عرضت حالتها وأمرها على وجهاء القوم ووزرائها، أي أنها تقابلت مع مجلس شورتها، ونتيجة ذلك اتخذت قرارها بإرسال سفير محمّلاً بالهدايا القيّمة لتقديمها إلى سليمان عليه السلام، وذلك من أجل أن تبقى محميةً من خطر سليمان وتهديده.

وأما سليمان عليه السلام فقد أدرك الأهداف والآمال التي يعقدونها على الهدايا المرسلة إليه، ورأى أن الهدايا ما هي إلا عبارةً عن رشوة لإسكاته، فردها إليهم بشكل يصل إلى درجة التهديد:

وعندما وصل سفير الملكة مع الهدايا إلى سليمان عليه السلام، قال لهم:

﴿**أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ**﴾ [١٢٨]

﴿**ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ**﴾ [١٢٩]

ولما وصل الرسل إلى الملكة وأخبروها بكلام سليمان عليه السلام، قالت:

---

١٢٨ النمل، ٣٦.

١٢٩ النمل، ٣٧.

- لا بد أنه علم بنيتنا ومقصدنا! أقسم إنه ليس بملك فقط، ولا يمكن أن نقف مكتوفي الأيدي تجاه هذا الأمر! وأرسلت من جديد رسولاً إلى سليمان عليه السلام، ليخبره:

"إنني ووجهاء القوم آتون إليكم، وأود أن أطلع على مقالك ودعوتك!.

أودعت بلقيس عرشها الشهير في أكثر غرف القصر أماناً وحراسة وحماية، وأغلقت عليه الأبواب بالأقفال، ومن ثم توجهت إلى سليمان عليه السلام على رأس وفد كبير.

وفي هذه الأثناء، طلب سليمان عليه السلام من مجلسه الذي يضمن الإنس والجان، طلب منهم إحضار عرش بلقيس الذي في سبأ إليه، وإن القصد من وراء طلب سليمان عليه السلام حسب رأي المفسرين هو:

- إظهار المعجزة الدالة على قدرة الله تعالى ونبوة سليمان أمام بلقيس، وإضافة دليل جديد إلى الأدلة السابقة التي تثبت هذا الأمر.
- إن جلب العرش وتغييره، ومن ثم النظر فيما إذا كانت ستتعرف عليه أم لا، فيه اختبار لعقل ومدارك بلقيس.
- العرش يُعتبر دليلاً أو مؤشراً على الملك، وبالتالي فإن جلب العرش قبل مجيء بلقيس فيه اطلاع على مدى عظمة أو قوة ذلك الملك.

فقال سليمان عليه السلام لمستشاريه:

﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ. قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ[١٣٠] أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [١٣١]

إن سليمان عليه السلام كان في الصباح يجلس على عرشه، وينهمك بتصريف الأعمال وإدارة الشؤون الدنيوية حتى وقت الظهيرة فينصرف عن عرشه، وحسب هذا الواقع فإن عرض عفريت الجن لسيدنا سليمان عليه كان إمكانية إحضار عرش بلقيس بين يدي سليمان خلال الفترة الممتدة من الصباح حتى الظهيرة، أي بمقدار المدة التي يجلس فيها سليمان على عرشه خلال اليوم.

وبعد عرض عفريت الجن جاء عرض آخر:

﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [١٣٢]

---

١٣٠ العفريت: هو القوي الداهية الذي يتغلب على خصمه، ولا يمكن السيطرة عليه. ومن جهة أخرى فإنه يحمل دلالة على الغارق في السيئات والمنكرات والذي بلغ مرحلة الشبه بالشيطان. وهذه الكلمة كما أنها تستخدم بحق الإنسان، فقد وردت في الآية الكريمة للدلالة على الجن "عفريت من الجن"..

١٣١ النمل، ٣٨-٣٩.

١٣٢ النمل، ٤٠.

وحسب أقوى آراء المفسرين فإن صاحب العلم الذي أحضر العرش خلال طرفة عين، هو وزير سليمان عليه السلام آصف بن برخيا.

الكرامات:

إن الكرامات التي تظهر على أيدي الأولياء، أي الحوادث الخارقة للظواهر الطبيعية (الفيزيائية) تنقسم إلى قسمين:

١- المعلومات أو الإخبارات العائدة إلى ذات الله تعالى وصفاته، وأفعاله، ويقال لها "الكشف"، ولا يمكن اكتساب هذه الأمور أو الحصول عليها عن طريق العقل أو الفكر، وإنما يهبها الله تعالى لمن يختاره من عباده.

٢- الحوادث الخارقة للعادة التي تقع في العالم المادي، وهذه أيضاً يتفضل الله عز وجل بها على من يختاره من عباده.

يعتمد الناس على القسم الثاني، والأول هو المقبول.

يقول الإمام الشافعي رحمه الله:

"قبر موسى الكاظم ترياقٌ مجرب لإجابة الدعاء" [١٣٣]

ويقول الإمام الغزالي:

"من يستمد منه في حياته يستمد منه بعد مماته"

١٣٣ كرامات الأولياء للسجاعي/٦، والرسالة القشيرية لابن هوازن/ ١٠، والفجر الصادق للزهاوي/ ٨٩ ، وسيوف الله للقادري الحبيبي/ ٨٣ ، والبصائر/ ٤٢ لحمد الله الداجوي الحنفي..

ومن الأولياء الصالحين الذين وهبهم الله تعالى كرامات كثيرة بعد وفاتهم، معروف الكرخي، وعبد القادر الجيلاني المشهورين.

ثم إن الكرامات كانت تحصل بين الفترة والأخرى على أيدي الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم:

ففي العام الثالث والعشرين للهجرة وخلال المعركة التي جرت بين المسلمين والفرس، كان سيدنا عمر بن الخطاب ﵁ يخطب من على منبره في المدينة المنورة، وفجأة نادى جيش المسلمين يحذرهم من العدو وهم في العراق، قائلاً:

- يا سارية الجبل، الجبل! وقد وصل نداؤه إلى مسامع المسلمين آنذاك. [١٣٤]

ويقول أنس ﵁:

"إن رجلين من أصحاب النبي ﷺ (هما عباد بن بشر وأسيد بن حضير ﵄)، خرجا من عند النبي ﷺ في ليلة مظلمة، ومعهما مثل المصباحين، يضيئان بين أيديهما، فلما افترقا، صار مع كل واحد منهما واحد، حتى أتى أهله." [١٣٥]

بينما كان الإمام علي رضا رحمة الله عليه جالساً بجانب حائط، جاء طائر وبدأ يغرد، فقال الإمام علي رضا رحمة الله عليه:

---

١٣٤ ابن هاجر،الإصابة، ٢، ٣.

١٣٥ البخاري: الصلاة، ٧٩، مناقب الأنصار، ١٣.

- إن هذا الطائر يخبرنا بأن ثعباناً يقترب من عشه، ويقول مسغيثاً بنا "أنقذوا صغاري"

فقام الرجال الذين كانوا حول الإمام واتجهوا نحو مكان الطائر فرأوا بالفعل ثعباناً قد سُلِّط على عش الطائر، فأسرعوا إلى قتل الثعبان من أجل إنقاذ صغار الطائر.

إن العبرة من إحضار عرش بلقيس بكرامة آصف بن برخيا وليس بمعجزة من سيدنا سليمان عليه السلام هي من أجل إدراك مدى أهمية والعظمة المعنوية لسليمان عليه السلام، وذلك لأن آصف بن برخيا كان وزيراً لسيدنا سليمان عليه السلام.

وتابع سليمان عليه السلام كلامه:

﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [١٣٦]

لقد أحضر العرش خلال مدة وجيزة جداً، هذه المدة كانت بمقدار طرفة عين، بينما المسافة التي قُطعت لإحضار العرش حسب أحد الآراء هي مسيرة ثلاثة أيام (بين سبأ وصنعاء)، وفي رواية أخرى، هي مسيرة شهرين (بين سبأ والشام)، وحسب رأي آخر، فإن المسافة كانت بين سبأ والقدس، على كل الأحوال، فإن

---

١٣٦ النمل، ٤١.

إحضار العرش من هذه المسافة الطويلة وخلال هذه المدة الوجيزة جداً ليس حادثاً عادياً، وإنما هي كرامة بحق.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ. وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ. قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٣٧]

وحسب الرواية التي وردت في هذا الخصوص، فإن سليمان عليه السلام أمر بإشادة قصر قبل مجيء بلقيس ملكة سبأ، وقد تمت تغطية ساحة هذا القصر بالمرمر البلوري الشفاف، وأجريت تحتها المياه حيث وضعت فيها الأسماك، ولأن بلقيس لم تلحظ المرمر الشفاف فوق المياه فظنت أنها ستلج القصر من الخوض في هذه المياه ورفعت من ثيابها، لقد زعزعت كل هذه التدابير والترتيبات إيمانها وثقتها بعلمها وعقلها، وحضّرت قلبها للقبول بالهداية والرشد الإلهي، وهكذا أدركت بلقيس بأن هذه الوقائع لا يمكن أن تكون من عمل البشر، وإنما شاهدت فيها العظمة والقدرة الإلهية فأسلمت لله عز وجل وآمنت به.

١٣٧ النمل، ٤٢–٤٤.

وفاة سيدنا سليمان ﷺ:

كان سليمان ﷺ يتكئ على عصاه عندما وافته المني،. ولأنه بقي واقفاً على قدميه لم يلحظ أحدٌ من الذين حوله وفاته ولم يعلموا بها، إلى أن جاءت دودة الشجر وبدأت تقرض العصا فوقع سليمان ﷺ أرضاً، حينها أدرك من حوله وفاته، وفي ذلك يقول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [١٣٨]

إذاً، يتبين من الآية الكريمة أن جسد سليمان ﷺ بقي منتصباً واقفاً على العصا مدة طويلة بعد أن ارتحل بروحه عن الدنيا، وإن التعبير الوارد في الآية الكريمة "**الْعَذَابِ الْمُهِينِ**" جاء بناءاً على استخدام الجن في الأعمال الشاقة، فلأنهم لم يدركوا وفاة سليمان ﷺ، فقد استمروا في القيام بالأعمال الشاقة والمجهدة كما لو أنه ما زال على قيد الحياة، ويُفهم من هذا أن الجن لا يعلمون بالغيب.

لقد كان سليمان ﷺ مثالاً للدفاع عن التوحيد بوفاته، كما كان في حياته، إذ أنه تبين من خلال وفاته أن لا علم لأحد بالغيب إلا الله تعالى، وأدرك الناس بأن علم الغيب وقفٌ على الله ﷻ وهو

---

١٣٨ سبأ، ١٤.

يُطلع عليه من يشاء من مخلوقاته، لقد أظهر الله تعالى وفاة سليمان عليه السلام بواسطة دودة الشجر ذلك الكائن الغاية في العجز والضعف، وقد تبيّن بشكلٍ جلي من خلال هذه الحادثة عدم صحة ادعاء الجن العلم بالغيب، ولا يمكن العلم به خارج إرادة الله سبحانه وتعالى.

ومن جهة أخرى، فإن في وفاة سيدنا سليمان عليه السلام صاحب السلطة والملك العظيم واقفاً على قدميه، تجليات تدعو إلى التفكير العميق، والاعتبار، ومن البديهي أن أقوال الأنبياء جميعاً، ومجريات حياتهم، والأحداث التي تقع لهم واحدة من وسائل العبرة والدروس لكل الأمم التي تأتي من بعدهم.

وإن فناء الدنيا، وحتى زوال السلطة والملك العظيم لسليمان عليه السلام قد أصبح مضرب المثل ومن الوصايا التي تقدم للأجيال، يقول ضياء باشا في منظومته:

يقولون أن سليمان كان يطير في الهواء على بساطه

فانظر إلى فناء الدنيا، وانظر إلى الرياح تجري حتى في ذلك المكان العظيم

ويقول يونس إمره في رباعيته التي أصبحت مضرب المثل:

صاحب المال صاحب الملك

أين هو المالك الأول

المال والملك كله مخادع كاذب

فلتلهو أنت إذاً بعد الآن

السلطة والتواضع:

كان سليمان عليه السلام غايةً في التواضع، يستيقظ في الصباح الباكر ويتجه نحو المساكين والغرباء، فيجلس معهم، وكان يقول:

"المسكين ينسجم مع المساكين!"

وقد نُقلت حادثة تدعو للاعتبار حصلت مع سليمان عليه السلام، حيث كان يتجول، ويمر بين العصافير:

ذات يوم وبّخ سليمان عليه السلام طائر الهدهد. فهدد العصفور سليمان عليه السلام، قائلاً:

سوف أدمّر قصرك ومملكتك!

فقال له سليمان عليه السلام:

وما ثقلك وحجمك حتى تدمّر قصري!

فأجاب ذلك العصفور الصغير:

سوف أبلل جناحي بالماء وأغمسهما في تراب الوقف، ثم أنقل ذلك التراب الذي علق بجناحي إلى سقف قصرك، وهكذا فإن المقدار الذي نقلته من تراب الوقف يكفي لتهديم قصرك وانهياره!

ومن العبرة التي نستخلصها من هذه القصة، ينبغي أن ندرك مدى أهمية أموال الوقف، ووجوب التحلي بغاية الدقة ومراعاة الحق في حال التصرف أو الاقتراب من أموال الوقف، فقد قال أكابرنا: احذروا من الواو، أي (احذروا من قول "والله" والحلف

بدون سبب يدعو له، ومن تولي منصب "الولي" مع عدم الشعور بالمسؤولية وتحمّل أعباء الولاية على الوجه الأكمل، ومن تولي "وصاية" لا يمكن الإيفاء بواجبها وأدائها بالشكل الصحيح، ومن الإهانة والإساءة إلى مال "الوقف").

وإن القصد من التحذير الوارد هنا، ضرورة تحلي العاملين في مثل هذه المؤسسات بالدقة وزيادة الحرص على الحقوق. لأن مال الوقف هو كل الأموال المنقولة، وغير المنقولة التي يُمنع تملكها أو تمليكها، فالملكية فيها لله تعالى، وتعود منافعها إلى عموم الأمة.

وقد ورد في بعض المصادر، أن سليمان عليه السلام سوف يدخل الجنة بعد الأنبياء الآخرين بمدة خمسمائة سنة، وذلك لأن سليمان عليه السلام قد أُعطي ملكاً وغنى كبيراً، ولذلك فإنه سوف يستغرق وقتاً طويلاً للمحاسبة عن كل هذه الأموال والأملاك، وبالتالي سوف يتأخر عن بقية الأنبياء في دخول الجنة.[١٣٩]

لقد بينت الآية الكريمة أن الأنبياء يحاسبون أيضاً يوم القيامة، حيث يقول الله تعالى:

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾[١٤٠]

١٣٩ القرطبي: التفسير، ١٥، ٢٠٤.

١٤٠ الأعراف، ٦.

فترة ما بعد سيدنا سليمان ﷺ:

انقسم بنو إسرائيل الذي يتألفون من اثنتي عشرة قبيلة من بعد سليمان ﷺ إلى قسمين، وتأسست من عشر قبائل دولة إسرائيل، وأنشئت دولة يهودا من القبيلتين الباقيتين.

قضى الآشوريون على دولة إسرائيل التي أُنشئت من عشر قبائل في العام / ٧٢١ ق. م / . وأما دولة يهودا التي أُسست من القبيلتين فقد تم القضاء عليها في العام / ٥٨٦ ق. م / من قِبل بختنصر ملك مملكة بابل، وقد أحرق بختنصر القدس، وقتل معظم سكانها، وساق ما تبقى منهم إلى بابل. ويعتبر هذا الظالم الملك الملحد الثاني الذي يحكم سيطرته على العالم من بعد نمرود، فقام بإعمار مدينة بابل وجعلها مركز مملكته، ولم يدع أحداً ينافسه أو يقف في وجهه لا في الشرق ولا في الغرب. وهكذا أطبق عليه الكبر والغرور فأعلن نفسه إلهاً، وفي النهاية فقدَ عقله وأصابه الخرف فبدأ يظن نفسه عِجلاً، وبقي لمدة سبع سنين متشرّداً يتجوّل في الغابات، وخلال هذه الفترة استملت امرأته أمر إدارة الملك، ويُروى أنه استعاد عقله قبل سنة من موته، ومات على هذه الحال.

لقد غزا ونهب بختنصر مدينة القدس مرات عدة، وقد أحرق التوراة والزبور وأزالها من الوجود، وبمرور الزمن تم نسيان أجزاء كثيرة تابعة للتوراة، وعندما تم البدء بكتابة التوراة اعتماداً على ما تبقى في ذاكرة الناس، فقَدَ التوراة هويته الأصلية تماماً، وقد

أُخرجت إلى الوجود عدة رسائل متناقضة لا تتماسك ولا تتناسق مع بعضها البعض، وقد جمع عزير الذي عاش في العام / ٥٥٠ ق. م / تقريباً، جمع هذا التوراة الذي تم تدوينه، وقد تم العثور عليه أثناء بناء المعبد للمرة الثانية، وحسب مفهوم اليهود اليوم، فإن يهودا الرب قد أوحى إلى عزير التوراة الذي كان مفقوداً إلى ذلك الوقت من جديد واستكتبه.

وعندما هزم كسرى فارس نوشك (كورش أو كايروس) البابليين، أذن لبني إسرائيل بالعودة إلى القدس من جديد، وقد قام بنو إسرائيل في العام / ٥١٥ ق. م / ببناء المسجد الأقصى، وعاشوا في البداية تحت حكم الفرس ومن بعدهم عاشوا في ظل حكم المقدونيين، وفي العام / ٦٣ م / احتل الرومانيون القدس وشردوا اليهود مرة أخرى، وتم تخريب المسجد الأقصى من جديد.

إن وقوع بني إسرائيل في هذه المصائب والبلايا كان بسبب انحرافاتهم، وبهذه الانحرافات، لجأوا إلى تغيير وتحريف كل ما لا يتفق مع أهوائهم النفسية في التوراة والزبور، وأفسدوا بذلك الدين الحق، وعندما أراد بعض الأنبياء مثل زكريا ويحيى عليهما السلام منع هذه التصرفات المنحرفة أقدموا على قتلهم بدم بارد ودون أن يرف لهم جفن.

قصة هاروت وماروت:

انتشر السحر بين اليهود بشكلٍ ملفت، فأصبحوا يعتقدون ويقولون بأن سليمان عليه السلام ساحر كبير، وبالسحر حصل على الملك والحكم وأخضع لسيطرته الحيوانات والجان، وعندما أوضح القرآن الكريم بأن سليمان عليه السلام إنما هو نبي الله ورسوله:

قال اليهود:

"إن محمداً يعتقد أن سليمان نبي، بينما في الحقيقة هو ساحر كبير!".

وقد نزلت الآية الكريمة الآتية بشأن ذلك:

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [١٤١]

---

١٤١ البقرة، ١٠٢.

ويوضح المفسر فخر الدين الرازي سبب نزول الملكين "هاروت وماروت" إلى الأرض بالشكل الآتي:

أ. كان السحرة متكاثرين ومنتشرين بشكل واسع عند نزول هذين الملكين إلى الأرض، إذ أظهروا للناس الذين لم يعهدوا ولم يعرفوا عن موضوع السحر شيئاً من قبل، أموراً وأحداثاً غريبة، وبلغ بالسحرة أن ادعوا النبوة، وهكذا فقد تحدّوا الناس واستبدوا بهم. ولهذا السبب فقد أنزل الله سبحانه وتعالى هذين الملكين ليكتشف الناس أكاذيب هؤلاء السحرة المدعين للنبوة، ويعلمانهم السحر من أجل أن يتمكنوا من مواجهة هؤلاء السحرة بسلاحهم.

ب. إن إدراك تميز وفرق المعجزة عن السحر مرتبط بمعرفة السحر عن طريق المعجزة، لكن الناس في ذلك الوقت لم يكونوا يعرفون ماهية السحر، ولذلك من المستحيل إذ ذاك أيضاً إدراكهم حقيقة المعجزة، وبناء على ذلك، فإن الله سبحانه وتعالى أرسل هذين الملكين ليفهم الناس حقيقة السحر، ويعرفوا أيضاً حقيقة المعجزة وماهيتها.

ج. وحسب وجهة نظر أخرى، فإن الله ﷻ قد أباح أو ندب السحر الذي يفرق بين أعداءه، ويؤلف بين قلوب المؤمنين وينشر المحبة بينهم. ولهذا فقد أرسل الله تعالى هذين الملكين

ليعلما الناس السحر الذي يحقق هذه الغاية، ولكن مع الأسف فإن الناس في ذلك الوقت استخدموا السحر الإيجابي الذي تعلموه من هذين الملكين، استخدموه بشكلٍ سلبي، أي أنهم استعملوا السحر على عكس الغايات التي تعلموه من أجلها، فأوقعوا العداوة بين أحباب الله تعالى وأسسوا المحبة بين قلوب أعداء الله تعالى.

د. كان لا بد من أجل تحريم السحرعلى البشر الذين لم يعرفوه، من تصويره لهم وإطلاعهم عليه، لأنه لا يُعقل النهي أو تحريم شيءٍ غير متصور.

ه. وربما أيضاً أن الجن كانوا يعلمون ألواناً من السحر مما يعجز الإنسان عن القيام بمثله، فأرسل الله هذين الملكين ليعلمان الناس أشياءاً تحفظهم وتحميهم في مواجهة الجن.

و. ويمكن أيضاً التفكير بأن هذا الأمر نوع من الامتحان الذي يصعّب تكاليف ومسؤوليات العبودية، لأن إبعاد الإنسان لنفسه عن شيءٍ يوصله إلى الملذات والشهوات الدنيوية يصبح أصعب بعد تعلمه، ولهذا السبب فعندما يُصعَب الامتحان على الإنسان فإن أجر وثواب الفائزين يزداد بمقدار تلك المصاعب، وبذلك فإن الإنسان يمكنه الحصول على المكافآت الكبيرة بالابتعاد عن المحرمات.

وهكذا فإن الله تعالى قد امتحن قوم طالوت خلال توجههم إلى المعركة في ذلك اليوم الحارّ بعدم الشرب من الذي مرّوا عليه، وقال طالوت بموجب الأمر الإلهي:

﴿... إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ...﴾ [١٤٢]

وخلاصة القول، فإن ما يُفهم من كل هذه التفاسير، أن لله تعالى حكماً كثيرة من وراء إرسال هذين الملكين وتعليمهما الناس السحر، ومما لا شك فيه أن لله تعالى حكمة في كل شيءٍ، وهو العالم بكل الأمور.

تفضيل رسولنا الكريم ﷺ على سليمان عليه السلام:

- سُخرت الرياح لأمر سليمان عليه السلام، أما الرسول ﷺ فقد خدمته الملائكة جميعاً صغيرهم وكبيرهم.
- كان سليمان عليه السلام يقطع مسافة شهرين بيوم واحد، أما رسول الله ﷺ فقد صعد إلى العرش في ليلة المعراج بلحظة واحد.
- كانت الطيور تظلّل على سليمان عليه السلام بأجنحتها، أما النبي ﷺ فقد كانت الغيوم تظلله.

---
١٤٢ البقرة، ٢٤٩.

- كانت المخلوقات كلها تجتمع للخدمة تحت ختم سليمان ﵇، وأما الرسول ﷺ فإن جميع الأنبياء، والأولياء، والشهداء سوف يجتمعون يوم القيامة تحت رايته التي تُسمى "لواء الحمد".
- لقد أُعطي لسليمان ﵇ ملك الدنيا كلها، أما النبي ﷺ فقد أعُطي لأضعف رجلٍ من أمته ملكاً أكبر من الدنيا بعشرة أضعاف يوم القيامة.[١٤٣]
- أُعطي لسليمان ﵇ "الكرسي"، أما الرسول ﷺ فقد أُعطي "آية الكرسي"، فآية الكرسي من خزائن الجنة، ويهرب منها الشيطان.

١٤٣ انظر: مسلم، الإيمان، ٣٠٨؛ الترمذي، جهنم، ١٠.

الملك لله ﷻ:

لقد جعل الله سبحانه وتعالى سليمان عليه السلام الذي آتاه الملك والغنى من بين الأنبياء مثلاً ونموذجاً، لأن سليمان عليه السلام حمل ثروة الدنيا التي وُهبت له خارج قلبه وحفظه من الافتتان بها. ولا يمكن أبداً بلوغ غنى سليمان عليه السلام وملكه حتى لو اجتمع الناس جميعاً وتضافرت جهودهم معاً، لأن الرياح، والحيوانات، والشياطين العنيفة المصفّدة كلها كانت تحت تصرف سليمان عليه السلام، وعلى الرغم من كل هذه السلطة والملك فإن سليمان عليه السلام كان يجلس مع الغرباء وأبناء السبيل، ويقول:

"إني مجرد مسكين! والمسكين ينسجم ويليق به الجلوس مع المسكين"

وإن مولانا قدس الله سره يبين بشكلٍ جميل في الأبيات الآتية الكسب المعنوي لوحدة الحال مع الفقراء والمهمومين، حيث يقول:

"إن القلوب الغارقة في الفقر والحاجة، تشبه البيت المليء بالدخان، وأنت باستماعك لهمومه، وعلاجك لآلامه تفتح لذلك البيت المليء بالدخان نافذة نجاة، فليخرج ذلك الدخان، وليرق قلبك فتطهر وتسمو روحك..."

وإن المظهر الأجمل لهذه الحالة يمكن تحقيقه بالإنفاق، وفي نفس الوقت فإن الإنفاق شكر للمنعم على النعمة والثروة، وزيادة النعمة بالشكر وعد إلهي، حيث يقول الله تعالى:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ...﴾ [١٤٤]

والنبي ﷺ كان يحب الإنفاق كثيراً، ويقول عليه الصلاة والسلام في الحديث الشريف:

"قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم ! أنفق أنفق عليك" [١٤٥]

وكان النبي ﷺ يتمنى أن يتحوّل الكرم إلى الطبيعة الأصلية لكل مسلم، إذ يقول:

"لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً، فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة، فهو يقضي بها ويعلمها" [١٤٦]

ويقول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [١٤٧]

يستنتج من الآية الكريمة أن ملكية الأموال ليست للفرد ولا للمجتمع، وإنما هي ملك لله تعالى، فكل الكائنات الحية تعيش في

---

١٤٤ ابراهيم، ٧.

١٤٥ البخاري، التفسير، ٢/ ١١.

١٤٦ البخاري، العلم، ١٥/ ٧٣؛ مسلم، المسافرين، ٢٦٨/ ٨١٦.

١٤٧ فاطر، ١٥.

ملك الله ﷻ وبالنعم التي أنعم الله بها عليها تستمر في الحياة، وأما الملكية الممنوحة للفرد فهي في الحقيقة عبارة عن قدرة التصرف بالمال لمدة زمنية محدودة.

وبهذا الاعتبار، فإن المال، والملك، والمكانة هي من أكبر وسائل الامتحان للإنسان. وقد جاءت لحظة جُرد سيدنا سليمان عليه السلام من سلطته وملكه، ونتيجة استغفاره ولجوئه إلى ربه ﷻ أعيدت إليه سلطته من جديد، وإن في النصيحة التي يقدمها أحد أصحاب الحق والتي تبين هذه الحقائق حكمة وعبرة كبيرة:

"لا تجري خلف الرزق، وإنما اجري إلى الرزاق!"

ويروى أن ملكة النمل قالت يوماً لجماعتها بشأن ملك سليمان عليه السلام: "ما أعظم ملك سليمان!"

فقال سليمان عليه السلام الذي سمع هذا الكلام: "إن ملكي فانٍ؛ وأما الملك الذي تأتي به كلمة التوحيد فهو باقٍ وأبدي!.."

لأنه كان يعلم بحقٍ أن الملك والسلطة لله تعالى.

يقول الله ﷻ:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا...﴾[148]

١٤٨ فاطر، ١٠.

﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ ١٤٩

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ١٥٠

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تشاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ١٥١

﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ١٥٢

يتبين من خلال هذه الآيات الكريمة أن الملك الحقيقي والأساسي للعباد في هذه الدنيا هو ذكر الله تعالى وعدم نسيانه في كل الأحوال، وخدمة جميع مخلوقاته، والإنفاق في سبيله لنيل رضاه.

إن الإنفاق الذي ورد ذكره في القرآن الكريم لما يزيد عن مائتي مرة هو التضحية في سبيل الله تعالى بالمال والروح، أي صرف النعم التي منَّ ربنا بها علينا في سبيله، وعلى ذلك، فإن المسلم يقدم أمواله وروحه تضحية لله تعالى.

❀ ❀ ❀

---

١٤٩ مريم، ٩٣.

١٥٠ آل عمرن، ١٨٩.

١٥١ آل عمرن، ٢٦.

١٥٢ آل عمرن، ٢٧.

إن ثمرة الإيمان الأولى هي الرحمة، فالقلب البعيد عن الرحمة لا يُعد متمتعاً بالحياة، وإن رأس كل خير "البسملة والفاتحة" وكل منهما يبدأ بالإعلان عن صفة الرحمة لله تعالى من خلال اسميه "الرحمن" و "الرحيم"، وحياة الأنبياء والأولياء التي اصطبغت بالرحمة والشفقة مليئة بنماذج سامية من مناقب الرحمة.

وفي قول النبي عليه الصلاة والسلام:

"الراحمون يرحمهم الرحمن. ارحموا من في الأرض، يرحمكم من في السماء ..." [١٥٣]

دعوة للمؤمنين لكي يشملوا برحمتهم كل المخلوقات على وجه الأرض.

إن من أكمل مظاهر الرحمة، القيام بالإنفاق الذي هو أحد واجبات ووظائف العبودية للإنسان.

وإن ضعف مشاعر الأخوة، وفقدان الهدوء والطمأنينة الاجتماعية، وانتشار الأحقاد والخصومات في مجتمعنا بشكل واسع، كل ذلك يحيجنا إلى الاستنفار الجدي وبذل جهود جبارة من أجل الإنفاق وبالتالي القضاء على هذه الظواهر السلبية، وينبغي عدم النسيان، بأننا قد نكون يوماً مكان هؤلاء المحتاجين والمكروبين، ولهذا فإن واجب الإنفاق عليهم هو دين لله تعالى في رقابنا.

١٥٣ الترمذي، البر، ١٦؛ أبو داود، الأدب، ٥٨.

وقد ذكر الله ﷻ من بين صفات المتقين:

﴿...وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [154]

وثمة أنواع كثيرة للصدقة والإنفاق اللذان هما اسم لعموم العطاء والبذل لوجه الله تعالى.

تبدأ الصدقة والإنفاق بحق من يملك زيادة عن حاجته بالعطاء، ومن ليس لديه مال فإن تقديم شق تمرة منه يعتبر صدقة حسنة. وتحمي الصدقة صاحبها من نار جهنم بنسبة الإخلاص لديه حين التصدق.

يظهر من النظر إلى الإنفاق أنه النتيجة الطبيعية للرحمة والشفقة، وأنه الذي رغب النبي عليه الصلاة والسلام بأن يتحلى به كل مؤمن حتى يغدو من طبيعته، ومن كل هذا ندرك أن كل مؤمن يُعتبر غنياً، وذلك لأنه حسب ما جاء في الأحاديث الشريفة أن النبي ﷺ اعتبر من الصدقة كلاً من: قيام المؤمن بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتكبير، والتوحيد، ونصرة المظلوم، ومواساة المهمومين والمكدورين، وتطيب قلوب المحتاجين بالكلمة الطيبة، وإماطة الأذى عن الطريق، وعيادة المريض، وحتى التبسم في وجه الناس كل ذلك عدّه نبينا الكريم من الصدقات عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وبناء على ما تقدم، فإن الغنى الحقيقي هو القناعة التي تسود في القلب، فكل إنسان يُعتبر غنياً بقدر قناعته، إن أغنياء القلب يعدّ

---

١٥٤ البقرة، ٣.

تبسّهم صدقة لهم، لأن تبسم غني القلب يعكس المحبة، والسكينة، والفرح الذي بداخله على من حوله، وهذه الحالة ما أجملها من إنفاق، أما القلوب الفقيرة التي هي عكس تلك القلوب فلا يغنيها شيءٌ أبداً.

إذاً، فإن الغنى الحقيق ليس بكثرة جمع الأموال، وإنما بامتلاء القلب، والمؤمنون الحقيقيون يتمثلون بنعمة غنى القلب ويكثرون من الإنفاق، فالإنفاق مظهر من مظاهر كمال الحساسية والشعور بالمسؤولية لكل مؤمن مكلف.

ويمكننا الاعتبار بحالة الصحابة حارث بن هشام، وعكرمة بن أبي جهل، وعياش بن أبي ربيعة رضوان الله عليهم الذين اشتهدوا في معركة اليرموك، حيث أن أبطال الإسلام هؤلاء بينما كانت أكبادهم تحترق من شدة العطش في نفسهم الأخير وهم ممددين على الرمال التي تحرق أجسادهم مثل اللهب، يأبى أحدهم شرب كأس الماء الذي يقدم له ويحيله إلى صاحبه ليشربه، وفي النتيجة لم يشرب أحد منهم الماء قبل الوفاة، فلم يذوقوا شربة ماء إلا أنهم نهلوا من شراب الشهادة وانتقلوا إلى الرفيق الأعلى، وبقي كأس الماء قائماً بينهم في المكان. [١٥٥]

إن هذه الحالة هي أعلى درجات الإنفاق وهي "الإيثار"، أي أنها الفضيلة التي تجعل المؤمن يقدم حاجة أخيه على حاجة نفسه.

١٥٥ الحاكم، المستدرك، ٣، ٢٧٠.

حيث يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [١٥٦]

يروى أنه كان لجعفر الصادق رحمه الله عبدٌ يخدمه في حاجاته الخاصة، وفي أحد الأيام بينما كان العبد يحضر قصعة من الحساء لسيده جعفر انسكب عليه دون قصد منه، فغرق جعفر في الحساء من فرق رأسه حتى أخمص قدميه، فنظر جعفر رحمه الله إلى العبد وعلامات الغضب بادية عليه، فقال العبد: يا سيدي، إن الله تعالى يعد في كتابه **﴿الْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾** [١٥٧] بالمغفرة والجنة.

قال جعفر الصادق: إن كان كذلك فقد كظمت غيظي.

وتابع العبد قراءة الآية: **﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾** [١٥٨]

فقال جعفر الصادق: لقد عفوت عنك.

فتابع العبد من جديد قراءة الآية: **﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾** [١٥٩]

فقال له جعفر الصادق: اذهب فإني أعتقك لوجه الله تعالى! وإليك ألف دينار تستعين به على حاجاتك!

---

١٥٦ آل عمران، ١٣٤.

١٥٧ آل عمران، ١٣٤.

١٥٨ آل عمران، ١٣٤.

١٥٩ آل عمران، ١٣٤.

إن هذه الحادثة مثال حي للأمة على مظاهر الإنفاق الحسن.

وقد أخبر النبي ﷺ أن امراة مذنبة سقت كلباً أشرف على الهلاك من شدة العطش، فغفر لها ذنوبها لرحمتها بهذا المخلوق وجعلها الله بلطفه من أهل الجنة، ومقابل ذلك فقد دخلت امرأة النار لأنها تصرفت بدون رحمة مع هرة، إذ حبست هرة لا هي أطعمتها، ولا تركتها تأكل من حشاش الأرض. [١٦٠]

كل هذه الأمثلة هي عبرة لنا من أجل استقامة عوالم قلوبنا.

ينبغي للمؤمن أن يكون مثل قمر الليلة الظلماء منيراً، مرهف الإحساس والمشاعر، رقيقاً، عطوفاً، ورحيماً بخلق الله مشفقاً بهم، كريماً وسخياً عليهم.

ويُعلمنا الله ﷻ بأننا حتى نكون قريبين منه ينبغي علينا الإنفاق من أحب الأموال إلينا، وأغلاها بالنسبة لنا، إذ يقول الحق ﷻ:

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [١٦١]

وقد فُسرت كلمة البر المذكورة في الآية الكريمة بمعاني عدة فهي تعني نقطة الكمال للخير، ورحمة الله تعالى، ورضا الله وجنته، وإلى جانب ذلك، فقد عرفها الله ﷻ في آية أخرى، حيث يقول:

---

١٦٠ انظر: البخاري، الأنبياء، ٤٥؛ مسلم، السلام، ١٥١– ٢٥١.

١٦١ آل عمران، ٩٢.

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [١٦٢]

وكما يظهر من تعريف الآية الكريمة للبر، فقد جمعت كل الصفات التي يجب على المؤمن التحلي بها، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذه الآية في الحديث الشريف إذ قال:

"**ما من أحد عمل بهذه الآية إلا كمل إيمانه**" [١٦٣] أو كما قال رسول الله ﷺ.

❁ ❁ ❁

إن الحالة أو الأسلوب المؤسساتي للإنفاق المادي والمعنوي هو "الوقف"، فالوقف مظهر من مظاهر المسؤولية والتضحية التي ينبغي على المؤمن القيام بها تجاه كل المخلوقات، لأن الأوقاف مؤسسات تظهر آثار محبة الخالق وحبه، ولطفه بالمخلوقات، إذ وصف الله سبحانه وتعالى الإنسان، والكائنات، والأشياء بالأمانة،

---

١٦٢ البقرة، ١٧٧.

١٦٣ النسفي، مدارك التنزيل، ١، ٢٤٩.

وقد حُمّل الإنسان أمانة كل شيء في الكون، وهذه الأمانة تتضمن كل شيء من أولاد، ومال، وملك، وصحة وغيرها. والإنسان مجبر على حماية هذه الأمانة بكل حرص ومطلق الشعور بالمسؤولية، وإن رعاية حق الأمانة والقيام بواجبها على أكمل وجه وسيلة للرحمة والبركة. والنقاش الذي ذكرناه سابقاً، الذي دار بين سليمان عليه السلام وطائر الهدهد، فيه الكثير من العبرة فيما يتعلق بأهمية الوقف وضرورة الحرص والاهتمام به، وبالأخص للعاملين في مجال خدمات الوقف، حيث من الواجب عليهم التحلي بمنتهى المسؤولية والإخلاص تجاه أموال الوقف.

إن غاية الثروة الصحيحة هي الوصول إلى سر الحديث الشريف:

"أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس" [١٦٤]

ومما ينبغي عدم نسيانه، أن مكان النقود ليس القلب، وإنما المحفظة! وإن هذا المقطع الشعري للشاعر عارف يعبر بشكل رائع عن غفلة الإنسان بحق نعم الدنيا، حيث يقول:

الدنيا مكان لعابري السبيل

أقسم أن كلاً من القصر والمكان الخرب سواء

أنا في عشق لا دواء ولا علاج له،

أَقمْتُ خاناً في الخان.

١٦٤ السيوطي، الجامع الصغير، ٢، ٨.

وينبغي أن نعلم بأن دعاء الفقراء وأبناء السبيل وسيلة للبركة والرحمة بالنسبة لذوي المال والأقوياء، ومن ناحية أخرى مصدر للطمأنينة والسكينة. وينبغي أن نعلم أيضاً بأن الفقر والحاجة ليستا مذلة أو مسكنة، وربما هي من مظاهر اللطف والحكمة المضيئة.

وفيما يرويه أمية بن خالد ﵁ عن النبي ﷺ أنه كان يتوسل إلى الله تعالى بفقراء المهاجرين ويسأله العون والنصر للمسلمين بحرمة أولئك الفقراء. [١٦٥]

وفي رواية لأبي الدرداء ﵁، أن النبي ﷺ قال لأصحابه:

"ابغوني الضعفاء، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم" [١٦٦]

لقد خُلق الإنسان وجعل من أكرم المخلوقات، وإذا وجد بين الأفراد فروق وتفاضل مثل الأقوياء والضعفاء، والأصحاء والمرضى، والعلماء والأميين، والأغنياء والفقراء، فليس ذلك إلا من أجل تأسيس نظام مجتمعي وتأمين انسجام للحياة الاجتماعية.

وإن كلاً من الغنى والفقر اللذان يحتلان مكاناً مهماً في هذا التفاضل هما حالتان من التضاد الاقتصادي، إن حالة أصحاب الإمكانات المتفاوتة مثل الغنى والفقر هي تقديرات إلهية بقصد امتحان الإنسان، وتحتوي على كثير من الحكم العميقة والدقيقة، وبناء عليه فليس الغنى عزة ولا الفقر مذلة. وإنما قسمة إلهية،

١٦٥ الطبراني، المجمع الكبير، ١، ٢٩٢.

١٦٦ أبو داود، الجهاد، ٧٠/ ٢٥٩٤.

ومظهر لحكمة ومصلحة مقدرة، حيث يقول الله تعالى:

﴿...نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [١٦٧]

لقد فُرضت الزكاة في الإسلام على المؤمنين ذوي الأموال والأملاك لأهداف وحكم عظيمة، ومن هذه الحكم الوقوف في وجه الانحرافات أو المجون المحتمل نتيجة خضوع الأغنياء لبريق الثروة والمال، ومنع بروز الميول والمشاعر السلبية في قلوب المحتاجين مثل الحقد والحسد تجاه الأغنياء، وتأسيس حياة اجتماعية متماسكة يرتبط أفرادها ببعضهم البعض بروابط المحبة والحنان، وإن لعبادة الزكاة والإنفاق مكانة مهمة ومتميزة في النظام الاجتماعي للإسلام من أجل تأمين توازن بين الفقراء والأغنياء وإنماء روح الألفة والمحبة بينهم.

وسوف يحاسب الغني أمام الله تعالى يوم القيامة عن ماله، من أين اكتسبه وفي أي شيءٍ صرفه وأنفقه، أي فيما إذا كان قد كسب ماله من طريق الحلال أم الحرام، وإذا ما كان قد أخرج الزكاة، والصدقات، وصرفه على أعمال الخير والإحسان، إن الأمر

---

١٦٧ الزخرف، ٣٢.

بوجوب إعطاء جزء معين من المال للفقراء تابع للامتحان الكبير من جهة الثروة، وفي حال تجاوز هذا الامتحان إلى جانب تجاوزه في الأمور الأخرى بنجاحٍ ينال المرء رضا الله تعالى ونعيم الجنة.

وأما الفقير، فإنه سوف يلقى الحساب عن مدى التزامه أو عدم التزامه بالعفة والأخلاق الحميدة مثل نفاذ الصبر عن حالة الفقر، والتأفف والشكوى، والاتّكال على الناس، والطلبات الزائدة عن الحاجة، وعن الحقد، والحسد، والعصيان، ففي حال كان سلوكه مرضياً لله تعالى في هذه الأمور، فإن معاناته وآلامه في الدنيا سوف تنقلب إلى سعادة أبدية في الآخرة.

❁ ❁ ❁

إن الأغنياء الكرماء وأهل الشكر، والفقراء الصابرين والمحافظين على كرامتهم وعفتهم متساوون في الشرف الإنساني والرضا الإلهي، ولكن الإسلام ذمّ الأغنياء المتكبرين وخسيسي الطبع، ومعه ذم أيضاً الفقراء الذين لا يصبرون لحالهم، ولا يظهرون الرضا بفقرهم فينجرفون إلى المعاصي والآثام، ولهذا، فإن الفقر والغنى واحد من الامتحانات الكبيرة التي يتعرض لها الإنسان في الحياة، وبسبب ذلك كان النبي ﷺ يقول في دعائه:

"اللهم إني أعوذ بك... ومن شر فتنة الغنى وشر فتنة الفقر" [١٦٨]

١٦٨ البخاري، الدعوات، ٤٥/ ٦٣٧٥.

وبالتالي، فالغني الحقيقي... من غلبت على أحواله القناعة والتوكل، والتسليم لأمر لله تعالى.

والخلاصة، إن الإنسان ميال بطبعه الخَلقي إلى الدنيا، نعم الدنيا جاذبة ومغرية للنفس، فمن ينخدع ببريقها لا يعرف الشبع والاكتفاء. وإذا ما انجرف الإنسان نحو المال يزداد جشعه، ويصير أكثر حرصاً وتمسكاً به، والإنسان الذي تعلق قلبه بالمادة والمال تضعف لديه مشاعر الرحمة والشفقة، ويصبح الإنفاق من أصعب الأمور لديه، وإن مثل هذا الإنسان شديد الحرص يُعتبر مريضاً نفسياً وروحياً، ومضطرباً بدنياً. فنفسه تقول له: "اعمل لتكون غنياً، وفي المستقبل ستفعل الكثير بنا في الخير! ". إلا أنه ينبغي عدم نسيان المقولة الشهيرة "لقد هلك القائلون سأفعل غداً "، لأن كل أيام المستقبل عبارة عن شيء غيبي مجهول بالنسبة للإنسان.

وقد بين الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم الندامة والحسرة الأبدية التي تصيب الإنسان لحظة الموت، حيث يكون وكأنه مستيقظ من حلم عميق فقال:

﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [١٦٩]

١٦٩ المنافقون، ١٠.

ولأن ندم الإنسان وحسرته تكون بعد فوات الأوان في الحالة المشار إليها، فقد أمر الله تعالى في الآية نفسها إلى جانب بيان تلك الحقيقة، أمر العبد بالإنفاق من المال الذي رزقه به قبل أن يصل إلى تلك الحالة من الحسرة والندامة، وقد بين الله تعالى حالة الندامة التي سيقع فيها العبد يوم القيامة في آيات أخرى بشكل يدعو إلى الاعتبار ، حيث يقول الله تعالى:

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [١٧٠]

﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [١٧١]

﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [١٧٢]

الأدب في الإنفاق:

الأدب في الإنفاق مهم جداً، وخاصة من المنفق، حيث ينبغي عليه الإحساس بالشكر والامتنان تجاه الذي أعطاه المال لقبوله أخذ الصدقةن وذلك لأن هذا الفقير قد أصبح وسيلة لأداء العبادة المالية

١٧٠ النازعات، ٤٦.

١٧١ غافر، ١٦.

١٧٢ السجدة، ١٢.

والتي هي دين الشكر لله تعالى، وعمل على نيله الأجر والثوابن وفي نفس الوقت فإن الصدقات تشكل حاجزاً يحمي المتصدق من الأمراض والمصائبن وقد أبرز الله تعالى الأهمية الكبيرة لعبادة الإنفاق حيث قال في الآية الكريمة على سبيل المجاز:

﴿... أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ... ﴾ [١٧٣]

ويوضح القرآن الكريم الأدب الواجب التزامه في الإنفاق:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾ [١٧٤]

إن الآية الكريمة إلى جانب تشجيعها وتحريضها المؤمنين على عمل الخير والإحسان، فإنها مع ذلك تبين بصورة جلية وجوب مراعاة الأدب عند الإقدام على عمل الخير، وعليه فإن أعمال الخير التي تترافق مع كسر لقلوب الفقراء واستحقارهم، وإيذاء لمشاعرهم، وإظهار الرياء، كلها لا قيمة لها عند الله سبحانه وتعالى، لأن القلوب محطّ الاعتبار الإلهي، يقول مولانا قدس سره:

"أنفق أموالك، وأملاكك بشكل جميل، واكسب قلباً! ليكون دعاء ذلك القلب شمعة تضيء ظلام الليل الدامس في قبرك، ونوراً بين يديك!.."

---

١٧٣ التوبة، ١٠٤.

١٧٤ البقرة، ٢٦٤.

ومرة يبين مولانا بكلامه المليء بالحكمة وجوب تجنب إيذاء وجرح قلوب المحتاجين والفقراء الذين يعتبرون وسيلة لإيفاء الأغنياء دين الشكر لله تعالى على نعمه، وهم بذلك نعمة كبرى للمنفقين، حيث يقول: "الإنسان الفقير مرآة الكرماء، فاحذر من تلويث المرآة بالكلمات الجارحة للقلب! (أي كن بالغ الرقة تجاه قلوب الفقراء! لأن القلوب محط النظر الإلهي)"

"إن الفقراء هم مظاهر تجليات كرم الله تعالى، وأولئك الفقراء يرجعون إلى صاحب الكرم، ويشكون إليه همومهم وكدوراتهم، وبذلك يمهّدون للأغنياء ذوي الحميّة سبل السعادة، وإن من البركات الأخرى لدخول الأغنياء إلى قلوب الفقراء بأعمال الخير والإنفاق هي إنماء بذور الرحمة والمحبة في تلك القلوب المضطربة والمهمومة تجاه أنفسهم."

"وبهذه الحالة فإن الفقراء مرايا لكرم الحق سبحانه وتعالى، فالأغنياء يرون مكرماتهم في تلك المرايا، وكذلك غدا الأغنياء الفانون الصالحون انعكاساً للكرم الإلهي عندما أدركوا بأن الثروة التي بين أيديهم أمانة عندهم، وعرفوا أنفسهم تجاه ربهم وغدوا مرآة للجود الإلهي، وقد أخذوا نصيبهم من كرم الحق ففنوا في السخاء."

"إن ما عدا أصحاب الغنى الذين صانوا نفوسهم من أسر أموالهم القليلة أو الكثيرة وأبقوها خارج قلوبهم، هم سيؤوا الحظ وفقراء الآخرة، فهذا الصنف من الناس ليسوا على باب الحق

سبحانه وتعالى، إن غناهم ظاهري، وهو مثل النقش والصور على الوجه الخارجي للباب."

"وإن هؤلاء الذين ابتعدت قلوبهم عن الله تعالى هم الفقراء والمساكين الحقيقيون، وأما غناهم الظاهري فهو نقش لا روح فيه، ورسم باهت لسوء حظهم وخسرانهم، إن هؤلاء أشخاص غائبون عن الحقيقة، ولا روح فيهم، فلا تظهر القرب إليهم! وإياك أن ترمي العظام لصورة الكلب!.."

"مثل هؤلاء الأشخاص هم أسرى المصالح وغائبين عن عطش الحق."

"كن حذراً، فلا تضع طبق الطعام أمام هؤلاء الموتى! أي لا تهتم بهم ولا تظهر القرب منهم! فهكذا أغنياء، سوف يتحولون يوم المحشر إلى متسولين أذلاء!"

"وأمثال هؤلاء دراوشة الخبز وليسوا دراوشة المعنى، إنهم يشبهون سمك اليابسة؛ وإن شابهوا السمك شكلاً، إلا أنهم يخشون من البحر ويلوذون بالهرب."

"إنهم يظنون السفالة سعادة، وبرأيهم السعادة هي تناول لذائذ الطعام، وتذوق حلو الأشربة، أما في الحقيقة، فإنهم محرومون من اللقمة الإلهية."

"يا من لا تودّ الوقوع في هذا الخسران المبين! احتضن بالكرم المخلوقات لتكن من العارفين..."

والأدب الأجمل في الإنفاق على الفقراء والذي يعد مرآة الكرم هو "أن لا تعلم اليد اليسرى ماذا أنفقت اليد اليمنى"، وهذا نوع من الأدب في الإنفاق الذي أصبح مضرب المثل للأمة جمعاء، وبحسب الحديث الشريف فإن الذين ينفقون بهذا الشكل هم ممن يظلّهم الله تحت عرشه يوم لا ظلّ إلا ظله.[175] ولتحقيق هذا الأمر فقد أنشأ أجدادنا أوقافاً كثيرة لا حصر لها، وقد تم تجنب الرياء أو إزالته كلياً بالإنفاق عن طريق الأوقاف، لأن الأموال تأتي من أشخاص غير معينين، فالمتلقي للإنفاق يدعو للمعطي من دون معرفة هويتهن وإن وقف السلطان محمد فاتح خير مثال على هذه الأوقاف، حيث يقول:

"أنا فاتح اسطنبول العبد الفقير والضعيف إلى الله تعالى السلطان محمد فاتح؛ أوقف دكاكيني البالغ عددها / ١٣٦/ دكاناً والتي ملكتها بعرق جبيني، أوقفها تحت الشروط الآتية:

... تحضير الطعام في المطعم الذي أمرت ببنائه وإنشائه في كليتي لزوجات الشهداء، واليتامى، وفقراء اسطنبول! وأما الذين يتعذر عليهم المجيء لتناول طعامهم أو أخذه، فليوضع طعامهم في علب مغلقة بعد حلول الظلام ويؤخذ إلى بيوتهم خفية عن الأعين!.."

---

١٧٥ انظر: البخاري، الأذان، ٣٦.

فكما يتبين في الوقفية، فقد وضع السلطان محمد فاتح قواعد لأرقى أنواع الأدب في الإنفاق من أجل حماية الأفراد المحتاجين في المجتمع. وكذلك أفراد مجتمع السلطان الذين غمرهم مثل هذا الأدب كانوا يضعون زكاة أموالهم في مظاريف ويودعها في أحجار الزكاة الموضوعة في المساجد، فيأخذ منها المحتاجون والفقراء بقدر حاجتهم ودون رؤية المتصدقين وأصحاب الأموال.

ومن جانب آخر، فإن من الأهمية بمكانٍ الإنفاق على المتعففين الذين تأبى عليهم عزتهم وكرامتهم عرض أحوالهم الضيقة على الناس، ويقول الله تعالى بشأن هؤلاء في كتابه العزيز:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [١٧٦]

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [١٧٧]

❀ ❀ ❀

إن الهدف الأساسي للدين بعد الإيمان بالله تعالى، هو تربية إنسان يتمتع بالرقة وعمق التفكير والإحساس بالمسؤولية، ومن

---

١٧٦ البقرة، ٢٧٣.

١٧٧ البقرة، ٢٧٤.

ثم تأسيس مجتمع مطمئن يسوده الهدوء والتفاهم، وإن تحقيق مثل هذا المجتمع المتكامل يكون بالإنفاق والزكاة اللذان يعدان المظهر الرائع لبروز مشاعر الرحمة والشفقة في القلوب، وإن قلب المؤمن بحقٍ ينبغي أن يحتضن جميع مخلوقات الله تعالى بالشفقة والرحمة.

إننا نعيش في ملك ربنا سبحانه وتعالى، ونُرزق بنعمه التي لا تعد ولا تحصى، ألا يتفكر المهملون لعبادات المال (الزكاة والصدقات) لمن هذه الأموال، وممن يُرزقون؟

إن نتيجة المحبة التضحية والفداء، وإن المحب يفتدي محبوبه بقدر محبته ويضحي من أجله بكل ما هو غالٍ وثمين لديه بشعورٍ من الرضا والمسؤولية. وإن هذا العاشق على استعداد لتقديم روحه في سبيل معشوقه، وهذا الإنفاق على مخلوفات الله تعالى من أجمل مظاهر محبة المحب لمحبوبه، لأنه قد ورد في القرآن الكريم أن الله تعالى هو الذي يأخذ الزكاة والصدقات التي يقدمها المؤمنون في سبيله، حيث يقول الله تعالى:

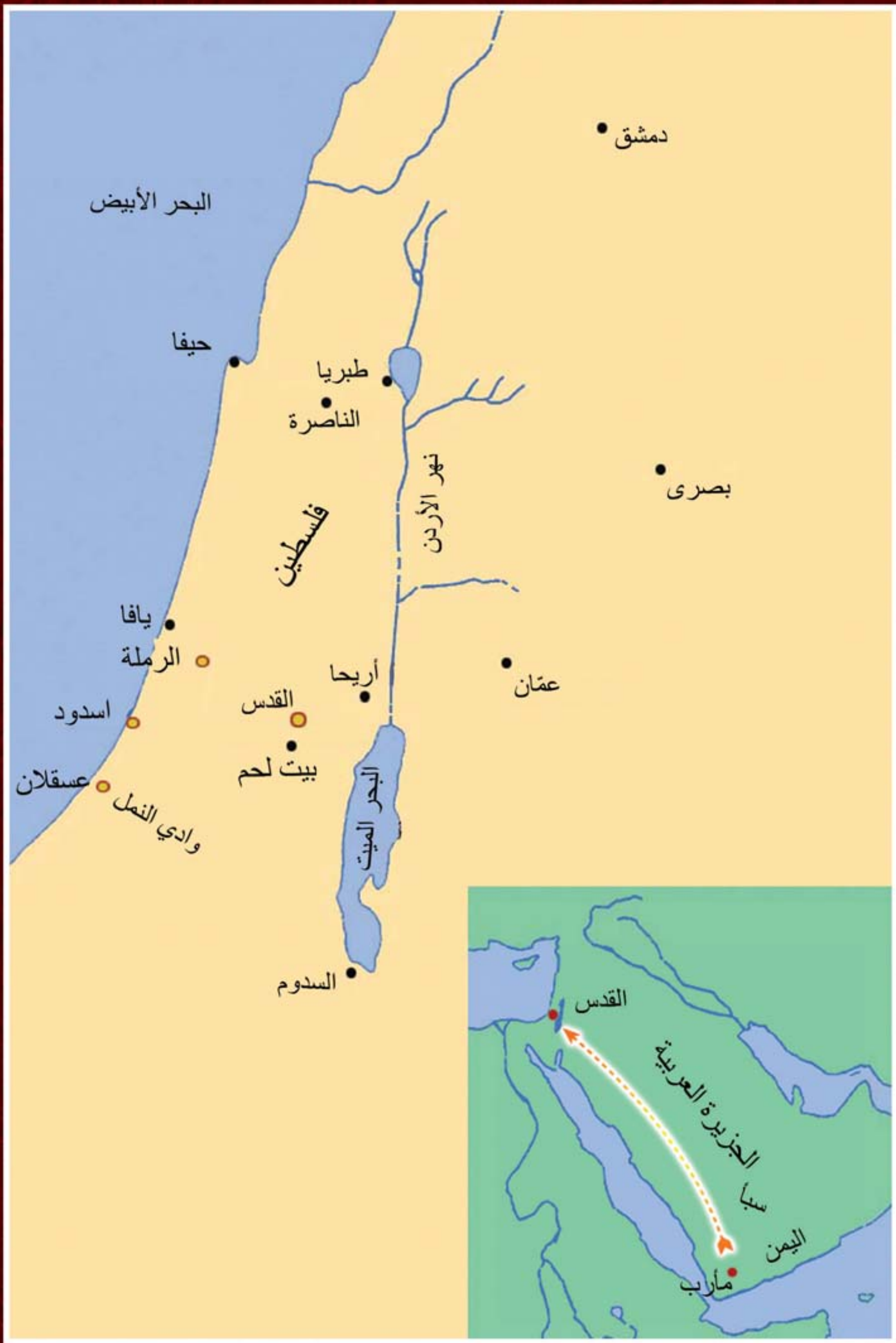
﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ...﴾[١٧٨]

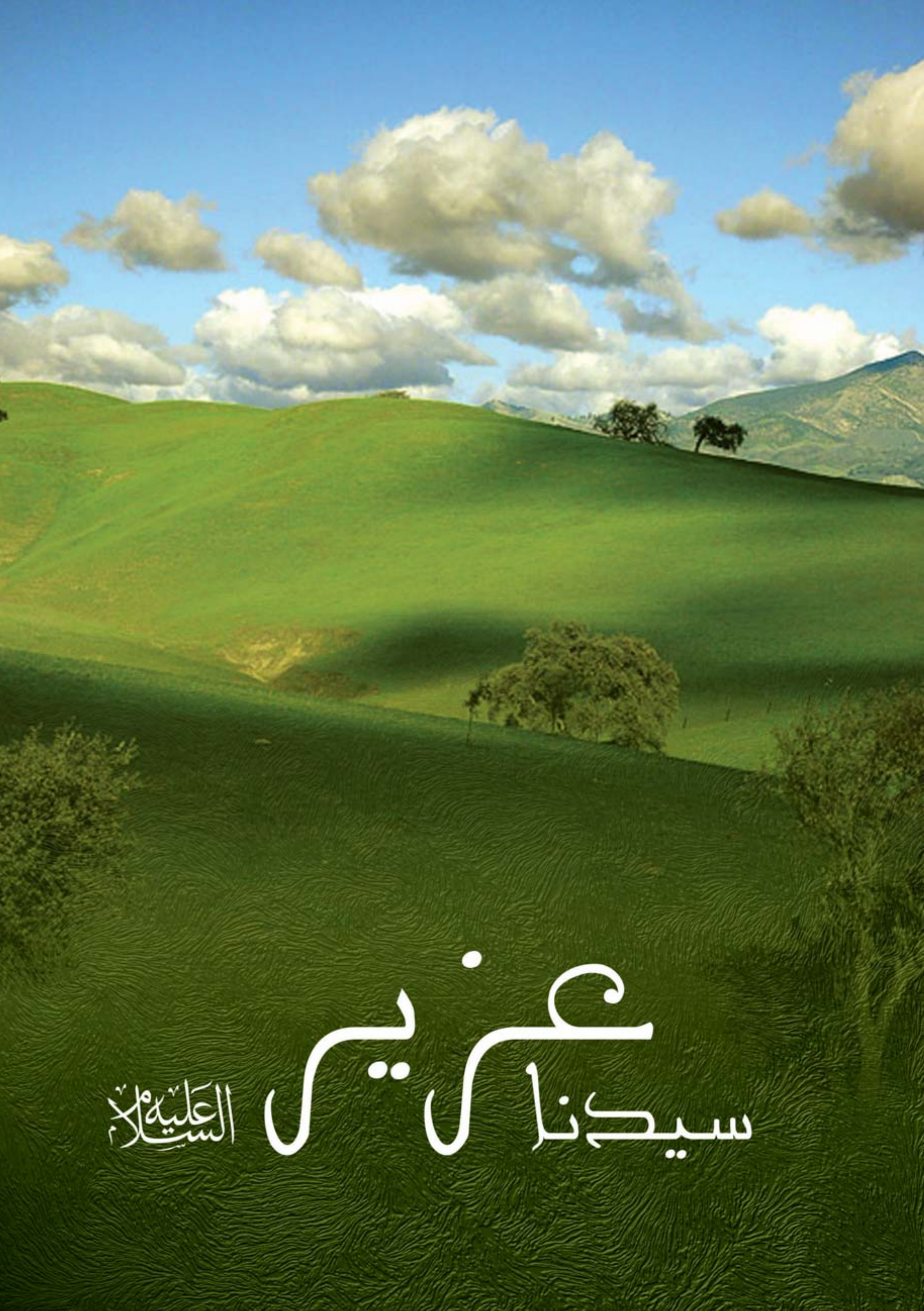
اللهم يا مالك الملك! اجعل عوالم قلوبنا خزائن لا تفرغ من مظاهر الرحمة، والشفقة، والإنفاق في سبيلك!

آمين!

---

١٧٨ التوبة، ١٠٤.


دمشق
البحر الأبيض
حيفا
طبريا
الناصرة
نهر الأردن
بصرى
فلسطين
يافا
الرملة
أريحا
عمّان
اسدود
القدس
بيت لحم
عسقلان
وادي النمل
البحر الميت
السدوم
القدس
الجزيرة العربية
سبأ
اليمن
مأرب


سیدنا عزیر علیہ السلام

سيدنا عزير عليه السلام
الذي بُعث بعد مائة عام من وفاته، وأصبح مثال البعث من جديد يوم القيامة

هو من نسل هارون عليه السلام.

وواحد من المعدودين الذين حفظوا التوراة عن ظهر غيب، ويُعرف من قبل اليهود بـ "عزرا".

لا يوجد في القرآن معلومات قاطعة تؤكد أو تنفي نبوة عزير عليه السلام، وهكذا فإن النبي ﷺ يقول أيضاً:

"... وما أدري أعزير نبي هو أم لا!" [١٧٩]

وقد ورد ذكر عزير في القرآن الكريم على أن الله تعالى أماته مائة عام ثم أحياه من جديد، ولم ترد أية معلومات أخرى بشأنه في كتاب الله عز وجل.

وفي عهد عزير عليه السلام ابتلى الله تعالى بني إسرائيل الذين ازدادت انحرافاتهم ومجونهم، ابتلاهم ببختنصر، فاستولى بختنصر على مناطق الأردن والشام، وهدم المسجد الأقصى، ودمّر البساتين والحدائق، وقتل الضعفاء بدم بارد، وأما الشباب ومن رآهم صالحين للاستخدام في الأعمال فأسرهم واصطحبهم معه، وكان عزير عليه السلام من بين هؤلاء الأسرى.

---

١٧٩ علي المتقي، ١٢، ٨١/ ٣٤٠٨٧.

وحسب الروايات تمكّن عزير من الإفلات من الأسر والهروب عندما كان في الخمسين من عمره، فركب حماراً وشقّ طريقه مباشرة باتجاه القدس. وعندما اقترب من القدس أصابه حزن عميق لرؤيته تلك الأبنية المهدمة، والبساتين التي أصابها الفساد والخراب، ولأن الجوع قد بدأ يشتد عليه، نزل عن حماره وربطه إلى شجرة، ومن ثم جمع بعض التين وأكله، وعصر بعض العنب وشرب ماءه، وبعدها جلس تحت ظل شجرة ونظر إلى البلاد المدمرة، والأبدان البالية، والعظام المتناثرة نظرة اعتبار، وتفكَّرَ بقدرة الله تعالى، وبينما كان يتساءل في نفسه عن كيفية بعث هؤلاء الأموات من جديد إلى الحياة، غط في نوم عميق.

يقول الله تعالى في هذا الشأن:

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [١٨٠]

---

١٨٠ البقرة، 952.

عندما نام عزير كان الوقت صباحاً، ولما أفاق لم تكن الشمس قد غربت، ولكن الوقت الذي مضى على نومه كان مائة سنة، وخلال هذه الفترة كان بختنصر قد مات وأما الأسرى فقد أخلي سبيلهم ورجعوا إلى القدس، وكان المسجد الأقصى قد أُعيد بناؤه، وعمرت المدينة كلها من جديد.

وبعد هذه التجليات التي تحققت وظهرت له، ركب حماره واتجه إلى القدس، وعندما دخلها وجد كل شيءٍ متغيراً، فلم يكن الناس هم الناس الذين عرفهم، ولا الأبنية هي تلك التي عهدها، فبدأ بالبحث عن حيه على وجه التقريب، فوقف امام أحد البيوت، وقال لامرأة عمياء وكسيحة رآها أمام البيت سائلاً: أين بيت عزير؟، فأجابت المرأة بحزن شديد: إن هذا هو بيت عزير، ولكنه فُقد منذ مائة عام، وأنا جاريته!، قال عزير:أنا عزير! فعرّفها عن نفسه، وروى لها ما جرى عليه من أحداث.

سُرّت الجارية برجوعه، وطلبت منه الدعاء لها لتعود إلى حالتها السابقة، فشكر عزير ربه سبحانه وتعالى على النعم التي أسبغها عليه ودعاه من أجل المرأة، فاستعادت المرأة صحتها وعادت إلى حالتها السابقة.

عندما مات عزير عليه السلام كان له ولدٌ في الثامنة عشر من عمره، وأصبح الآن بعد بعثه عجوزاً بلحيةٍ بيضاء وعمره مائة وثمانية عشر

عاماً. وأما والد هذا العجوز عزيرٌ فقد كان في الخمسين من عمره، ولم يتمكن الولد من التعرف على أبيه، وقال:

- لقد كان على ظهر أبي شامة سوداء على شكل الهلال!

ولما كشفوا عن ظهر العزير ونظروا إليه وجدوا تلك الشامة السوداء بشكل الهلال على ظهره، ولم يبق لدى أحد شبهة بأن هذا الرجل هو العزير عليه السلام.

وعندما احتلّ بختنصر القدس ونهبها، كانت كل نسخ التوارة قد أحرقت وأتلفت، ولذلك فإن عزير عليه السلام عمل على إحياء الدين من جديد.

وحسب رواية ابن عباس رضي الله عنه، أن الله تعالى لما رأى أن بني إسرائيل قد تركوا التوراة وتعاليمها واتبعوا أهواءهم وآراءهم، سلبهم الصندوق "التابوت" الذي بداخله التوراة، وأنساهم التوراة ونسخها من صدورهم، وأصاب بني إسرائيل حزن وهمّ شديد من جراء هذا الأمر. وخاصة العزير الذي عبد الله كثيراً ولجأ وتوسل إلى الله بأن يعيد إليهم التوراة، وبينما هو قائم يصلي ويدعو الله عز وجل نزل نور من الله فدخل جوفه، وعاد إليه الذي كان قد ذهب من جوفه من التوراة فتذكرها كلها، فنادى القوم من بني إسرائيل وعلمهم من جديد، وبعد ذلك تم العثور على الصندوق الذي بداخله التوراة، ولما وجد بنو إسرائيل أن التوراة التي علمهم إياها العزير مطابقة للنسخة التي بداخل الصندوق ازدادت محبتهم وثقتهم أكثر بعزير عليه السلام.

وبعد كل هذه التجليات الكبيرة انزلق قوم بني إسرائيل إلى عقائد باطلة، ووصل بهم الأمر أن ادعوا بأن العزير " ابن الله "[181].

ويقول الله تعالى بهذا الشأن في كتابه العزيز:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[182]

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[183]

وعلى الرغم من أن اليهود اليوم لا يقبلون بدعوى أن العزير عليه السلام "ابن الله"، إلا أن قسماً من اليهود في ذلك العصر أفرطوا كثيراً في تعظيم وتقديس العزير، ووصل الأمر ببعضهم أن وصفوه بأنه "ابن الله".

181 الطبري، جامع البيان، ١٠، ١٤٣.

182 التوبة، ٣٠.

183 التوبة، ٣١.

البعث بعد الموت:

البعث بعد الموت: هو العودة إلى الحياة التي لا موت فيها بعد الموت في الحياة الدنيا، وهو رحلة الروح نحو الخلود الأبدي، يُمضي الإنسان من الناحية الجسدية عمره أولاً مدة من الزمن كعنصرٍ طبيعي في التراب، ثم ينتقل بعدها إلى صلب أبيه فترة من الزمن، وبعد ذلك يستقر في رحم أمه ويبقى في بطنها مدة معينة، ثم ينتقل إلى الحياة بين ذراعي أبيه وأمه، ويتابع حياته مدة من الزمن في قلب الأبوين، وبعدها يودّع مهد الدنيا إلى مهد القبر ليبدأ رحلته الأبدية من القبور إلى يوم القيامة والحشر، ومن ثم ليستقر به المقام إما في الجنة، أو الجحيم.

وقد تكرم الله سبحانه وتعالى على القلوب السميعة البصيرة بجملة من المعجزات والدلائل الإلهية التي توقظ العباد من غفلتهم، وتشدهم إلى عالم الحقيقة ليتداركوا تقصيرهم في أداء واجب العبودية تجاه ربهم ﷻ، إلى جانب هذه الدلائل التي لا حصر لها، وبخاصة فيما يتعلق بحقيقة البعث بعد الموت فقد وضع الله سبحانه وتعالى أمام أعين العباد في القرآن الكريم وفي المنظومة الدقيقة للكون تجليات قدرته العظيمة المليئة بالاعتبار والتي تنبه إلى تلك الحقيقة.

وقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم قصة العزير عليه السلام وقصة أصحاب الكهف المليئة بالحكمة والعبرة، من أجل تقريب حقيقة البعث بعد الموت إلى مدارك البشر وعقولهم، فجعلهما مثلين للإحياء بعد الموت.[١٨٤]

إن هذه الأمثلة الإلهية تحتوي على حقائق تقود القلوب إلى الكمال وتقربها من الحق سبحانه وتعالى، فتصل بها إلى مرتبة " القلب السليم."

أصحاب الكهف:

أصحاب الكهف، هم شباب صالحون دافعوا عن عقيدة التوحيد والإيمان بالله، عاشوا في عهد حكم الملك الوثني دقيانوس في مدينة طرسوس.

ولم يرد في القرآن الكريم ذكر عدد أصحاب الكهف بشكل صريح، وإنما قال الله تعالى في هذا الخصوص: ﴿**إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ**﴾ هذا لأن الهدف الأساسي الذي يراد الوصول إليه من ذكر قصتهم في القرآن الكريم ليس عددهم، ولا أسماؤهم، ولا البلاد التي عاشوا فيها، وإنما العبرة هي إظهار كون أعمال القلب هي التي رفعت من قيمة أولئك العباد الصالحين عند الله تعالى، وأكسبتهم

١٨٤ ومن الأمثلة الأخرى المذكورة في القرآن الكريم والتي تدور حول حقيقة النشور بعد الموت حادثة إحياء الطيور التي ذكرت في سورة البقرة، في الآية ٢٦٠

مشاعر الإحسان، إن هذه القصة مليئة بالحكم والعبر التي تعرِضُ قضية الدفاع عن التوحيد والإيمان في مواجهة الوثنية والشرك، وتمثل أيضاً نموذجاً ملموساً لحقيقة البعث بعد الموت، وهكذا فإن هذه القصة يراد بها إدراك بني آدم لكثير من الحقائق الإلهية، وليس لمجرد رواية أحداث قصصية.

لقد كان هؤلاء الفتية أي أصحاب الكهف من المقربين للملك دقيانوس، ولأنهم اعتنقوا عقيدة التوحيد فقد كانوا يدعون الله تعالى ويبكون على أعتابه متضرعين إليه على الدوام لأن يرفع ظلم هذا الملك الوثني عن عاتق العباد، ويضع حداً لطغيانه، إلا أن الملك نتيجة لغروره واسكتباره أصبح إلحاده وظلمه يزداد يوماً بعد يوم، ووصل به الأمر أن ادعى الألوهية لنفسه على الناس، ولم يقف عند هذا الحد فقط، وإنما أمر بإلقاء القبض على كل من يدين بعقيدة التوحيد وإيقاع أشد أنواع العذاب بهم، فبدأت حملة كبيرة للإمساك بالمؤمنين.

وفي هذه الأثناء، علم بأن أصحاب الكهف المقربين إليه هم أيضاً من المؤمنين، فأمر بحزمٍ إحضارهم إليه، ووجه إليهم تهديداً شديداً، ولأنهم وصلوا إلى نشوةٍ الإيمان الأبدية فلم يعرف الخوف من تهديدات الملك طريقه إلى قلوبهم ووقفوا في وجه الملك الظالم، ولم يترددوا عن قول الحقيقة في وجهه.

وقد بين الله ﷻ أحوالهم في القرآن الكريم حيث يقول الله ﷻ:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [185]

﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ [186]

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾ [187]

قال أولئك الفتية في حق عبادة الأوثان ومواجهة طلب دقيانوس الملحِّ عليهم بترك عقيدة التوحيد:

- نحن لنا ربٌّ نعبده، ولا نعرف إلهاً غيره، ولن نترك عبادة رب السموات والأرض أبداً لنعبد قطعاً من الحجارة التي لا روح فيها ويصنعها العباد بأيديهم، ولا مجال مطلقاً لاحتمال استجابتنا إلى ما تدعونا إليه! فاحكم علينا بما بدا لك!

وهكذا فإنهم أظهروا قوةً وأصالة في الإيمان في مواجهة جبروت الملك الظالم دقيانوس، تشبه في ذلك القوة الإيمانية التي

---

١٨٥ الكهف، ١٣.

١٨٦ الكهف، ١٤.

١٨٧ الكهف، ١٥.

أبداها السحرة الذين تحدّوا بسحرهم في البداية موسى عليه السلام ومن ثم تشرّفوا بنعمة الإيمان وواجهوا فرعون.

فالسحرة بعد أن تشرفوا بنعمة الإيمان، قالوا في مواجهة تهديد فرعون لهم: "إنك بعملك لن تضرنا بشيء! لأننا في كل الأحوال سوف نرجع إلى ربنا سبحانه وتعالى! فافعل بنا ما شئت!."

لقد اشتد غضب وغيظ الملك دقيانوس كثيراً في مواجهة هذه الشجاعة والجرأة النادرة لهؤلاء الشبان المؤمنين، وجردهم من كل الرتب والميزات التي كان قد أعطاهم في السابق، وبعدها قال لهم مهدداً:

– إنكم ما زلتم في ريعان شبابكم، فلا تخسروا أنفسكم! وإني أمهلكم ثلاثة أيام لتعودوا عن فعلتكم! ففكروا، وتشاوروا، وقلبوا الأمور على جميع وجوهها، ولننظر أتختارون النجاة، أم إهلاكي لكم؟ وبعد ذلك تركهم على حالهم وذهب إلى نينوى.

لقد أصبحت المهلة التي أعطاهم إياها الملك بمثابة لطف الله تعالى ورعايته لأصحاب الكهف، إذ أنعم عليهم بوقت ثمين للنجاة من شر ذلك الملك الظالم، أخذ هؤلاء الفتية الواثقون برحمة الله تعالى ونصره معهم كلبهم الذي أصبح واحداً منهم وهربوا من المدينة، فاختبؤوا في مغارة. وصاروا يقتاتون على الطعام الذي جلبوه معهم من بيوتهم، وهم يعبدون الله تعالى ويلتجؤون إليه ليل نهار في تلك المغارة، ويتضرعون إليه:

"ربنا! آتنا من لدنك رحمة، وهيئ لنا من أمرنا رشداً"!

وحسب الروايات فقد كان النبي ﷺ يلتجئ إلى الله تعالى بهذا الدعاء عندما اختبأ في غار ثور أثناء هجرته إلى المدينة المنورة.

وقد أحيط أصحاب الكهف بنصرٍ مملوءٍ بالرحمة الإلهية بفضل أعمالهم الصالحة، وإخلاصهم، وبركة هذا الدعاء الذي توجهوا به إلى الله ﷻ. وخلال ذلك عاد الملك دقيانوس من نينوى واطّلع على أخبارهم وأحوالهم، فخرج من فوره يقتفي أثرهم ولم يطل به الوقت حتى عثر على المغارة التي يختبئون فيها، وبينما هو يفكر بعقوبة قاسية ينزلها بهم، ألهم الله تعالى عقله بأن يسدّ على الفتية باب المغارة، فلم يطل التفكير وقال لجنوده آمراً:

- أغلقوا مدخل المغارة في الحال! فليموتوا من الجوع والعطش؛ ولتكن المغارة قبراً لهم!

وهكذا، وحسب اعتقاده أنه دفنهم في المغارة أحياءاً. ولكنه لم يكن يعلم بأن الله تعالى الذي حمى موسى عليه السلام من شر فرعون بتنشئته وتربيته في قصره، قادر على حماية أصحاب الكهف من شر دقيانوس.

فهو تعالى "خير الحافظين" فأحاط أصحاب الكهف برحمته التي وسعت كل شيء، وضرب على آذانهم نوماً دام / ٣٠٩/ سنين وهم أحياء.

يقول مولانا قدس الله سره:

"النوم أولى من البقاء بين الغافلين إن كانت غفلتهم ستنعكس على المرء، إذ أن الله ﷻ حفظ قلوب أصحاب الكهف من الغفلة بإبعادهم عن الفاسقين."

يقول الله ﷻ في كتابه الكريم عن حالة أصحاب الكهف في المغارة:

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [١٨٨]

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [١٨٩]

ولما أيقظ الله ﷻ أصحاب الكهف من نومهم ظنّوا أنهم لم يلبثوا في نومهم إلا وقتاً قصيراً، تُبين الآية الكريمة حالهم:

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ

١٨٨ الكهف، ١٧.

١٨٩ الكهف، ١٨.

بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا. إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [١٩٠]

فاتجه أحدهم نحو المدينة ليجلب لهم طعاماً وشراباً يُسكتوا به جوعهم الذي بدؤوا يشعرون به بعد هذا النوم، ولما رأى أهل المدينة النقود بين يدي الشاب والتي تعود إلى عصورٍ قديمة خلت ظنوا أنه قد وجد كنزاً في الأرض، فشكوه إلى الحاكم.

وكان حاكم ذلك العصر رجلاً صالحاً، دائم النصح والإرشاد لمن حوله، ويدعوهم باستمرار إلى ديانة التوحيد، ويحدث عن "البعث بعد الموت"، أي عن أسرار النشور والعودة إلى الحياة من جديد بعد قيام الساعة، إلا أن الجاهلين من أتباعه كانوا ينظرون إلى النشور والعودة إلى الحياة بعد الموت بعين الريبة والشك، فلم يصدقوا هذا الحديث بشكل ما، وكان الملك يتجه إلى الله تعالى بحزن، ويدعوه متوسلاً:

"يا رب! أظهر لهؤلاء القوم تجلياً بشأن الحقيقة التي ينكرونها علي!."

وعندما أبصر بالفتى الذي من أصحاب الكهف ماثلاً أمامه، استبشر من الفرح وأعلنه على الملأ من حوله لأن التجلي الذي

١٩٠ الكهف، ١٩- ٢٠.

سأل ربه عنه قد تحقق ورآه القوم بأمّ أعينهم، فحمد الله تعالى وشكره على هذه النعمة، وبعدها خرج متجهاً إلى أصحاب الكهف لزيارتهم، وبعد ذلك قبض الله ﷻ أرواح أصحاب الكهف الطاهرة.

ولقد تمّ تكريم أصحاب الكهف في القرآن الكريم بشكل مبارك لثباتهم على الإيمان ومواجهة الظلم، ولأنهم لم ينحرفوا عن صراط الله المستقيم وهجروا بلادهم وبيوتهم في سبيل ذلك، وهكذا فقد جرت تسمية السورة التي وردت فيها قصتهم بصفة هؤلاء الفتية، فأطلقت عليها تسمية "سورة الكهف".

وقد وردت قصص أخرى ذات أهمية بالغة في هذه السورة بجانب قصة أهل الكهف، وإن في إطلاق تسمية "الكهف" عليها إشارة إلى الأهمية الخاصة التي تتميز بها هذه القصة.

وقد أخبر النبي ﷺ بأن قراءة سورة الكهف يوم الجمعة تكون كفارة للذنوب إلى الجمعة الأخرى. [١٩١]

ولأن هذه السورة تحتوي على مواضيع بالغة الأهمية، من التي يجب تذكرها على الدوام مثل موضوع الدفاع عن الإيمان والثبات عليه، وقضية البعث بعد الموت، وقصة موسى والخضر عليهما السلام، والكثير من التجليات الإلهية العظيمة الدالة على قدرته، فقد أوصى النبي عليه الصلاة والسلام بتلاوته كل جمعة.

١٩١ السيوطي، الجامع الصغير، ١، ٩٨.

ومن جهة أخرى ومما يلفت الانتباه، أن الكلب الذي كان بصحبة أصحاب الكهف قد نال نصيباً من اللطف الذي كان مظهراً لحال أولئك. وحسب ما بينه المفسرون، فإن كلب أصحاب الكهف "قطمير"فرغم كونه كلباً فإنه سوف يدخل الجنة ببركة صحبته للصادقين، وحراسته باب المغارة لهم بصدق وإخلاص.[١٩٢]

يقول مولانا:

"لأن ذاك الكلب قد اختار حراسة أصحاب الكهف بصدقٍ وإخلاص فإنه قد شرب من ماء الرحمة الإلهية أمام الكهف بدون أوانٍ ولا قدور. وقد كسب حق الدخول إلى الجنة بصحبتهم."

ويقول الشيخ سعيد رحمه الله تعالى:

"لأن امرأة لوط عليه السلام كانت مع الفاسقين فقد فقدت مستواها، وفسقت، أما قمطير "كلب" أصحاب الكهف، فلأنه حرس الصالحين فقد تخلّص من صفته الكلبية وكسب وصف الإنسان."

❁ ❁ ❁

وفيما يبين الله سبحانه وتعالى من جهةٍ في قصة أصحاب الكهف، الحِكَم المتجلية بشأن تنويم الفتية مدة / ٣٠٩ / سنين بدون طعام، ولا شراب وهم أحياء، يشير من جهة أخرى إلى سهولة هذا الأمر بالنسبة إليه عندما يقول الله عزّ وجلّ:

١٩٢ انظر: حقي بصروي، روح البيان، V، ٢٢٦.

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [١٩٣]

وذلك لأن الله تعالى مالكٌ وخالقٌ لتجلياتٍ أكبر مما حصل لأصحاب الكهف بكثير، إنه الذي يوجِد من العدم، وهو المحيي والمميت بيده الأمر وهو على كل شيءٍ.

إن الإنسان يُدرك بالتجليات اليومية وجوده وحقيقة موته، ولكي يفهم النشور أيضاً فإن الله تعالى يبين له في كتابه الكريم القصص التي تتحدث عن النشور وإلى جانب آيات القصص يورد الله سبحانه وتعالى آيات مليئة بالحكم والمواعظ القلبية والعقلية والتي تذكِر الإنسان بحقيقية "البعث بعد الموت"، وبعظمة وقدرة الخالق ﷻ، ومن هذه الآيات قول الله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ. وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [١٩٤]

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ. بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [١٩٥]

١٩٣ الكهف، ٩.

١٩٤ يس، ٧٧- ٧٩.

١٩٥ القيامة، ٣- ٤.

﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [196]

ويدلّل الله تعالى في آيات أخرى على بساطة بعث الأموات وعدم صعوبتها عليه بأمثلة من النظام الكوني والدنيوي، ويحث أصحاب العقول والقلوب السليمة إلى التفكير والتدبر، إذ يقول:

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [197]

﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا. ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [198]

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [199]

﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [200]

---

١٩٦ القيامة، ٤٠.

١٩٧ التغابن، ٧.

١٩٨ نوح، ١٧–١٨.

١٩٩ الأعراف، ٥٧.

٢٠٠ الروم، ٥٠.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢٠١]

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا. أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾[٢٠٢]

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾[٢٠٣]

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[٢٠٤]

ويشير الله ﷻ في الآية الآتية بصورة رائعة إلى أن مثل الموت والبعث كمثل نومنا في الليل ونهوضنا منه في الصباح، فيقول تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٢٠٥]

---

٢٠١ الأحقاف، ٣٣.

٢٠٢ الإسراء، ٥٠– ٥١.

٢٠٣ الإسراء، ٩٩.

٢٠٤ النحل، ٤٠.

٢٠٥ الأنعام، ٦٠.

كما ذكرت الآيات الكريمة فإن انقلاب النهار إلى الليل، وعودة الليل إلى نهار، ودوران الكواكب حول بعضها البعض في الفضاءات المحيطة بعالم الدنيا، وفي الوقت نفسه دورة الحياة والموت التي تحدث في محاصيل الأرض وغيرها من المظاهر الأخرى كل ذلك يعتبر مذكراً بحقيقة النشور في يوم القيامة، أي "البعث بعد الموت"

وقد قدم الله تعالى لعقل الإنسان وإدراكه في آيات كثيرة أدلة واضحة وصريحة وبطرق مختلفة لا تدع مجالاً للشك أو الريب في القلب حول حقيقة البعث والنشور بعد الموت، حيث يقول الله عز وجل:

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [٢٠٦]

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [٢٠٧]

---

٢٠٦ الحج، ٥.

٢٠٧ الحج، ٦.

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾[٢٠٨]

❀ ❀ ❀

إن الصفحة الأولى "للبعث بعد الموت" تبدأ بالنفخة الأولى في الصور. فيموت الجميع نتيجة هذه النفخة، وبالنفخة الثانية في الصور يتحقق "البعث بعد الموت" بالشكل العملي.

ويبين الله تعالى هذه الحقيقة بالتصوير القرآني، حيث يقول:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾[٢٠٩]

ويصور لنا البيان الإلهي حالة الهلع والحيرة التي تصيب الناس الذين يُحيون في ذلك اليوم "البعث بعد الموت" وأهوال المحشر، وما يجري فيه من أحداث في الآيات الآتية:

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ. خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾[٢١٠]

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[٢١١]

---

٢٠٨ الحج، ٧.

٢٠٩ الزمر، ٦٨.

٢١٠ المعارج، ٤٣– ٤٤.

٢١١ الروم، ٥٧.

﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [٢١٢]

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ. وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ. لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ. وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ. ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ. وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ. تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ. أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [٢١٣]

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [٢١٤]

❀ ❀ ❀

ألا يتفكر الإنسان الذي يتمتع بالنظرة والمحاكمة السليمة للأمور بأن كل شيء في هذا الكون، من انفلاق حبة إلى جنان الربيع، ومن الولادات إلى الأموات، ومن عالم الميكروبات المجهرية إلى عالم المشاهدات، ومن الذرات إلى الأجرام محتواة كلها بالشكل الذي يتلائم معها، وضمن نظام لا يُجارى تسير جميعاً حتى يوم القيامة بتماسك وانسجام دائم متناه في الدقة، وهل أوجد خالق هذا الانسجام الإنسانَ في هذا الكون الذي يعجز عقل البشر عن إدراك

٢١٢ الكهف، ٤٤.

٢١٣ عبس، ٣٤—٤٢.

٢١٤ آل عمران، ١٠٦- ١٠٧.

نظامه المتكامل وداخل الملك الإلهي، هل أوجده عبثاً ومن غير حكمة؟. ويقول الله تعالى في ذلك:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ...﴾ [٢١٥]

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [٢١٦]

ما أغرب استغراق الإنسان في غفلته وتجاهله للحقائق والحكم الإلهية العظيمة في الوقت الذي تعبر فيه كل ذرة في الكون، وكل حرف في القرآن، وكل خلية في الإنسان، تعبر بلسان حالها بأنها لم تُخلق هباءً وعبثاً!

للأسف، فما عسى أن يقدم النائمون للنائمين مثلهم من منافع؟ وهل دنيا أهل الغفلة أكثر من لعبة "الاختباء" للأطفال الصغار حيث يربطون على أعينهم ويتظاهرون بالاختفاء عن بعضهم؟

إن أصحاب البصائر العمياء عن الحقيقة قد اعترضوا واحتجوا على الأنبياء والأولياء الذين مدوا إليهم أياد الإنقاذ والخلاص لأنهم قد وقعوا ضحية أهوائهم النفسية، وانغمسوا في شهواتهم البهيمية، وعملو على إنشاء وعمارة عالم خيالي داخل حدود عقولهم المغلقة بعيداً عن حقيقة الموت وانشغلوا في هذا العالم الخيالي بالملهيات الفارغة.

---

٢١٥ المؤمنون، ١١٥.

٢١٦ القيامة، ٣٦.

إنهم مثل الذباب الذي ينشأ ويتغذى على النفايات والترسبات، يعيشون في هذه الدنيا المليئة بالتعاسة والظلام بأجسادهم التي تبدو أنها حاملة للأموات الأحياء معتقدين بأنها هي السعادة المنشودة ثم يهجرونها. وكم من ضغاة متجبرين لا تعرف ظهورهم التراب اختطفتهم أيادي الموت بلمحة بصر فأصبحوا جثثاً هامدة ممدة على الأرض!..

أما أصحاب القلوب التي تخلّصت من ألاعيب الدنيا وبريقها ودخلت إلى عالم القلب، فإن الموت بالنسبة لهم يُعتبر لحظة الولادة للحياة الحقيقية، فالموت انتقال من عالم الظلال إلى العالم الأصل.

إن كان يُتطلّب منا الهرب والخوف من الموت، فيجب أن نرتجف ونضطرب عند اقتراب الليالي، بينما في الواقع أننا عندما نغرق في أسرار الليالي لا نحمل في قلوبنا الخوف، لأن حلول الصباح قاعدة خَلقية، ونظام إلهي.

وعلى ذلك، يتطلب منا النظر إلى القيام من حضن الموت كأمر طبيعي مثل الاستيقاظ من النوم في الصباح، ويبين الله لنا بشكل رائع بأننا قريبون في كل لحظة من هذا الامتداد الزمني من الصباح الحقيقي، أي الموت، وذلك في قوله تعالى:

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [٢١٧]

---

٢١٧ يس، ٦٨.

يقول أحد المتفكرين العارفين:

"الدنيا بالنسبة لذوي العقول مشاهدة للمحاسن، (شعور وتلذذ بشهود التجلي الإلهي، وبديع نظمه وصنعه)، أما الدنيا بالنسبة للحمقى فهي عبارة عن طعام وشهوات."

إن لا مبالاة ابن آدم بسنين عمره التي تسير مثل عربة قد تعطلت مكابحها، وبعواصف الأجل التي تقترب منه، وبمظاهر خريفه الذي يلوح في الأفق، ومشاهدة هذا الكون الفسيح ببلادة على أنه هيكل بسيط التركيب وسهل التكوين، وطرقه على أبواب من حديد في سبيل رغباته وطموحاته الفانية، وهربه وخوفه من أحداث الرحلة الأرضية التي سيدخل في أحضانها، ومتابعة حياته بالقلق والانشغال بالمادة والملذات الجسدية إلى أية درجة تأتلف وتليق بالشرف والكرامة الإنسانية التي متعه الخالق بها.

إن الإنسان الذي يُعد خلاصة الكتاب الكوني، وفاتحته، وتجليات كل أسمائه والذي يتغذى في هذا النظام على الغذاء المادي، والروحي، والمعنوي، أليس هو النسخة الكبرى للخلق وزبدته الكاملة؟ وأليس الكفن الذي هو اللباس والبضاعة الأصلية لسوق الحياة، هو نفسه الذي يضع نقطة النهاية لكل هذا التسوق الكوني الفاني ويبطله؟

إن العيش في هذه الحياة التي تشبه سحابة الصيف العابرة دون هاجس وانشغال بالتفكير في الآخرة، أليس مثل تصور نهارٍ بدون ليل؟

يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾[218]

عندما ينظر الإنسان إلى نفسه وإلى المنظومة الكونية بعين الاعتبار والتدبر، يجد نفسه مضطراً لإعادة التفكير بكيفية العيش في حياته الدنيوية. إنّ حدث الموت هو الحقيقة الأكثر ارتباطاً بالحياة، وهو الذي يضطر الإنسان لإحياء حياته وفق الغايات العلوية السامية، ذلك الوداع المهيب يشكل صورة مليئة بالعبرة للإنسان، والموت نهاية محزنة لأولئك الذين تعهدوا في الحياة الدنيا البناء العظمي الذي تكون من التراب أي "الجانب النفسي" تعهدوه بالرعاية والاهتمام، وأهملوا البناء الروحي الذي تآكل وأُتلف بغبار الأهواء والشهوات!

إن هؤلاء سوف يدركون الوجه المأساوي والمفجع للتعاسة والقذارة الدنيوية التي ظنوها سعادتهم بعد الموت في إحداث "البعث بعد الموت". حيث يقول الله تعالى:

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ. وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ. وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ. وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ. عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾[219]

---

٢١٨ فاطر، ٥.

٢١٩ الإنفطار، ١ ـ ٥.

ويوضح لنا البيان الإلهي المدة الزمنية التي يحس الناس يوم المحشر بأنهم قضوها في الحياة الدنيا بالقياس والمقارنة مع أبدية وخلود عالم الآخرة، وذلك في الآية الآتية:

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [٢٢٠]

ومن أجل ذلك فإن النبي ﷺ يعرف لنا الدنيا بقوله:

"مالي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب قال في ظل شجرة في يوم صائف ثم راح وتركها" [٢٢١]

ويبين الله تعالى حال صاحب الإدراك الحقيقي في الآية الكريمة بتصوير قرآني رائع:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [٢٢٢]

❀ ❀ ❀

لقد أقيم الكون بأجمعه على نظام بالغ الدقة والتألق، فكل شيء في الكون يقوم على قانون متوازن دقيق يتحرك بموجبه،

---

٢٢٠ النازعات، ٤٦.

٢٢١ ابن ماجه: الزهد، ٣؛ ابن حنبل: ١، ٣٩١/ ٤٢٠٨.

٢٢٢ آل عمران، ١٩١.

والسماوات والأرض بكل إحداثياتها وأجرامها وكواكبها أمثلة رائعة على النظام المبهر الذي لا مثيل له، فالشمس والقمر يشرقان ويغيبان بحسبان، ويتعاقب الليل والنهار بحساب دقيق، وتتشكل الغيوم بقدر معلوم، وتتساقط الأمطار بقطرات محسوبة ومعينة على الأرض، وتمر على الأرض بحساب دقيق فصول الربيع والخريف، والصيف والشتاء، وتنبت الأزهار والمروج والنباتات المختلفة بقدر محسوب؛ وتُحضر الأرزاق لمختلف المخلوقات في الكون بحساب وقدر معلوم. وهكذا فإن كل الكائنات تستمر في وجودها وتسير في الكون ضمن نظام إلهي دقيق ومحكم لا يداخله شذوذ، فهل يعقل بعد هذا أن يكون الإنسان الذي هو الكائن الأعلى مرتبة في العالم، وزينة الكائنات، وبديع خلقه سبحانه وتعالى، هل يُعقل التفكير بأنه يسير في هذه الحياة بدون حساب، ولا قيود، ولا شعور بالمسؤولية، ومن غير هدف، ونظام، ومعنى؟

إن الإنسان الذي خُلق من أجل الامتحان، مجبر على إقامة نوع من التوازن بين العقل، والمشاعر، والجسم.

ويحقق الإنسان هذا التوازن بالأسلوب التالي:

في التوازن العقلي يُلجأ إلى نور الحق والحقيقة، عوضاًعن الأفكار الجانحة.

وفي التوازن الحسي أي الانسجام القلبي يلجؤ إلى الاخلاق الحميدة والالتزام بوصف "القلب السليم"

وفي التوازن البدني أو الجسدي يلجأ إلى الاستقامة والتحلي بالعبودية الخالصة لله تعالى والأعمال الصالحة، والمنبع الذي يفيض بكل هذه التوازنات هو القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

وباختصار فإن الإنسان الذي هو أشرف المخلوقات بحاجة ماسة إلى الدخول ضمن الانسجام الإلهي في الكائنات عن طريق الإيمان والأعمال الصالحة التي ترفع من درجته.

ويبين الله تعالى في الآية الكريمة جوانب الدقة المتناهية في نظام الإنسان، والقرآن، والكائنات الأخرى، حيث يقول:

﴿الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ. الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ. وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ. وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ. أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ. وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [٢٢٣]

ربنا اجعلنا في هذه الدنيا بصحبة عبادك الصالحين خزائن حكمتك وأسرارك! واحشرنا معهم يوم الدين!..

آمين!

٢٢٣ الرحمن، ١ – ٩.



سيدنا أيوب عليه السلام

سيدنا أيوب عليه السلام

صاحب التفكير العميق وحجر الصبر

هو من نسل العيص أخو يعقوب عليه السلام، عاش في أنحاء بلاد الشام، وقد آمن به قلة من الناس.

وقد منحه الله تعالى ببركة دعاء جده إسحاق عليه السلام مالاً، وملكاً، وأولاداً كثيرين، وكانت لديه الكثير من الحقول والخدم والحيوانات، يساعد اليتامى والفقراء، والأرامل من النساء، ولم يكن يتناول طعامه إذا لم يكن على الطعام أحد من الفقراء والمحتاجين، وقد كان يحب الإحسان وتكريم أبناء السبيل من النعم التي أسبغها الله تعالى عليه لدرجة كبيرة.

بدأ سيدنا أيوب عليه السلام حياته غنياً، وفي منتصف حياته تحول إلى غريب فقير؛ وفي النهاية وبنتيجة شكره، وصبره الذي أصبح مضرب المثل للناس أغرقه الله تعالى بفضله وإحسانه.

وقد أثنى الله تعالى على تحمله وصبره على الشدائد، حيث يقول عز وجل في كتابه العزيز:

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[224]

---

224 ص، ٤٤.

بعث الله تعالى أيوب عليه السلام نبياً إلى الناس الذين كانوا يعيشون حول بلاد الشام. وقد ذكر الله تعالى في القرآن نبوة أيوب عليه السلام الذي أصبح مظهر الوحي الإلهي:

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [٢٢٥]

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [٢٢٦]

الامتحان، والصبر، والمكافأة:

لقد تعرض أيوب عليه السلام للامتحان الإلهي في ماله، وملكه، وأولاده وكل النعم التي تمتع بها فحُرم منها واحدة تلو الأخرى. وبعد ذلك وقع فريسة مرض عضال، إلا أنه قابل المصائب التي حلّت به بالتوكل والتسليم الكلي لله تعالى، وأظهر صبراً عظيماً على البلايا، فرَضي بقضاء الله وقدره.

---

٢٢٥ النساء، ١٦٣.

٢٢٦ الأنعام، ٨٤.

وقد أصبح صبره وتسليمه الأسطوري لأمر الله تعالى نموذجاً ومثلاً للاعتبار، ودخل التاريخ البشري من أوسع أبوابه.

ويعود الامتحان الذي تعرّض له أيوب عليه السلام إلى عهد نبوته، وقد كان سبب الامتحان الذي تعرض له أيوب عليه السلام ومختلف المصائب التي حلت به هو إبليس اللعين. فقد دخل إبليس الملعون الذي يكره الفضيلة، دخل بزيّ الإنس بين الناس يوسوس لهم قائلاً:

- إن من السهولة بمكان القيام بواجب العبودية داخل حالةٍ من الغنى والوفرة، ينبغي أن تروا أيوب عليه السلام في حالة من الضيق والبلاء لتعرفوا مدى قيامه بواجب العبودية!.. وهكذا استمر في وسوسته للناس ليحطّ من قدر وقيمة النبي أيوب عليه السلام.

وبناء على ذلك فقد أراد الله تعالى إظهار مدى طاعة أيوب عليه السلام له ومدى تسليمه وتوكله عليه، فأنزل مختلف المصائب على ذلك النبي عليه السلام.

ولما تعلقت إرادة الله عز وجل بامتحان عبده ونبيه أيوب عليه السلام، كانت أول المصائب أن جرده من كل أمواله وأملاكه، فجرفت السيول أغنامه وأغرقتها، ودمرت الريح حقوله ومزارعه، فتلبّس إبليس اللعين بثياب راعٍ واتجه مسرعاً إلى أيوب عليه السلام، أراد استغلال الفرصة التي جاءت بينَ يديه، فأخبر أيوب عليه السلام وهو يبكي بشدة:

"يا أيوب! لقد وقعت كارثة عظيمة، لقد أتلف الله تعالى كل أموالك وأملاكك."

ودون أن يتأثر أيوب عليه السلام بهذا الخبر حمد ربه عز وجل بكل سكينة وتوكل، وقال للشيطان الذي دخل بين الناس بثياب الإنس:

"إن مالي وملكي هو مما وهبني ربي، وأخذه الآن مني. فهو صاحبه الوحيد! إن شاء أعطى، وإن شاء أخذ!.."

أذهلت هذه الكلمات والتصرفات إبليس اللعين وأذلته.

وبعد ذلك توفي أولاد أيوب عليه السلام نتيجة زلزال بينما كان يتلقون دروساً، وفي هذه المرة أيضاً جاء الشيطان يبكي ويصرخ ودخل على أيوب عليه السلام، فأسال سيلاً من الدموع متظاهراً بالحزن والرثاء لحال أيوب عليه السلام من أجل أن يوقعه في المعصية، وقال له:

"يا أيوب! لقد هدم الله تعالى بيتك بزلزال شديد، وسلب منك كل أولادك، لقد كانت آهاتهم واستغاثاتهم وتألماتهم مما تنفطر له القلوب، ولا يتحمله عقل، أما زلت تقف في مكانك؟

وقد نقل الحادثة بصورة مؤلمة ومؤثرة للغاية، إلا أن أيوب عليه السلام استقبل الخبر بكل توكل وتسليم لأمر الله تعالى، وأدمعت عينه التي نقلت مشاعر الرحمة في قلبه، وقد أظهر صبراً عظيماً تجاه هذا الامتحان أيضاً ورضي بالتجليات الإلهية.

كاد الشيطان الرجيم ينفجر من الغيظ والغضب لعدم بلوغه غايته من جديد، وكان على وشك قول شيءٍ آخر فبادره أيوب عليه السلام بالكلام قائلاً:

"أيها اللعين! إنك إبليس وتريد أن توقعني في معصية ربي! اِعلم أن أولادي كانوا أمانة بين يدي، وقد عادوا إلى صاحبهم الآن! فهو المعطي، وهو الآخذ؛ فلم أجزع؟ إني عبدٌ أحمد الله تعالى في كل الأحوال!"

يقول عزيز محمود عن تسليم العباد الصالحين لأمر الله تعالى، في أحد أبياته الرائعة:

"أنت الآخذ وأنت المعطي والمبقي أنت؛

فما أعطيته هو العطاء؛ فما لنا إذاً!.."

ويقول أنس بن مالك رضي الله عنه:

"اشتكى ابن لأبي طلحة، قال: فمات وأبو طلحة خارج، فلما رأت امرأته أنه قد مات، هيأت شيئاً، ونحته في جانب البيت، فلما جاء أبو طلحة قال:

- كيف الغلام؟ قالت:
- قد هدأت نفسه، وأرجو أن يكون قد استراح.

وظن أبو طلحة أنها صادقة، قال: فبات، فلما أصبح اغتسل، فلما أراد أن يخرج أعلمته أنه قد مات، فصلى مع النبي ﷺ، ثم أخبر النبي ﷺ بما كان منهما، فقال رسول الله ﷺ:

"لعل الله أن يبارك لكما في ليلتكما." [٢٢٧]

٢٢٧ البخاري: الجنائز، ٤٢، الأدب، ١١٦/ ١٣٠١.

إن الحادثة التي رواها أنس بن مالك ﵁، يظهر مدى ذكاء وتقوى أم سليم، وخاصة تسليمها لأمر الله تعالى، وتوضح هذه الحادثة بشكل جلي أن الأم والأب، والأولاد، والمال، والملك وكل ممتلكات الإنسان إنما هي أمانة بين يديه ومتى ما أراد صاحبها الحقيقي استعادتها يستعيدها. وكأن لسان حال أم سليم يقول لأبي طلحة:

"إن ولدنا قد دُعي من قبل القدرة التي منحتنا إياه، وإننا بعد مدة من الزمن سوف نلتقي به من جديد يوم القيامة، فلا تحزن ولا ترفع صوتك من الجزع! وارض بحكم الحق سبحانه وتعالى..."

وقد وهب الله تعالى أم سليم بعد مدة قصيرة ولداً مثل نور القمر، وقد سمي من قبل النبي ﷺ بعبد الله.

❀ ❀ ❀

وفي النهاية ابتلى الله تعالى أيوب ﵇ بمرض[٢٢٨] لم يسمّه في القرآن الكريم، ومن شدة ما ازداد عليه المرض لم يعد أحد يمر به، وإنما فقط إمرأته رحيمة خاتون كانت الوحيدة والتي كانت تجسيداً حقيقياً للشفقة استمرت على خدمته بصدق ووفاءً لا نظير لهما. فقامت المرأة بالعمل بيدها لتأمين معيشتها وزوجها، وأدت واجبها بالخدمة بكل وفاء.

---

٢٢٨ لم يُذكر اسم المرض في القرآن الكريم، لأن العبرة المراد فهمها وتلقيها هنا ليس المرض، وإنما القصد هو بيان صبر أيوب ﵇ ورضاه عن أمر الله تعالى في كل الأحوال.

وأما أيوب عليه السلام فلم يشتكِ يوماً من حاله أو مرضه، وظل صابراً ملتجئاً إلى الله تعالى، يلهج لسانه على الدوام بالحمد والثناء عليه. وقد أضاف أيوب عليه السلام تعبه ومرضه إلى الشيطان مظهراً أدباً نبوياً رفيعاً، فقد ذكر الله تعالى حاله في القرآن الكريم بقوله:

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [٢٢٩]

وذلك لأن الشيطان حسد حالة أيوب عليه السلام الجيدة وتسلط عليه، إلا أن أيوب عليه السلام كان يدرك أن كل شيء في النهاية من الله تعالى، ولذلك فإنه في كل مرة سلّم أمره لله تعالى وتوكل عليه بكل سكينة.

وعندما ذهبت كل جهود الشيطان في إبعاد أيوب عليه السلام عن حالة الشكر، والحمد، والرضى سدى وهباءاً، بدأ هذه المرة بالوسوسة لسكان المدينة، قائلاً لهم:

- إياكم والاقتراب من رحيمة امرأة أيوب، وتقديم العون لها! وإلا فإن عدوى مرض أيوب سوف تنتقل إليكم! واطردوهم من مدينتكم في الحال!

وقد استجاب أهل المدينة لهذه الوسوسة ومالوا لهذا الرأي، فقالوا لرحيمة مهددين:

- اتركي المكان وارحلي من هنا أنت وأيوب! وإلا سوف نرجمكما ونقتلكما!

---

٢٢٩ ص، ٤١.

وجدت رحيمة نفسها وحيدة محتارة في أمرها، فأخذت أيوب عليه السلام إلى ظهرها وفارقت المكان. فأوت إلى مكان خارج المدينة، جمعت بعض الرمال تحت ظهر أيوب عليه السلام وأسندت رأسه إلى حجرة كوسادة له، وبعدها أقامت هنالك كوخاً تابعت خدمته بإخلاص وصدق.

إن نبي الله أيوب الصابر عليه السلام حتى في تلك الحالة الصعبة قام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكل من يتردد على ذلك المكان ويمر به.

وقد كانت امرأة أيوب رحيمة خاتون تغزل الصوف لنساء المدينة من أجل تأمين متطلبات المعيشة، وذات مرة عندما قالت لزوجها:

– إنك نبي! لو سألت الله تعالى الصحة والعافية، وأن يذهب عنك هذا المرض والمعاناة! سألها أيوب عليه السلام:

– كم هي المدة التي قضيتها وأنا أتمتع بالصحة والعافية؟

فقالت رحيمة خاتون:

– كانت ثمانون سنة.

حينها قال لها أيوب عليه السلام:

– يا رحيمة! إني أستحي أن أشكو إلى الله تعالى حالي قبل أن تمضي على بلائي ومرضي مدة تساوي تلك المدة التي قضيتها

وأنا أتمتع بالصحة والسلامة. فعندما يغدق الله ﷻ علينا بالنعم نفرح بها ونرضى، فلمَ لا نصبر عندما يبتلينا بالشدائد والأمراض؟

فكما أن الله سبحانه وتعالى قد مدح تحمّل وصبر أيوب عليه السلام في القرآن الكريم، كذلك جاء الثناء والمدح عليه في الحديث الشريف، حيث قال النبي عليه الصلاة والسلام:

"كان أيوب أحلم الناس وأصبر الناس وأكظمهم للغيظ." [230]

لقد كان رضاه تجاه الله تعالى تاماً لا نقص فيه، وإن هذا الشعر ربما يعكس صبره العالي وحالة التسليم المطلق لله تعالى:

جميل ما جاءني منك، سواء كانت وردة متفتحة أو شوكة،

وسواء أكان رداءً أم كفناً،

فنارك جميلة، ونورك جميل!..

❁ ❁ ❁

وعندما عجز الشيطان عن الوسوسة لأيوب عليه السلام، تسلط هذه المرة على زوجه رحيمة خاتون. فغدا يخرج بين يديها ويعمل على افتتان وتحريف عقلها، وكانت رحيمة خاتون تنقل ما يجري معها إلى أيوب عليه السلام، وأيوب عليه السلام يقول لها محذراً ومنبهاً:

- يا رحيمة! إن من يخرج في طريقك هو إبليس. فاحذري وتنبهي؛ إنه يريد تفريقك وإبعادك عني بوسوسته لك!..

---

٢٣٠ ابن أبي شيبة، المصنف، ٣، ٢٠١.

لقد كانت رحيمة خاتون من أحفاد يوسف عليه السلام، وقد كان لها نصيب من جمال جدها يوسف عليه السلام، إذ لم يكن في محيطها من هي أجمل منها، ولذلك فقد خرج الشيطان أمامها ذات يوم متمثلاً في صورة شخص جذاب وجميل، وقال لها:

– لم أر أجمل منك في حياتي... إني من تلك القرية القريبة، ولدي من الثروة ما لا يعد ولا يُحصى...

فالتجأت رحيمة خاتون إلى ربها عز وجل قائلة:

– " إني امرأة النبي أيوب المريض، وأنا قائمة على خدمته، ولا أميل أبداً إلى شخص غير ذلك النبي الشريف.." ثم لاذت بالفرار.

ولما عادت رحيمة خاتون إلى أيوب عليه السلام، حدثته بكل ما جرى، أصاب أيوب عليه السلام الضيق من هذا الكلام، وقال بحدّة حالفاً بالله:

– يا رحيمة! لقد سبق وأنْ حذرتك منه من قبل، لئن استعدت عافيتي لأجلدنك مائة جلدة!

ومع مرور الوقت ازدادت شدة المرض على أيوب عليه السلام أكثر، وبدأت هذه الحالة تتحول إلى عائق أمام قيامه بواجب النبوة ومهامها، ففتح يديه إلى السماء منادياً المولى عز وجل بقوله:

﴿... أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[231]

٢٣١ الأنبياء، ٨٣.

وتوجه من كل قلبه إلى الله تعالى داعياً أن تنزل عليه تجليات الرحمة الإلهية وتشمله بالشفاء والعافية.

وقد وردت عدة روايات بشأن تفسير سبب دعاء أيوب عليه السلام بهذا الشكل ومنها:

قال الإمام جعفر الصادق رحمه الله تعالى: "عندما طالت مدة البلاء على أيوب عليه السلام، قال له الشيطان: يا أيوب! إن كنت تريد التخلص من هذا المرض فاسجد لي، فأصاب قلبَه حزن شديد من هذا الكلام وقال: لست مستاءاً من المرض، وإنما مستاءٌ من لؤم العدو. ثم توجه إلي قائلاً: "أني مسني الضر."

وفي رواية أخرى، إن بعض الذين آمنوا به قالوا: "لو كان الله علم من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا! فجزع أيوب من هذا القول جزعاً لم يجزع من شيء قط!"

وحسب رواية أخرى، أن رحيمة خاتون قد أصابتها ضائقة مادية صعبة، ولم يبقَ أمامها سوى بيع ثيابها لتأمين الطعام لهما، ولما سمع أيوب عليه السلام بهذا الأمر التجأ إلى ربه عز وجل بحزنٍ عميق.

وفي رواية أخرى، أن جبريل عليه السلام جاء إلى أيوب عليه السلام وقال له: "إن في خزائن الله تعالى الكثير من امتحان المصائب، ولن تطيقها كلها، فاطلب من الله تعالى العافية لك!" ومن ثم طلب منه أن يدعو الله عز وجل ليمنحه الشفاء.

وفي الحديث، روي أن رجلاً دخل إلى مسجد النبي ﷺ وسأله بعض الأسئلة المتعلقة بأيوب عليه السلام، فبكى المصطفى عليه الصلاة والسلام، وقال: "إن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه له، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين، قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه ربه فيكشف ما به، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب: لا أدري ما تقول؟ غير أن الله يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان، فيذكران الله فأرجع إلي بيتي فأكفر عنهما، كراهية أن يذكر الله إلا في حق." [٢٣٢]

إن الكلمات التي وردت في كلام أيوب عليه السلام وإن كانت تشبه الشكوى، إلا أنها في الحقيقة كانت دعاءاً. لأن الشكوى تكون بحق الناس، أما التوجه إلى الله تعالى فليس شكوى، حيث أن يعقوب عليه السلام أيضاً عندما أصابه البأس والحزن والاضطراب لفقد ولده يوسف عليه السلام، وكان يلفه حزن عميق، قد قال في الكلام الذي نقله على لسانه الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٢٣٣]

---

٢٣٢ المعجم الكبير، الأحاديث الطوال، ٢٥، رقم ٤٠.

٢٣٣ يوسف، ٨٦.

الخلاص "الشفاء" من المرض:

كانت رحيمة خاتون قد خرجت للبحث عن طعام، وفي هذه الأثناء جاء جبريل عليه السلام مُرسلاً من قبل الحق سبحانه وتعالى إلى أيوب عليه السلام، وأخبره الخبر عن الله تعالى:

- يا أيوب! لقد ابتليتك بالمرض فصبرت... والآن سوف أعيد إليك الصحة والنعمة من جديد!" ومع هذا الخبر نقل إليه أمراً من الله تعالى:

﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [٢٣٤]

وبموجب الأمر الإلهي ضرب أيوب عليه السلام برجله الأرض، فنبعت عين من الماء، فاغتسل من ماء ذلك النبع وبمعجزة إلهية تخلّص تماماً من المرض الداخلي والخارجي.

وفي رواية أخرى، أن أيوب عليه السلام لما ضرب برجله الأرض نبعت منها عينا ماء إحداهما باردة، والأخرى ساخنة، فاغتسل من العين الساخنة، وشرب من تلك الباردة.

وإن في قول الله تعالى لأيوب عليه السلام **"ارْكُضْ بِرِجْلِكَ"** دلالة على أنه حتى في المعجزات يُطلب من العبد بذل الجهد والتمسك بالعمل، إذاً يجب على العبد الأخذ بالأسباب في كل أموره، وعدم الاكتفاء بالدعاء ثم القعود عن العمل وترك الأسباب، وبالإضافة

٢٣٤ ص، ٤٢.

إلى ذلك، حتى يُقبل الدعاء من العبد ينبغي عليه استيفاء شروطه، وهذا الأمر يشبه الأمر الذي وُجه إلى مريم العذراء في قوله تعالى:

﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [٢٣٥]

ومن جهة أخرى فإن هذا الأمر فيه تذكير بقوله تعالى:

﴿... إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ...﴾ [٢٣٦]

وهكذا، بنتيجة توجه أيوب عليه السلام إلى ربه عز وجل بكل تأدب، وخشوع، وتعظيم تمّ قبول دعائه، وفُتحت عليه أبواب شفاء الله تعالى ولطفه، وررحمته. ويقول الله عز وجل في ذلك:

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ [٢٣٧]

ووضع جبريل على رأس أيوب عليه السلام الذي استعاد صحته تماماً، وضع على رأسه تاجاً بأمر من الله عز وجل، وألبسه ثياباً جميلة، ومن ثم جاءت غيوم الكرم واللطف الإلهي فأمطرت عليه قطعاً من الذهب.

وفي ذلك يقول نبينا عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم:

"بينما أيوب عليه الصلاة والسلام يغتسل عرياناً خرّ عليه جرادٌ من ذهبٍ فجعل يحثى في ثوبه قال:

---

٢٣٥ مريم، ٢٥.

٢٣٦ فاطر، ١٠.

٢٣٧ الأنبياء، ٨٤.

فناداه ربه ﷻ:

يا أيوب ألم أكن أغنيتك؟

قال أيوب عليه السلام:

بلى يا رب ولكن لا غنى بي عن بركاتك." [٢٣٨]

وخلال هذه الأحداث رجعت رحيمة خاتون من المدينة، ولم تتمكّن من التعرف على أيوب عليه السلام، فظنت أنه فُقد في الصحراء وأخذت تجري فيها بحثاً عنه، وبدأت تستغيث وتبكي، فناداها أيوب عليه السلام:

- عما تبحثين أيتها السيدة؟

قالت له:

- لقد كان لي مريض، وكان صديق عمري، ورفيق دربي، لقد عانى من الآلام والضيق كثيراً، والآن فقدت تلك الخزينة...

فقال أيوب عليه السلام:

- كيف كان ذلك الإنسان؟

قالت:

- إنه كان أيوب الصبور. وعندما كان سليماً ومعافاً كان يشبهك.

---

٢٣٨ البخاري، الغسل، ٢٠، الأنبياء، ٢٠؛ النسائي: الغسل، ٧.

فقال أيوب عليه السلام:

– يا رحيمة! إنه أنا أيوب، لقد أعطاني الله تعالى الصحة والعافية من جديد.

فاستغرق كلاهما بالبكاء فرحاً وتوجها بالشكر والحمد لله تعالى.

استعاد أيوب عليه السلام شبابه وقوته السابقة، وعلاوة على ذلك فقد أكرمه الله تعالى بأموال وممتلكات أكثر من تلك التي كانت لديه من قبل. حيث يقول الله عز وجل:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [٢٣٩]

وفي النهاية، بينما كان أيوب عليه السلام وعائلته في حالة اضطراب التمّ شملهم من جديد، ونالوا بركاتٍ من ألطاف الله تعالى أكثر مما كانوا عليه في سابق عهدهم.

وفي صباح الليلة الأولى من استعادة أيوب عليه السلام لعافيته وتخلصه من المرض، تأوّه بعمق من كل قلبه، ولما سألوه عن سبب ذلك قال:

لقد كنت أسمع في وقت السحر من كل ليلة صوت يناديني: "كيف أنت يا مريضنا؟"، والآن جاء ذلك الوقت من جديد، ولكني لم أسمع النداء يقول لي: "كيف أنت يا عبدنا الصحيح المعافي؟" فلهذا أبكي.

---

٢٣٩ ص، ٤٣.

مكافأة خدمة رحيمة خاتون:

بحسب الروايات، فإن أيوب ﷺ كان قد أقسم على ضرب امرأته رحيمة خاتون مائة سوط بعدما يستعيد صحته لخطءٍ اقترفته، إلا أن خدمة زوجه رحيمة وتضحيتها في سبيله كانت عظيمة جداً، ولهذا السبب فإن الله تعالى أوحى إليه أن يأخذ مائة عود، فيجمعها كلها في حزمة ويضربها بها ضربة واحدة، ويكون هذا منزّلاً منزلة الضرب بمائة سوط ويبرّ بيمينه، ولا يحنث، حيث يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [٢٤٠]

وقد بقيت الرخصة المذكورة في الآية الكريمة قائمة في الإسلام، وتمّ العمل بها في باب الجزاء الشرعي والأيمان تحت اسم "رخصة أيوب"، ولأنه لم يتم تحديد طبيعة نوع الضغث أو الحزمة التي وردت في الآية بشكل واضح، فقد فُسرت وحُملت على معانٍ أخرى، بمعنى أن ذلك الأمر لم يعد يقتصر على الرخصة فقط، وإنما بنفس الوقت فيه إشارة إلى ضرورة تشكيل جماعة تحت إمرة رجل واحد.

---

٢٤٠ ص، ٤٤.

الرضا:

يقول الله تعالى: ﴿... **إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾[٢٤١]

لقد خُلقت كل الكائنات في الوجود ابتداءاً من أبسطها تركيباً إلى أعقدها وفق نظام من التدرج (الترتيب) الخلقي، ويتربع الإنسان على قمة هذا النظام الترتيبي، وذلك لأنه الكائن الذي نال نصيباً من كل صفات الربوبية، وبسبب ذلك فقد جمع في ذاته كل الأضداد، أي أنه جُهز بمشاعر الميل إلى قطبين متعاكسين هما الخير والشر، إن الأضداد المعروفة في الذات الألوهية لله تعالى والتي هي في حالةٍ من الصفاء والانسجام، تكون في حالة صراعٍ أبدي داخل الإنسان.

إن الإنسان يقترب من ربه سبحانه وتعالى بقدر ما يفلح في استخدام إرادته باتجاه الميول والرغبات الإيجابية، وبقدر ما يحقق غلبة جانب الخير في شخصه بنتيجة تعهّد قلبه بالتزكية والتصفية، وإن القلوب التي تُوفق لهذه الحال تعيش حياتها بمشاعر البهجة والسعادة مثل المغترب الذي وصل إلى نهاية طريق رحلة غربته فحقق غايته ومناه، وهكذا فبتضاؤل المسافة بين العبد وربه بتزكية القلب وتصفيته من كدورات النفس، تضمحل صفة الغربة والوحشة عن حياته، وإن المعاناة والاضطرابات في المشاعر والتي يكون منبعها الأكثر عمقاً وتجذراً هو الآلام الناشئة عن البعد عن الله

---

٢٤١ ص، ٤٤.

تعالى، وفي الحقيقة فإن هذه الآلام حتى وإن بقيت قائمة تبدأ بالتناقص والتراجع، وحتى لو أضيفت إلى هذه المعاناة الأساسية، المعاناةُ البشرية الناتجة عن الكدورات والمآسي الدنيوية فإنها تتحول إلى حالةٍ من اللاشعور لدى من ينال نصيباً من القرب مع ربه ﷻ. فالآلام، والاضطرابات والمعاناة الدنيوية تصبح وكأنها تصاب بالخدر.

إن المعاناة والاضطرابات في هذه المرحلة تلتقي مع التفاتة ولطف من ربنا سبحانه وتعالى لتتحول إلى هناء وسرور، وإن هذا السرور الذي يستولي على الروح يمتد أحياناً ليشمل الجوانب المادية والمحسوسة للجسم، وإن الحادثة التي جرت مع علي بن أبي ؓ عندما أصيبت ساقه بسهم، وأمْره لأصحابه بإخراجه في لحظة وقوفه في الصلاة حيث يكون في أقرب وضع إلى الله تعالى، مثال بارز وواضح على الكلام الذي ذكرناه.

إن الفكر والإدراك الإنساني عندما يسمو ويكتسب مستوىً من الشفافية عن طريق تطهير وتصفية القلب، وتزكية النفس من شوائب الأهواء، فإنه يتحرر من أسر المظاهر الدنيوية الخادعة والفانية ليخضع للحق سبحانه وتعالى، وإن الإنسان الذي يصل إلى هذه المرحلة يتمكن من رؤية سلسلة الأسباب في كل حادثة تقع في هذا الكون والتي تمتد لتصل إلى السبب الأول، وببلوغ إدراكه إلى الكمال فإنه ينتقل به مباشرة إلى مسبب الأسباب (وهو الله تعالى

خالق الأسباب). وفي هذه الحالة فإنه يبلغ النشوة واللذة الروحية التي يعبر عنها البيت الشعري:

كل ما هو آتٍ منك إلي جميل .. سواء كانت وردة متفتحة، أو شوكة

والذين يصلون إلى الحالة من السمو الروحي لا يبالون بالأغيار، ولا يعيرون الأسباب والوسطاء أي اهتمام بسبب تفتح بصائرهم القلبية، ويبذلون جهودهم للفناء في المسبب النهائي والخالق الحقيقي للأسباب، أما الذين لا يستطيعون بلوغ هذا الصفاء والكمال فإنهم يتعلقون بأحد الأسباب البَينية ويبقون حيث هم، وتلك الأسباب بمثابة "ليلى" التي تخطف القلب، فتقف مانعاً في أغلب الأحيان أمام الوصال مع المولى ﷻ.

ويقول يونس الحزين الذي تجاوز الميول والرغبات الدنيوية والنفسية، يقول عبارات رائعة عن مراحل تزكية القلب، والفناء في الحق سبحانه وتعالى:

المتصوفون يحتاجون للمذاكرة

والواصلون يحتاجون للمؤانسة

والعاشقون يحتاجون للأنس مع ليلى

أما أنا أحتاج إليك وتكفيني أنت

إن إحدى أكثر الوسائط الموصلة إلى هذا الكمال بركة، هي الابتلاءات التي تشكل منبع المعاناة، ولهذا السبب فقد ورد في

الحديث الشريف أن أكثر الناس عرضة للابتلاءات هم الأنبياء والرسل، وذلك لأنهم قدوة لأمتهم، ومن متطلبات رسالتهم وتكاليفهم أن يكونوا في أقرب مكانة من ربهم ﷿، وإن أساس أو أرضية هذه المكانة القريبة هي الابتلاءات التي تحدد درجة ارتباط الصاحب بصاحبه حيث يمكن أن نشاهد القدرة على التحمل التي لا يمكن حتى تصوره في الأنبياء بفضل كونهم أصحاب الرضا والصبر والتوكل اللذين هما في مقام النتيجة له، والذي يحفظهم من الوقوع في الإفراط الذي يعتبر كشباكِ فخٍ للنفس مثل السرور المبالغ به والحزن والتألم المجاوز للحد.

عندما أصاب النبي ﷺ مرض شديد ذهب الصحابي أبو سعيد الخدري ﵁ إلى بيته لزيارته، وشاهد بنفسه صبر وتحمل النبي ﷺ على آلامه ومعاناته الشديدة، يقول الصحابي الخدري ﵁ عن ذلك:

"دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك، فوضعت يدي عليه فوجدت حره بين يدي فوق اللحاف، فقلت: يا رسول الله ما أشدها عليك قال: «**إنا كذلك يضعف لنا البلاء، ويضعف لنا الأجر**» قلت: يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: «**الأنبياء**» ، قلت: يا رسول الله ثم من؟ قال: «**ثم الصالحون، إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر، حتى ما يجد أحدهم إلا العباءة يحوبها، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء، كما يفرح أحدكم بالرخاء**» [٢٤٢]

٢٤٢ ابن ماجه، الفتن، ٢٣/ ٤٢٠٤.

ولأجل هذا، فإنه ليس من الصحيح ألبتة إبداء الرضا والقبول تجاه الأحداث التي تبعث الفرح والسعادة في القلب، وإظهار السخط والتململ من تلك التي تجلب الهموم والشدائد، إلا أن الإنسان إذا لم يصل إلى قمة الكمال، فليس من السهولة عليه التخلص أو التفوق على ضعفه البشري، وإن كان يعقوب عليه السلام قد تمكن من كتم ودفن آلامه وحسرته على فقدان ولده يوسف عليه السلام، والتحلي بمنتهى الصبر والقبول بقوله: "فصبر جميل وبالله المستعان"، فذلك من قبيل الكمال الاستثنائي الذي تمتع به باعتباره صاحب نبوة، وفي الحقيقة فإنه لم يعرض حاله على أحد غير ربه عز وجل، وهكذا، فإن حزنه وحسرته قد انقلبت في النهاية إلى حالة من الوصال مع الله تعالى.

وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل جبريل عليه السلام:

"ما بلغ وجد يعقوب على ابنه يوسف؟

قال: وجد سبعين ثكلى.

قيل: فما كان له من الأجر؟

قال: أجر مائة شهيد وما ساء ظنه بالله ساعة من ليل أو نهار" [٢٤٣]

أي أنه ليس من الصواب أيضاً النظر إلى الهموم والمحن الدنيوية على أنها من موانع سعادة المرء في الحياة، فالرضا عن

---

٢٤٣ السيوطي، الدر المنصور، 4، 570.

كل ما يأتي من الله تعالى من المصائب والابتلاءات يُعتبر من أجل العارفين بربهم وسيلة للوصول إلى مزيد من السرور والسعادة في الحياة.

يعبر مولانا الرومي عن هذه الحالة بصورة وجيزة، حيث يقول:

"إن يد الحزن تُساقط الأوراق المصفرة عن أغصان القلب، لتتفتح مكانها أوراق السعادة واللطف الخضرة الندية."

❁ ❁ ❁

إن الحزن، والألم، والمعاناة كل ذلك من المؤثرات الكبيرة التي تضعف الميول والرغبات النفسية لتسمو روح الإنسان إلى مراتب عالية، ومن أجل ذلك كان لا بد لجنود القلب الذي يفتح السبل أمام الإنسان أن تمرّ من حدود معاناة واضطرابات شديدة، وإن أكثر واسطة تحقق الكسب والفائدة من المعاناة هي "العشق". ولهذا السبب كان الشاعر فضولي يقول:

يا رب ببلاء العشق امتحنّي

ولا تبعد بلاء العشق لحظة عني

إن الحزن، والسرور في نظر أهل الله تعالى هما توأمان، فأهل الوجد والقلوب الصافية يعرفون أسباب منح هذه المعاناة والأحزان، والمسرات، ولذلك فإنهم دائماً في حالة من التسليم لله تعالى. ويتغنى الشاعر "الحزين" الذي عجن قلبه بسر هذه الحقيقة،

يتغنى بحزنه وألمه بشكل جميل:

إنا ممن شُويتْ أكبادهم على حطب العشق

وممن بكيت عيونهم من بلواء وأنين الوجد

هدمت وعمرت منا الدور وبتنا كخراب نهدٍ

فتساوَ العدم والفناء عندنا مع نعيم الخلد

وهكذا، فإن السحرة الذين وقفوا عاجزين أمام عصا موسى عليه السلام قالوا:

"إننا نسجد لرب موسى وهارون"

فهددهم فرعون بإذاقتهم أشد أنواع العذاب، والآلام، قائلاً:

"لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، وأصلبنكم إلى جذوع النخل! ولأذيقنكم أشد ألوان العذاب والموت!"

وكان جواب السحرة:

"لن يضرنا عذابك! وإنا إلى ربنا لمنقلبون!"

فأعلموا فرعون الأحمق بأن الآلام والمعاناة الدنيوية إنما هي عابرة وفانية، وتحدوا تهديداته بكل صبر وثبات. وذلك لأن السرور والسعادة الروحية لبلوغ الحقيقة ـ مثل التماس في الطاقة الكهربائية الأولى ـ تُصغر حجم الآلام والعذابات الدنيوية، وتجعلها تافهة لا أهمية لها.

فالسحرة الذين خرجوا في البداية لمبارزة النبي موسى عليه السلام الذي هو من أولي العزم، صدقوا وآمنوا به بوجدٍ إيماني رفيع عندما أدركوا الحقيقة الجليلة. وآثروا شرب مدام الشهادة بحماس ووهج إيماني كبير. وأصبحوا في سياحة رحلة إلهية لا نهاية لها متحدّين الآلام والعذابات الدنيوية بتوكل وتسليم عظيم. وهكذا فإن الظلم الذي يتراءى أمام الأعين عذاباً قد تحول بالنسبة إليهم إلى وسيلة للفوز الأبدي، فصاروا من الصالحين الذين تقبلوا القهر والظلم كلطف كبير نزل عليهم من الحق سبحانه وتعالى.

وأما فرعون الذي غلبه الغرور والاستكبار مثل إبليس فقد استمر في عناده وإنكاره للحقيقة الساطعة كالشمس، ويفسر مولانا الرومي حالة المنكرين الذين بلغوا درجة الكفر بعنادهم، بقوله:

"إذا أمعنت النظر فإنك تلحظ بأن إنكار المنكرين ليس لمجرد الإمعان في الإنكار، وإنما بسبب الحسد، فيريد إما قهر وهزيمة خصمه، أو إظهار علو شأنه ومنزلته عليه."

❀ ❀ ❀

إن جفاء وعذاب الحق سبحانه وتعالى أولى وأهم لدى العباد الصادقين بألف مرة من أفراح ومسرات هذا العالم السرابي والخيالي العابر! وقد نفض هؤلاء الصادقون أيديهم من الأمور والأشياء التي يظنها عوام الناس ألطافاً وسعادة. يتابع مولانا قدس الله سره تفسيره لحالة الناس، حيث يقول:

"إن الأشياء التي تُعد من تمام اللطف لعوام الناس، فإنه يُعد قهراً لأهل الله."

"في هذه الحالة ينبغي أن يتعرض الناس للبلاء والآلام حتى يفهموا الفرق بين الصنفين."

يعجز الإنسان عن وصف مقام الرضا الذي بلغه أهل الله، أي مرتبة الفناء في الحق سبحانه وتعالى، بكلمة، أو صوت، أو عبارة، لأن ذلك المقام ذوقٌ بديع فريد مملوء بتجليات الأسرار الإلهية المحجوبة عمن لم يأتلف معها.

ولذلك، عندما قالت رحيمة خاتون لأيوب عليه السلام وهو في أشد أيام مرضه: إنك نبي! لو أنك تسأل الله تعالى الصحة والعافية ليخلصك من هذا المرض!

قال لها أيوب عليه السلام: كم كانت الأيام التي قضيتها وأنا أتمتع بالصحة والعافية؟

فقالت رحيمة خاتون: لقد كانت ثمانون عاماً.

عند ذلك قال أيوب عليه السلام: "يا رحيمة! إني أستحي أن أشكو الله تعالى أمري قبل مضي مدة على بلائي ومرضي تساوي على الأقل تلك التي قضيتها في الرخاء والعافية، فلم لا نصبر على ابتلاء الله تعالى، بينما نفرح ونرضى عندما يغدق علينا بالنعم؟ فها أنا راضٍ لأمر ربي!"

إن موقف أيوب ﷺ هذا يقدم أجمل مثال لحالة الرضا التام، وإن أيوب ﷺ وعلى الرغم من كل المشقات والمصائب التي حلّت به خلال مرضه تجنب حتى عرض حاله ومرضه على الله تعالى أو سؤاله الصحة والعافية، وذلك لكي لا ينزلق إلى موقفٍ قد يبدو حالة من الشكوى عن مرضه، ولكي يُظهر الصبر الذي يحقق الرضا.

وفي النهاية وبإصرار زوجه، قال بتضرع عبارة قصيرة فقط:

"أنت أرحم الراحمين"

وبموجب هذا الدعاء، ولكي يكون ذكرى رحمة لأولئك الذين في عبوديةٍ دائمة لربهم فقد منح الله ﷻ أيوب ﷺ الشفاء من المرض وأزال عنه الهم والشدة، وهكذا، فقد أُعيدت إلى أيوب ﷺ حياته الكريمة السابقة بنتيجة الصبر، والشكر، والتسليم، ومحبة الله تعالى.

لقد بين الله تعالى من خلال كل الأحداث التي جرت لأيوب ﷺ مدى صبر عبده أيوب وحالة الرضا التي أحاط نفسه بها.

إن حالة رضا وصبر أيوب ﷺ تُعتبر من أروع الأمثلة التي ينبغي أن يستمد السائرون في طريق الحق سبحانه وتعالى من السالكين، والدراويش، أن يستمدوا منها العبر والمشاعر الروحانية.

ولقد مهدت المعاناة والآلام التي تعرض لها النبي ﷺ في الطائف، الأرضية اللازمة لحادثة "المعراج" التي لم ينل شرفها أحد من العباد.

وفي تجلٍ آخر، تقدم حالةُ خليل الله إبراهيم عليه السلام مظهراً مختلفاً من مظاهر التسليم والالتجاء إلى الله تعالى:

فعندما ألقي إبراهيم عليه السلام في النار، جاءه جبريل عليه السلام وقال له:

- هل لك حاجة في شيء؟ وهل لك أي طلب مني؟

أما إبراهيم عليه السلام فقال:

- لي حاجة، ولكن ليست إليك!

وبعد ذلك سأل جبريلَ عليه السلام:

- من الذي يعطي قوة الحرق للنار؟

وفي النهاية، انقلبت نار الدنيا في لحظةٍ إلى حدائق غنّاءة بتجلي عشق إبراهيم عليه السلام لربه عز وجل. وذلك لأنه قد تجلت في إبراهيم عليه السلام أسرار أسماء الأشياء وهو قد فني في الحق.

❀ ❀ ❀

يُعد كل ما يأتي من الله تعالى بالنسبة للفانين في الحق سواء أكان لطفاً، أم قهراً وسيلة للسمو والارتقاء الروحي للعبد. فالمنغّصات، والآلام والمعاناة تُعتبر كلها في نظرهم ألطافاً من الله تعالى، وإنهم يمتنعون عن اللجوء إلى استخدام الوسائط مثل إبراهيم عليه السلام حتى وإن كان جبريل عليه السلام، لأنهم أصبحوا مظهراً للحق، ولم يبق من فرقٍ بينهم وبين الفراشات التي تفنى وتهلك نفسها من أجل نيل نور الضوء.

ولكن ينبغي الانتباه هنا إلى أن من يرمي بنفسه في النار متخذاً لنفسه من حالة عدم إحراق النار لإبراهيم ﷺ نموذجاً، ومن ثم انتظار ظهور النتيجة نفسها يعتبر متجاوزاً لحده وجاهلاً بنفسه، ونهايته الخسران المبين. ويوضح مولانا الرمي هذه الحقيقة بصورة حسنة، إذ يقول:

"الدخول إلى النار واردٌ في طريق الله، ولكن فلينظر المرء قبل إلقاء نفسه في النار هل تحققت فيه الحالة الإبراهيمية أم لا! لأن النار لا تعرفك، وإنما تعرف إبراهيم فلا تحرقه!.."

وخلاصة القول، فإن قياس المرء نفسه بالكبار من أصحاب مقامات الكمال، ثم إيرادها موارد الخطر والمهالك جهالة لا أصل لها. فالمطلوب منا اتباع الوسائل والتدابير ضمن الإمكانات المتاحة، وترك نتائجها إلى الله بالتوكل عليه والالتجاء إليه.

وفي هذا المقام يقول النبي ﷺ:

"**من أحب أن يعلم منزلته عند الله ﷻ، فلينظر إلى منزلة الله تعالى عنده، فإن الله تبارك وتعالى ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه.**" [٢٤٤]

وإن المثال الآتي يوضح هذه الحقيقة بشكل جلي:

روي أن النبي عليه الصلاة والسلام لقي رجلاً يقال له حارثة في بعض سكك المدينة فقال:

---

٢٤٤ الحاكم، المستدرك، ١، ٦٧٢/ ١٨٢٠.

"كيف أصبحت يا حارثة؟"

قال حارثة: أصبحت مؤمناً حقاً.

قال النبي ﷺ:**"إن لكل إيمان حقيقة فما حقيقة إيمانك؟"**

قال حارثة رضي الله عنه: عزفت نفسي عن الدنيا فأظمأت نهاري وأسهرت ليلي وكأني بعرش ربي بارزاً وكأني بأهل الجنة في الجنة يتنعمون فيها وكأني بأهل النار في النار يعذبون.

فقال ﷺ: **"أصبت فالزم، مؤمن نور الله قلبه"** [٢٤٥]

وفي حديث آخر يقول النبي ﷺ عن حارثة رضي الله عنه:

"من سره أن ينظر إلى من نوّر الله قلبه فلينظر إلى حارثة" [٢٤٦]

ويقول الله عز وجل واصفاً حال الصالحين في كتابه العزيز:

﴿... رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ...﴾ [٢٤٧]

وإن العباد الصالحون يدعون مثل سليمان عليه السلام:

﴿... رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [٢٤٨]

٢٤٥ الهيثمي، مجمع الزوائد، ١، ٥٧.

٢٤٦ ابن هاجر، الإصابة، ١، ٢٨٩.

٢٤٧ البينة، ٨.

٢٤٨ النمل، ١٩.

ويقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [٢٤٩]

إن سبب نزول هذه الآية الكريمة يسترعي الانتباه كثيراً:

عندما أراد صهيب الرومي ﵁ قصدَ الهجرة إلى رسول الله ﷺ وأثناء خروجه من مكة المكرمة، خرج في إثره جماعة من قريش للإمساك به وإعادته مجدداً إلى مكة المكرمة. فلما أحس صهيب ﵁ بتعقبهم له نزل عن ناقته واختبأ عن الأعين، وثم أخذ سهماً من جعبته ووضعه في قوسه وبات ينتظر، ولما أصبح القرشيون على مسافة مرمى السهم منه، ناداهم:

– يا معشر قريش! تعلمون أني أمهركم في رمي السهام، وسوف أمطركم بكل السهام التي في جعبتي قبل أن تصلوا إلي، وثم سآخذ سيفي بيدي وأقاتلكم به حتى آخر جزء يتبقى منه في يدي، وبعدها يمكنكم أن تفعلوا بي ما تريدون، ولكن إن كنتم تودون غير هذا فإني سوف أعلمكم عن مكان أموالي التي تركتها في مكة، فتأخذوها وتخلّوا بيني وبين ما أنا مقدم عليه، ودعوني أذهب في سبيلي." فقبل منه القرشيون هذا العرض، وتركوه وشأنه. [٢٥٠]

---

٢٤٩ البقرة، ٢٠٧.

٢٥٠ ابن الجوزي، زهد المسير، ١، ٢٢٣؛ ابن كثير، التفسير، ١، ٢٦٠- ٢٦١.

وبعدها خرج صهيب ﵁ في طريقه إلى المدينة المنورة دون إضاعة مزيد من الوقت. وأنزل الله تعالى هذه الآية على النبي ﷺ في المدينة المنورة، وعندما رأى النبي ﷺ في المدينة قال له:

"ربحت تجارتك يا صهيب!"

فقال صهيب ﵁: يا رسول الله، ما سبقني إليك أحدٌ، وما أخبرك إلا جبريل. [٢٥١]

يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [٢٥٢]

ويقول أيضاً:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [٢٥٣]

---

٢٥١ الحاكم، المستدرك، ج، ٣، ص، ٤٥٠- ٤٥٢.

٢٥٢ التوبة، ٧١.

٢٥٣ التوبة، ٧٢.

إن كل هذه النعم المعدودة في الآية الكريمة وُعد بها أهل الإيمان والعمل الذين في المراتب الأولى. وإن شيئاً صغيراً من رضا الله تعالى لأكبر من كل تلك النعم المعدودة للجنة. لأن مصدر كل خير، وكل سعادة، وكل شرف وسمو هو الله تعالى.

وإن الله سبحانه وتعالى يمتدح عباده الصالحين الذين ينفقون أموالهم في سبيل نيل رضاه، حيث يقول:

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [٢٥٤]

ويقول في آية أخرى:

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [٢٥٥]

إن أعلى مقام يمكن للإنسان الوصول إليه في طريق الحق هو مقام رضا الله تعالى عن العبد، وهذا المقام بدوره مكافأة للعبد على رضاه عن ربه والتسليم له في كل أموره.

---

٢٥٤ البقرة، ٢٦٥.

٢٥٥ الرعد، ٢٢.

عندما سئل عمر بن عبد العزيز ﵁: ماذا تحب؟

قال لهم: إن بهجتي هي في المقدّرات فقط، وإني أحب حكم الله تعالى...

يقول الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [٢٥٦]

وقال رسول الله ﷺ:

"إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة؟ فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك، فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك، قالوا: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدا" [٢٥٧]

❀ ❀ ❀

إن الرضا هو الثمرة النهائية للمحبة، وإن العبد الذي يمتلئ قلبه بالعشق، يحتضن كل ما هو آت إليه من ربه وبنسبة محبته بالامتنان والقبول، وإن العاشق حتى لو شعر بقسوة الألم فإنه يزداد بالرضا

---

٢٥٦ المائدة، ١١٩.

٢٥٧ البخاري، الرقاق، ٥١/ ٦٥٤٩؛ مسلم، الجنة، ٩.

أكثر، ويبلغ مرحلةً يرغب ويهوى فيها المعاناة، فهو يرضى بالألم العابر الآن من أجل نيل المكافأة التي تنتظره في المستقبل، وقد كان شقيق البلخي رحمة الله عليه يقول:

"العارف بمكافأة الشدائد لا يحرص على التخلص منها!"

لأن المريض لا يبالي بمرارة الدواء من أجل الشفاء، وحتى أنه يقبل بمحض إرادته أشد أخطر العمليات الجراحية.

وإن المرتبة العليا للرضا مرتبطةٌ بقصد إسعاد قلب المحبوب، وأما رضا الله تعالى فهو أعلى من نعيم الجنة، وإن محبة العبد التي في هذا المقام تحييه في عالم لا يشعر فيه بالألم، حتى ولو لا يعلم الذين لم يصلوا إلى ذوق المحبة بهذه الحالة، فإن هناك حالات عجيبة للعشاق أكثر مما نفهمه وندركه.

ولكن بالرغم من كل هذه الأحوال ينبغي علينا التوضيح في هذا الشأن بأنه:

لا ينبغي طلب الامتحان بالبلاء والمصائب من الله تعالى من منظور كبر حجم المكافأة على الرضا عن الآلام والمعاناة، وذلك لأن العبد قد لا يتمكن من تعيين الحمل الذي بوسعه تحمله، وبالتالي يرزح تحت وطأة الشدائد التي ستقع عليه ولا يتمكن من تحملها. وأما إن جاءت هذه المصائب من الله تعالى، فعلينا أن نعلم بأن الله ﷻ لا يكلف ولا يُحمل عبداً أكثر مما يحتمل!

كان في أحد العصور شخص يُدعى جان بابا، ومن شدة تلذذه بعشق ومحبة الله تبارك وتعالى كان قد تجاوز نفسه، وفي أحد الأيام فتح يديه إلى الإله العلي القدير قائلاً:

"يا رب! ليست لي نشوة ولذة من غيرك! فامتحني بالشكل الذي تريده لي!"

فأصيب الرجل بعد ذلك بابتلاءٍ شديد، ولكن عندما بدأت طاقته بالضعف والنفاد نتيجة تقدم عمره، أصبح قلبه يعتصر بنيران الندامة وصار يذهب إلى أبواب مدرسة يتلقى فيها التلاميذ الصغار الدروس، ويقول لكل ولد صغير يخرج من أمامه متوسلاً إليه:

"يا بني! ادع لعمّك الشيخ الكذاب هذا ليتفضل الله تعالى عليه بالشفاء!"

ومن جهة أخرى، فإن القبول بالأعمال السيئة، وبالأشياء التي تقود الإنسان إلى الفسوق ليس من الرضا في شيء، فإن الرضا بالعصيان، والفجور، والكفر من أكبر الغفلات والجهالات، وهناك عدد لا يحصى من التحذيرات الإلهية في هذا الخصوص، يقول الله تعالى في أحد هذه التحذيرات:

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ [٢٥٨]

أي أن السكوت في مواجهة مرتكبي المعاصي ليس من الرضا.

٢٥٨ آل عمران، ٢٨.

إن بمتابعة والانتباه إلى الرجال ذوي القامات الكبيرة وكيفية نيلهم لهذا الكمال المتسامي، وتكوينهم لشخصياتهم المتميزة، نشاهد أنهم جميعاً قد اكتووا بنيران آلاف البلايا، والآلام والشدائد حتى وصلوا إلى ذلك الكمال الذي هم فيه.

ومما يلفت الانتباه أن الولي الكبير بهاء الدين نقشبندي قدس الله سره الذي أنيرت عوالم قلبه بالروحانية، قد كُلف من قبل المرشد أمير كُلال لخدمة الناس مدة سبع سنوات، وأُسندت إليه مهمات مثل مداواة الحيوانات المريضة التي تخلى عنها أصحابها وأُبعدت عن الناس، وتنظيف الطرقات التي يسير عليها الناس وغيرها من الأعمال التي يأنفها عامة الشعب. وقد وفّى وأدى هذه الإعمال بكل وجد ومحبة، وفي نهاية الأمر أوصلته العذابات، والآلام، والمعاناة التي لقيها من تلك الخدمات، أوصلته إلى الأسرار الإلهية لمقامات لا يمكن لأحد بلوغها، وإن البيتين الآتيين يعبران بشكل رائع عن كيفية وصوله إلى ذلك المقام السامي ضمن مناخ من التواضع والعدم:

الناس قمح وأنا قشره،

الكل طيبون، وأنا السيء!

وعلى ضوء هذه الحقيقة يقول مولانا قدس الله سره:

"السبيل الوحيد للخلاص من أسر المعصية هو الألم، والمعاناة، والمشقة!"

ولكن إذا لم توقظ أو تنبّه هذه الأمور أهلَ الدنيا، أي الذين يعيشون حياتهم على هوى ورغبة أنفسهم الأمارة بالسوء معتقدين أن في ذلك سعادتهم المنشودة، فإنهم يهلكون تحت وطأة مخالب أنفسهم الحادة، وحسب نظر أهل الله فإن هذا هو القهر الحقيقي.

فالسعادة الأخروية تتطلب منا عدم الافتتان بالجاذبية العابرة للدنيا، وألحانها الخادعة. حيث تروي لنا أم المؤمنين زوج النبي ﷺ حفصة رضي الله عنها أحد تصرفات الرسول عليه الصلاة والسلام والتي تعكس موقفه من الدنيا، فتقول:

" كان له مِسْحًا نثنيه ثنيتين فينام عليه ، فلما كان ذات ليلة قلت: لو ثنيته أربع ثنيات لكان أوطأ له فثنيناه له بأربع ثنيات، فلما أصبح قال: **ما فرشتم لي الليلة. قالت: قلنا: هو فراشك إلا أنا ثنيناه بأربع ثنيات، قلنا: هو أوطأ لك قال: "ردوه لحالته الأولى، فإنه منعتني وطاءته صلاتي الليلة."** [٢٥٩]

❀ ❀ ❀

إن سبيل الأنس الإلهي هو المحبة، ومن شأن المحب اتباعه وطاعته للمحبوب، فالمحبون مجبرون على تلقي كل ما هو آت إليهم من محبوبهم بالرضا والقبول الحسن، إذ المُحب لمن يحب مطيع، ولا يفارق ذكر المحبوب لسان وقلب المحبين، فالقلوب

٢٥٩ الترمذي، الشمائل، ص، ١٥٤.

التي تلهف إلى حياة ملؤها الصفاء والبهجة تداوم على زيادة ذكر الله تعالى، فتذكر الله تعالى في كل الأحوال قياماً، وقعوداً، وعلى الجنب، وتغرق بالتفكير في خلق السماوات والأرض وبالحكم الدقيقة والعظيمة الظاهرة منها والخفية وراء هذا الكون العجيب، لتقول بلسان حالها:

﴿... رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [٢٦٠]

ويقول الله تعالى يوم القيامة لأرواح عباده الذين رضوا عنه:

﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً. فَادْخُلِي فِي عِبَادِي. وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [٢٦١]

فيكرمهم بالنعيم الأبدي الخالد، ويشرفهم بجمائله التي لا يحدها وصف.

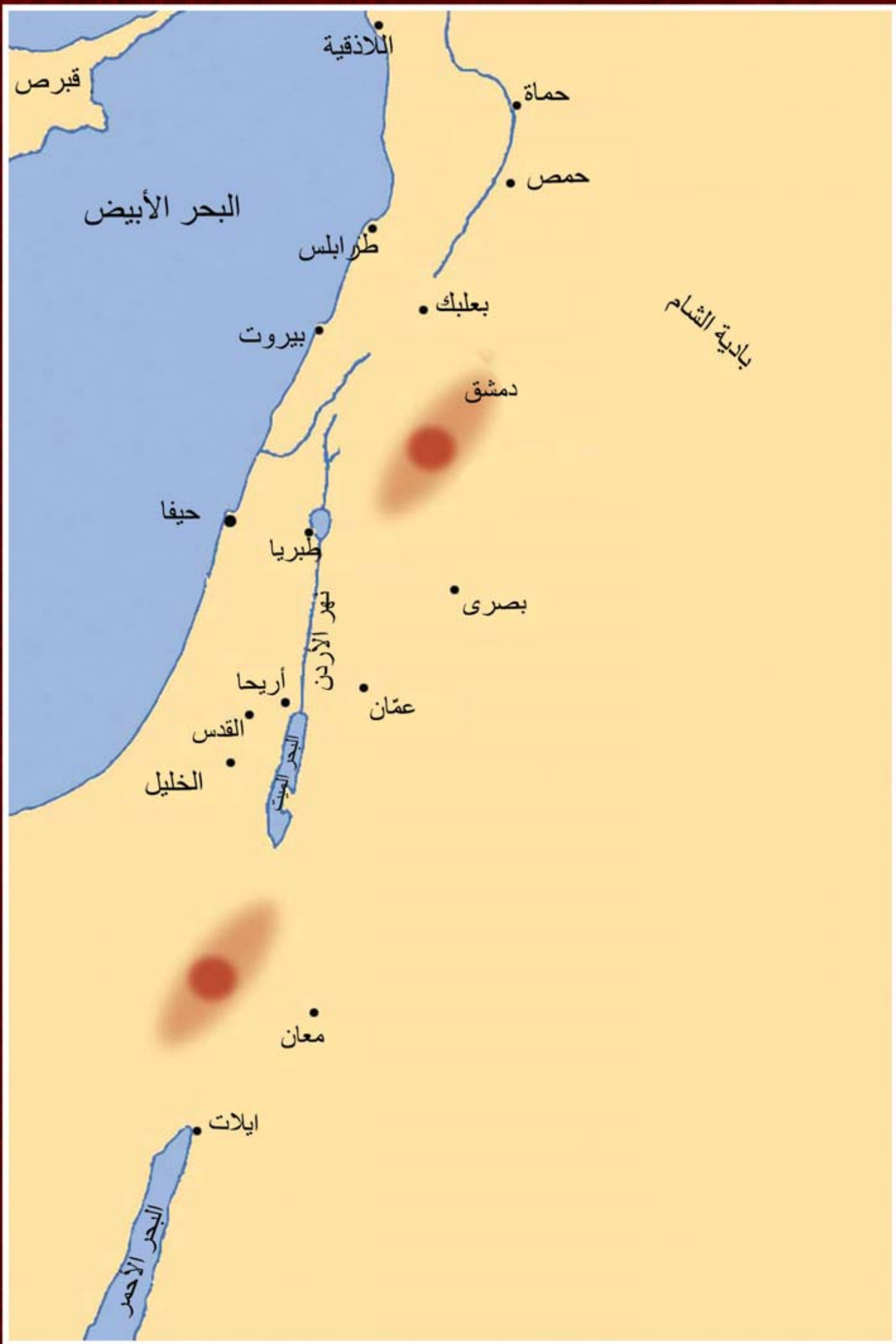
يا رب! اجعلنا من عبادك الذين ينالون رضاك، ويتوكلون عليك حق التوكل، ويسلمون لأمرك في كل أحوالهم!

آمين!..

---

٢٦٠ آل عمران، ١٩١.

٢٦١ الفجر، ٢٨ – ٣٠.


اللاذقية
قبرص
حماة
حمص
البحر الأبيض
طرابلس
بعلبك
بادية الشام
بيروت
دمشق
حيفا
طبريا
بصرى
نهر الأردن
أريحا
عمّان
القدس
الخليل
البحر الميت
معان
ايلات
البحر الأحمر


سيدنا يونس
عليه السلام

سيدنا يونس عليه السلام

الذي تجاوز الظلمات غرقاً في أعماق حقيقة الذكر والدعاء والاستغفار ضمن حالةٍ من الوجد

يونس عليه السلام الذي أنزلت سورة في القرآن الكريم باسمه، هو النبي المرسل إلى شعب نينوى [٢٦٢] عاصمة دولة الآشوريين، وحسب التوقعات فإنه عاش في عصر الثمانينات قبل الميلاد، ووالده هو"متى" الرجل الصالح.

لقد وُلد يونس عليه السلام في نينوى وترعرع فيها، وعندما بلغ عمره الثلاثين عاماً كلفه الله تعالى بمهمة النبوة، ويقول علي رضي الله عنه:

"أصبح يونس عليه السلام نبياً وعمره ثلاثون عاماً، ودعا قومه إلى الإيمان لسنوات طويلة."

وقد وردت آيات في القرآن الكريم تتعلق بشأن نبوة يونس عليه السلام:

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [٢٦٣]

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [٢٦٤]

---

٢٦٢ مدينة نينوى، هي مدينة تقع في محيط مدينة موصل الحالية على شاطئ نهر دجلة.

٢٦٣ الصافات، ١٣٩.

٢٦٤ الصافات، ١٤٧.

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [٢٦٥]

شعب نينوى:

لقد كان أهل نينوى يعبدون الأصنام والهياكل، لأنهم كانوا من الظالمين، وعندما بدأ يونس عليه السلام بدعوتهم إلى التوحيد، آمن به من القوم شخصان فقط، أما أحدهما فكان عالماً حكيماً، وأما الثاني فكان عابداً زاهداً، إلا أن القوم الآخرون قالوا ليونس عليه السلام:

إنك تخرج علينا لوحدك لتخبرنا بخطأ سبيل آبائنا وأجدادنا، بينما يوجد بيننا الكثير من الكهنة، والعلماء، وأولو الصنائع والفنون! إنك بقولك هذا تنكر آلهتنا! أتريد أن تقيد أرجلنا بحكم من لم يألفه ولم يعتد عليه أحد؟!

ولكنهم لم يكتفوا بالاعتراض على يونس عليه السلام بالكلام، وإنما أذاقوه مختلف أنواع العذاب والأذى، وأما يونس عليه السلام فقابل إيذاءهم وإساءتهم إليه بالصبر والتحمل، واستمر في دعوتهم إلى التوحيد بقلب مليء بالرحمة والشفقة، وكان يذكرهم ويحذرهم من عذاب الله الشديد، إلا أنهم استهزأوا بنصائحه ومواعظه، وقالوا له:

---

٢٦٥ النساء، ١٦٣.

"إن كان سيأتي العذاب ويمحق الجميع من أجل شخص واحد، فاعذرنا، وليأتنا ذلك العذاب."

لقد أصاب يونسَ ﷺ حزن عميق بسبب عناد قومه وإصرارهم الشديد على الكفر، فلم يستطع تحمل المزيد، وفارق القوم دون انتظار ورود الإذن الإلهي، وبينما هو في طريق الذهاب جاءه الوحي من الله تعالى:

"أن يا يونس! عد إلى القوم؛ وادعهم إلى الإيمان لأربعين يوم جديد!"

أطاع يونس عليه هذا الأمر الذي تلقاه من ربه، وعاد إلى قومه من جديد، فأخبرهم بأمر الله تعالى وعذابه، ولكنهم لم يتعظوا أبداً، وعندما مر سبعة وثلاثون يوم على مدة الأربعين يوم التي أمره الله تعالى أن يقضيها في دعوة القوم إلى الإيمان، ولم يكن القوم قد آمنوا بعد، قال لهم يونس ﷺ:

"انتظروا العذاب الذي سوف يحل بكم لثلاثة أيام!" وفارق القوم من جديد دون انتظار الأمر الإلهي، والحزن العميق يلفه.

ولم تكن مفارقته القوم هروباً من الوظيفة الإلهية، ولا عصياناً للأمر الإلهي الذي جاءه، وإنما تصرفه كان فقط بنية الابتعاد عن القوم العصاة الرافضين للدعوة الجليلة السامية.

الإيمان، والتوبة والعفو:

لم يطل الانتظار واقترب موعد اليوم الذي أخبر به يونس ﷺ، وبدأت العلامات المنبئة بالعذاب تلوح في الأفق، فاصفرت وجوه أهل نينوى جميعاً، وشحبت ألوانهم، وأدركوا كل شيءٍ، فقالوا لبعضهم والخوف من العذاب القادم يتصاعد من وجوههم:

– إذاً، هذه علامة العذاب الذي حذرنا منه يونس ﷺ! فلم نرَ منه الكذب أبداً إلى يومنا هذا.

بدأت السماء تسوّد من فوقهم، وكان الجميع في حالة استغاثة ونداء، وبحثوا بيأسٍ عن باب أمل ينفذون منه، وقالوا لبعضهم:

– إن كان يونس ﷺ ما زال قائماً بيننا فلا تخافوا! أما إن كان قد غادرنا فسوف يهلكنا العذاب!.

وأصابتهم ندامة بالغة، وامتلأت قلوبهم بالندم على ما اقترفت يداهم، لأن العذاب الإلهي قد أصبح قاب قوسين أو أدنى منهم، فهرعوا في حالة من لا يعرف ماذا يفعل وفي اشتياقٍ كبير للتوبة، هرعوا إلى شخصٍ صالح بينهم.

فقال لهم:

– ما زال يوجد يومان على حلول موعد العذاب، فاصعدوا إلى تلك التلة "تلة التوبة"! وسامحوا بعضكم البعض وأعيدوا الحقوق المغتصبة إلى أصحابها! ومن بعد ذلك اذبحوا قرابين من

أجل إله يونس، وليأكل الجميع كباراً وصغاراً، أغنياءً وفقراءً من هذه القرابين! ومن ثم اكشفوا عن رؤوسكم وتوسلوا إلى الله بدعائكم:

"يا رب يونس! ها نحن قد تبنا إليك، وآمنا بك، وقبلنا بنبوة يونس، وإن وجدنا يونس فإننا سوف نتعلم منه أوامرك ونواهيك ونعمل على تطبيقها فيما بيننا!"

نفّذ أهل نينوى كل الكلام الذي طُلب منهم والدموع تنهمر من أعينهم، وقبل الله تعالى باسمه الشريف "الرحمن"، قبل توبتهم ورفع عنهم ذلك العذاب الإلهي، وكان ذلك اليوم هو يوم الجمعة ويوم عاشوراء، ويقول الله تبارك وتعالى في هذا الشأن في كتابه العزيز:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [٢٦٦]

إن قوم يونس عليه السلام كانوا القوم الوحيد الذين أشرفوا على الهلاك بسبب كفرهم وعدم إيمانهم، ونجوا منه بالتوبة والإيمان، وهذه من التجليات المميزة للطف الإلهي، وإن الآيات الكثيرة الواردة في سورة يونس عليه السلام تبين أن رحمة الرحمن أوسع وأكثر من العذاب الإلهي.

---

٢٦٦ يونس، ٩٨.

عندما فارق يونس عليه السلام نينوى:

يقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا...﴾ [٢٦٧]

ذو النون هو لقب يونس عليه السلام، ويأتي بمعنى "صاحب الحوت". وقد أُطلق عليه هذا اللقب بسبب ابتلاع الحوت إياه.

❀ ❀ ❀

عندما غادر يونس عليه السلام مدينة نينوى اتجه إلى شاطئ نهر دجلة. وركب سفينة كانت هناك. حيث يقول الله تعالى في ذلك:

﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [٢٦٨]

وبعد إبحار السفينة بمدة من الوقت توقفت وسط المياه، ولم يتمكن الربان من تسييرها بشكل من الأشكال، اعتبر من كان على ظهر السفينة تحت وطأة هواجس اضطراب السفينة وإشرافها على الغرق أنّ حالةً من النحس قد أصابتهم فتشاءموا منها، واعتقدوا أن ما يحصل لهم بسبب وجود شخصٍ مذنب معهم في السفينة.

واتفقوا على إجراء القرعة لمعرفة ذلك الشخص، فوقعت القرعة على يونس عليه السلام، وقد أدرك يونس عليه السلام أن ما جرى له هو امتحان رباني، فقال بكل توكل:

---

٢٦٧ الأنبياء، ٨٧.

٢٦٨ الصافات، ١٤٠.

- أجل، إن ذلك العاصي هو أنا!

ولكن لإدراك من كانوا على ظهر السفينة بأنه رجل صالح لما يبدو من مظهره وحالته، فقد كرروا القرعة عدة مرات، ولكن القرعة دائماً كانت تقع على يونس ﵇، وفي النهاية قالوا بشكل يائس: "في كل الأحوال لا بد أن لهذا العبد ذنب ما" ورموا يونس ﵇ في غمار المياه. ويقول الله تبارك وتعالى في ذلك:

﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [٢٦٩]

﴿... فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ...﴾ [٢٧٠]

﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [٢٧١]

وأصبح يونس ﵇ في بطن حوتٍ، يحيط به ظلام دامس مطبق، وهو لا يزال على قيد الحياة، ويحتفظ بكامل وعيه وشعوره. فلقد أمر الله سبحانه وتعالى الحوت بأن لا يلحق به جرحاً ولا يمسّ عظامه بأي سوء.

وأظهر يونس ﵇ الرضا بالتقدير الإلهي، وسلم أمره لربه سبحانه وتعالى، يخبرنا الله تعالى عن حاله هذه في كتابه الكريم، حيث يقول:

---

٢٦٩ الصافات، ١٤١.

٢٧٠ الأنبياء، ٨٧.

٢٧١ الصافات، ١٤٢.

﴿...فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [٢٧٢]

وفي هذه الأثناء تناهت إلى مسامعه بعض الأصوات وهو في بطن الحوت، فأصابه القلق والفضول لمعرفة هذه الأصوات. فأوحى الله تعالى إليه أنه في بطن الحوت، وقال له:

"يا يونس! إن هذه الأصوات هي صوت الأحياء الذاكرين لربهم في البحر."

وحتى في هذه الظروف الصعبة والضيقة فإن يونس ﵇ بذل غاية جهده كما في كل أوقاته لكي لا يقصر في ذكر الله تعالى وتسبيحه، فانشغل بالاستغفار والدعاء، ولدى اطلاع الملائكة على حال يونس ﵇ توجهوا إلى الله تعالى يشفعون له، وفي نهاية الأمر وبعد التسبيح والاستغفار الكثير من يونس ﵇، واعترافه بالذنب الذي اقترفه بقوله:

﴿... لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [٢٧٣]

غفر الله تعالى لنبيه المبارك، وعفا عنه، حيث يقول ﷿:

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٢٧٤]

---

٢٧٢ الأنبياء، ٨٧.

٢٧٣ الأنبياء، ٨٧.

٢٧٤ الأنبياء، ٨٨.

إن السبب الوحيد للعفو عن يونس عليه السلام هو كثرة تسبيحه، حيث يقول الله تبارك وتعالى:

﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ. لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [٢٧٥]

لقد نجا يونس عليه السلام من خلال ذكره لربه سبحانه وتعالى، وإدراكه خطأه، والتوكل على الله عز وجل. وقد أصبحت هذه الحالة وسيلة لنعمة ورحمة عظيمة بالنسبة ليونس عليه السلام.

ومن الأمور المهمة في هذا الشأن، أن يونس عليه السلام لم يصبر على مهلة الأربعين يوم من أجل هلاك قومه، إذ صبر مدة سبعة وثلاثين يوماً، ولم يصبر على الأيام الثلاثة الباقية. ومقابل ذلك فإن الله تعالى حبسه في بطن الحوت من أجل تعليمه الصبر، وهو تابع للامتحان الكبير الذي تعرض له يونس عليه السلام.

وفي نهاية الأمر، ترك ذلك الحوت الذي حمل يونس عليه السلام مثل أمانة في بطنه، تركه على الساحل. حيث يقول الله تعالى:

﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ. وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ﴾ [٢٧٦]

وعندما أخرج الحوت يونس عليه السلام من بطنه وتركه على الساحل، كان قد أصابه الضعف، والإغماء، والمرض وكان في أمس الحاجة إلى الحماية والعون، حيث كان جسده محاطاً بغشاء هلامي، وقد

---

٢٧٥ الصافات، ١٤٣- ١٤٤.

٢٧٦ الصافات، ١٤٥- ١٤٦.

أصبح الجو يزداد حرارة، ولكي يحميه الله تعالى من حرارة الشمس المحرقة أنبت عليه نبتة ذات أوراق واسعة وكثيفة، ولم يكن في ظل هذه النبتة أية حشرات أو ذباب. ومن جهة أخرى فقد قطَر الله تعالى الحليب من هذه النبتة على يونس عليه السلام.

وعندما استجمع يونس عليه السلام نفسه، واستعاد قواه، توجه إلى نينوى. ولدى وصوله إلى مقربة من المدينة صادف راعياً في طريقه، فسأله عن حال القوم، فقصّ عليه الراعي كل ما جرى لهم من أحداث، وأخبره بأن قومه قد آمنوا بالله تعالى، وتابوا مما كانوا فيه من الذنوب والمعاصي، وهكذا فإن الله تبارك وتعالى قد عفا عنهم وغفر لهم، وقال له بأن الجميع في انتظار عودة نبي الله يونس عليه السلام من أجل تعليمهم الأوامر الإلهية.

ولما وصل خبر عودة يونس عليه السلام إلى قومه توجهوا إليه من فورهم وجاؤوا إليه. وفي هذه الأثناء كان يونس عليه السلام في الصلاة. وبعد انتهائه من الصلاة احتضنه القوم بحسرة وشوق معتذرين إليه عما بدر منهم تجاهه. فأبدى لهم يونس عليه السلام العفو والمسامحة، ومن ثم علمهم أوامر الله تبارك وتعالى ونواهيه، وبعد كل ما جرى تحولت حالة قومه إلى طاعة الله تعالى ونبيه عليه السلام، وعاشوا حياة مليئة بالسعادة والخيرات.

حيث يقول الله عز وجل: ﴿**فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ**﴾[277]

---

٢٧٧ الصافات، ١٤٨.

يتطلب من أصحاب دعوى الحق التحرك والعمل بكل صبر، وأناة، وعزيمة. ولأن يونس ﵇ قد أصابه سأمٌ كبير من قومه وفارقهم من شدة ما عاناه من الآلام دون انتظار نزول الوحي الإلهي عليه، فقد اُعتبر متعجلاً في أمره وفاقداً للصبر، فعلى الرغم من أنه كان في ظروف شديدة وصعبة للغاية، إلا أن هذا التصرف عُدّ بمثابة زلة في حقه.

وأما نبينا ﷺ فقد تحمل كل ما لاقاه على أيدي مشركي مكة من الظلم، والأذى، والجفاء، وظل صابراً محتسباً، ومنتظراً حتى مجيء الأمر الإلهي بالهجرة إلى المدينة المنورة. وفي نفس الوقت فقد أذن الله تعالى لنبيه عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم بالهجرة، هذا الإذن الذي جاء في ماهية دعاء في القرآن الكريم:

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ [٢٧٨]

ويذكر الله تعالى قصة يونس ﵇ وسبب تركه لقومه دون إذن منه، يذكرها لنبينا ﷺ من أجل حثّه على الصبر على الشدائد والمصاعب التي تواجهه في أداء مهمة الرسالة، حيث يقول الله ﷻ في هذا الشأن:

---

٢٧٨ الإسراء، ٨٠.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ. لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ. فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [٢٧٩]

فلأن يونس عليه السلام كان من الذاكرين لله كثيراً، فقد أظهر أنه أهل للخلاص من البقاء في بطن الحوت حتى يوم القيامة، وإخراجه منه من جديد. ولهذا السبب فقد جاء في الآية الكريمة:

﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [٢٨٠]

إن الآية / ٤٩ / من سورة القلم متعلقة بحال يونس عليه السلام بعد استحقاقه الإخراج من بطن الحوت. وحسب المعنى الذي يُفهم من هذه الآية الكريمة، هو أنه لو لم يقبل الله تعالى توبة يونس عليه السلام، ولو لم يرد الوحي إليه من جديد وإرساله إلى قومه من أجل القيام بمهمة التبليغ، لكان قطعاً ترَكَه في ذلك المكان المعزول، وفي حالةٍ لا تروق له أبداً. ولكن قبول توبته أصبح مظهراً للعفو عنه ووصل إلى الخلاص والنجاة، وعندما تم إخراج يونس عليه السلام من بطن الحوت إلى مكان مقفر خالٍ من النباتات والأبنية، لم يكن يونس عليه السلام في حالة سيئة، ومذمومة. فكما يفهم ويستنتج من سورة الصافات، فهو على الرغم من وقوعه في حالة ضعف مادية، إلا

٢٧٩ القلم، ٤٨ – ٥٠.

٢٨٠ الصافات، ١٤٥.

أنه نال اللطف الإلهي واستعاد عافيته وشفاءه خلال مدة قصيرة، وأعيدت إليه صحته. وذلك لأنه نال عفو ورحمة ربه ﷻ، وكان نبياً صالحاً مُختاراً من الله سبحانه وتعالى.

العبر المستنتجة من قصة يونس عليه السلام:

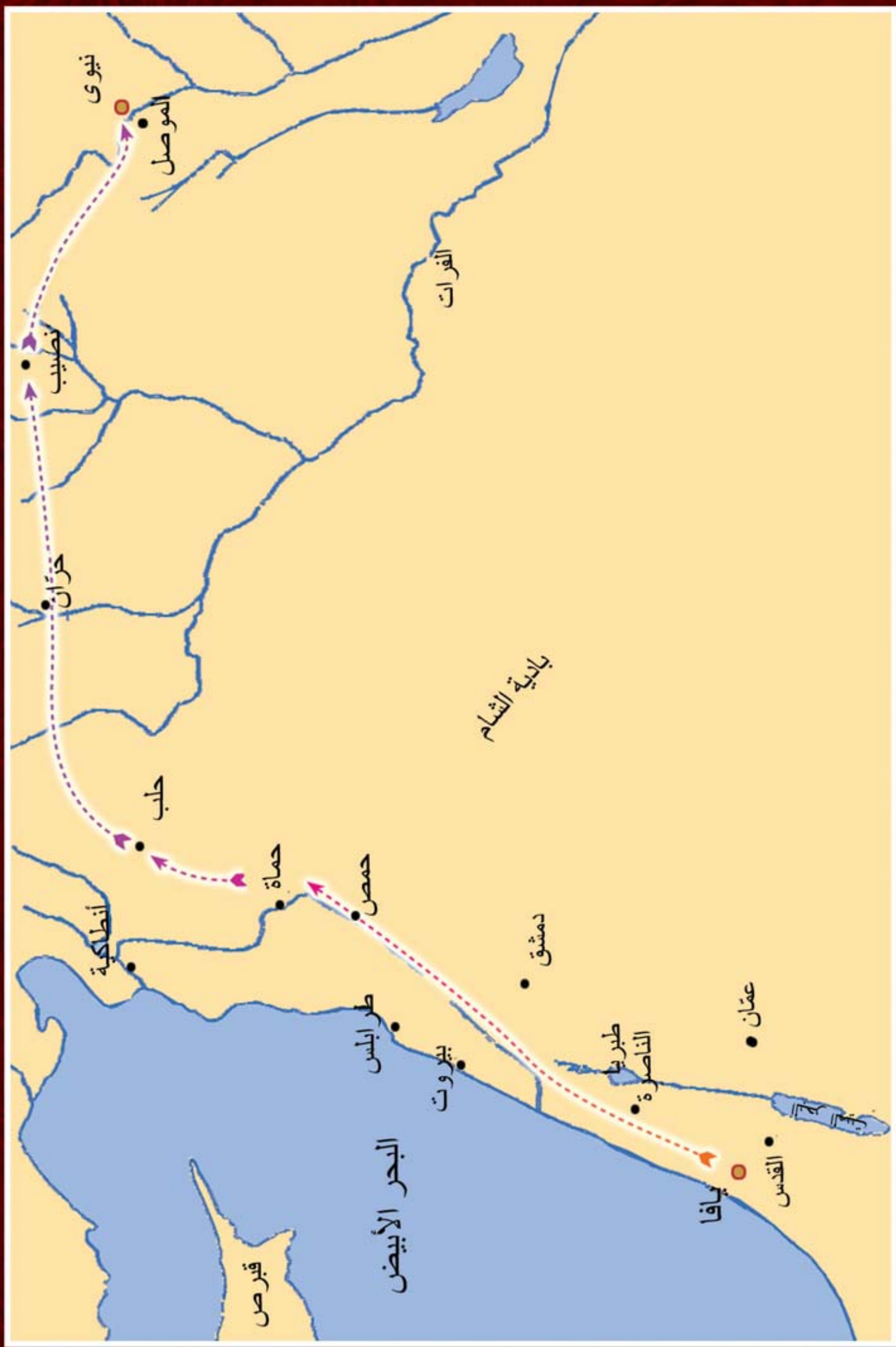
١. الدقة، والثبات، والصبر في التبليغ.
٢. أهمية الذكر والاستغفار.
٣. قبول التوبة المترافقة مع الإخلاص
٤. قبول التوبة في سكرات الموت ميزة خاصة بقوم يونس عليه السلام.

ولكن حالة السكرات هذه لم تكن حالة تامّة لسكرات الموت، وذلك لأنه عندما تاب قوم يونس عليه السلام لم يكن العذاب قد حلّ بهم بعد، وإنما بدت أمارات العذاب فقط، ولمعرفتهم بأن يونس عليه السلام لم يكذب من قبل أبداً، أدركوا بأن العذاب الذي وُعدوا به محققٌ لا محالة، فأسرعوا من فورهم إلى التوبة، بينما حالة الهلاك التي حلّت بالأقوام الأخرى لم تكن مشابهة لهذه، فمثلاً، إيمان فرعون كان بعد تحقق العذاب والموت، ولذلك لم يقبل منه لأنه كان في حالة يأس تام.ويقول النبي ﷺ عن فضل يونس عليه السلام بعبارة تتضمن منتهى تواضعه، حيث قال:

"لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى" [٢٨١]

٢٨١ البخاري، الأنبياء، ٣٥/ ٣٣٩٥؛ مسلم، الفضائل، ١٦٦.

سيدنا يونس عليه السلام




سيدنا إلياس
عليه السلام

سيدنا إلياس عليه السلام
الذي ترك مجداً رفيعاً،
حتى قيل من بعده "سلام على إلياس"

هو من نسل هارون عليه السلام، ومن الأنبياء الذين أُرسلوا إلى بني إسرائيل، يقول الله تعالى:

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [٢٨٢]

عندما استولى بنو إسرائيل على فلسطين سكنت إحدى قبائلهم في بعلبك. وكان يحكمها ملك ظالم، وحسب الروايات فإن اسم المدينة كان في السابق "بك"، إلا أن ذلك الحاكم الظالم أمر بصنع صنم باسم "بعل" وأجبر الناس على عبادة هذا الصنم، وبعد ذلك مُزج الاسمان ببعضهما، وصار الناس يطلقون عليها اسم "بعلبك" [٢٨٣]

وها هو ذا إلياس عليه السلام أُرسل إلى المدينة نبياً لكي يدعو الناس الذين ابتعدوا عن التوحيد ووقعوا في الشرك، يدعوهم إلى الحق.

٢٨٢ الصافات، ١٢٣.

٢٨٣ حالياً يُطلق على هذه المدينة اسم " بعلبك ".

وقد كان الصنم الذي يعبده الناس يبلغ طوله عشرة أمتار تقريباً ومصنوعاً من الذهب.

فكان إلياس عليه السلام يقول لهم:

"دعوا عبادة صنم بعلبك! وآمنوا بالله تعالى خالق كل شيء واعبدوه وحده!"

حيث يقول الله تبارك وتعالى:

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ. أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ. اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [٢٨٤]

إلا أن بني إسرائيل لم يصغوا لنصائح إلياس عليه السلام، وأخرجوه من البلدة التي يقطنونها، ولذلك فقد حلت برؤوسهم مختلف أنواع المصائب والبلايا، وفي نهاية الأمر أدركوا الحقيقة فبحثوا عن إلياس عليه السلام ووجدوه، فآمنوا به ونجوا وتخلصوا من كل الشدائد التي أصابتهم.

ولكن لأنهم قوم متقلبون، لم يثبتوا على دينهم وانحرفوا إلى العصيان من جديد، وفارقوا السبيل القويم، وعلى الرغم من الجهود التي بذلها إلياس عليه السلام في نصحهم وإرشادهم إلا أنهم لم يلقوا إليه بأسماعهم. وأمام هذا الكفر والعناد فارق إلياس عليه السلام القوم وخرج

٢٨٤ الصافات، ١٢٤- ١٢٦.

من بينهم بناءً على أمر إلهي. فدمّر وتفرق جميعهم، وأصبحوا عرضة للعقاب والعذاب في الدنيا والآخرة.

حيث يقول الله عزّ وجلّ في كتابه العزيز:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ. إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [285]

وبعد أن غادر إلياس عليه السلام مدينة بعلبك مرّ بقرية، ودعا الناس هناك إلى الإيمان، فقبل أهل تلك القرية الدعوة الإلهية وطلبوا منه الإقامة بينهم في القرية. فنزل إلياس عليه السلام ضيفاً في بيت امرأة مسنّة، وكان لدى تلك المرأة ابن مريض، فصلى إلياس عليه السلام ركعتين ودعا الله تعالى من أجل شفاء الولد، فبرئ الولد من مرضه، وأصبح مرافقاً لإلياس عليه السلام منذ ذلك الوقت ولم يفارقه أبداً، وتعلم منه التوراة، وكان اسمه اليسع.

والخلاصة، فإن إلياس عليه السلام قد انتقل إلى الرفيق الأعلى بعد أن خلّف "صدىً جميلاً في السماء (ذكراً طيباً)". وأصبح مظهراً للطف والالتفات الإلهي، فيقول الله في حقه في القرآن الكريم:

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ. سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ. إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [286]

---

٢٨٥ الصافات، ١٢٧-١٢٨.

٢٨٦ الصافات، ١٢٩- ١٣٢.

يروى أن إلياس عليه السلام لما أبصر ملك الموت عزرائيل عليه السلام ارتجف وسط دهشة شديدة، تعجب عزرائيل عليه السلام من هذا الأمر وأخذه الفضول لمعرفة السبب، فسأله:

– يا نبي الله! هل خفت من الموت؟

فأجاب إلياس عليه السلام:

– لا! ليس هذا بسبب خوفي من الموت، وإنما أنا في هذه الحالة لأني سوف أودع الحياة الدنيا...

وتابع حديثه قائلاً:

إني أبذل جهدي في الحياة الدنيا لأداء واجب العبودية لله تعالى، والعمل على القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأحاول تمضية أوقاتي بالعبادات والأعمال الصالحة، والعيش وفق الأخلاق الحسنة.

وإن هذه الحالة تصبح مصدر طمأنينتي وسكينتي، ويمتلئ قلبي بالسرور والنشوة الروحية الرائعة، وإذا متّ فإني لن أعيش هذه اللذات والمتع الروحية، ولسوف أبقى رهين القبر إلى يوم القيامة، فلهذا تراني حزيناً!

عليه السلام!..

أدعو الله العلي القدير أن نمضي حياتنا الدنيوية على الصلاح والاستقامة، وأن يجعلنا من العباد المقربين إليه، وأن يبعدنا عن الانخداع بملذات الدنيا الفانية، ويجعل سعادة العقبى من نصيبنا أجمعين!..

آمين!



البحر الأبيض
بعلبك
بيروت
دمشق
حيفا
طبريا
بصرى
الاسكندرية
القدس
عمّان
يروسبو
معان
إيلات
نهر النيل
مصر
سيناء


سيدنا أليسع
عليه السلام

سيدنا أليسع عليه السلام
الذي فُضِّل على العالمين

هو من أنبياء بني إسرائيل، وقع في صغره فريسة مرض شديد، وشفي منه ببركة دعاء إلياس عليه السلام له. ومنذ ذلك الحين لازم إلياس عليه السلام ولم يفارقه، وتعلم على يديه التوراة.

وحاول أليسع عليه السلام إصلاح بني إسرائيل الذين اشتهروا بالتقلب والعنف، وبذل في سبيل ذلك جهوداً كبيرة. فأحياناً كانوا يتبعونه وما يدعوهم إليه، وتارة ينقلبون عليه ويعارضونه في دعواه.

وقد ورد ذكر أليسع عليه السلام في القرآن الكريم من خلال آيتين، حيث يقول الله تعالى:

﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ [٢٨٧]

وإن كلمة "اذكر" التي وردت في الآية الكريمة بحق الأنبياء تتضمن دعوة إلى التفكر في الجهود الجبارة التي بذلها الأنبياء، والتضحيات الكبيرة التي قدموها، والتحلي بالثبات والصبر المنقطع النظير في سبيل نشر دين الله الحق.

---

٢٨٧ ص، ٤٨.

وأما الآية الثانية التي وردت في القرآن الكريم والمتعلقة بالنبي أليسع عليه السلام فهي:

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[٢٨٨]

لقد بدأت خلال فترة نبوته منافسة بين قبائل قومه على تولي رئاسة الدولة واستلام زمام الحكم والإدارة في البلاد، فوقع بينهم الخلاف على الأمر ولم يسمعوا لنصيحة أليسع عليه السلام، وحصلت بينهم فتن، وصراعات، ومشاحنات لا نهاية لها. ومن أجل ذلك فقد سلط الله عز وجل عليهم دولة الآشوريين. وفي النتيجة، ابتعدوا عن الرحمة بسبب الأعمال السيئة التي اقترفوها وهُزموا أمام الآشوريين، فتشردوا في البلاد وأصابهم الذل والهوان.

يقول السيد محي الدين محمد نيشانجي زاده في كتابه "ميراث الكائنات" حول معجزات النبي اليسع عليه السلام:

"لقد أصابت المرارة مياه شرب شعب مدينة أريحا. فاتجهوا على الفور إلى النبي أليسع عليه السلام، وطلبوا منه العون والمساعدة. وقد ألقى أليسع عليه السلام في تلك المياه التي أصابتها المرارة بعض الملح، وقال : "صيري عذبة" فانقلبت المياه بإذن الله تعالى إلى حالة من اللذة والعذوبة أكثر من ذي قبل."

٢٨٨ الأنعام، ٨٦.

ويروى أن امرأة أرملة وعليها دين جاءت إلى أليسع عليه السلام، وعرضت عليه فقرها وبؤسها، فسألها اليسع عليه السلام:

- ماذا يوجد في بيتك؟

قالت المرأة:

- يوجد قليل من الزيت!

فقال لها أليسع عليه السلام:

- اذهبي إلى بيتك، وضعي ذلك الزيت في وعاء!

ولما ذهبت المرأة إلى بيتها وفعلت ما أمرها به اليسع عليه السلام، وجدت أن كل أوعيتها وأوانيها قد امتلأت بالزيت، فأدت كل ما عليها من الديون بفضل هذه المعجزة الربانية، ولم ينفد الزيت من بين يديها.

ولما دنا الأجل من اليسع عليه السلام نادى ذا الكفل، وعيّنه خلفاً له من بعده بناءً على أمر الله سبحانه وتعالى.

عليه السلام!..



سيدنا ذو الكفل عليه السلام

سيدنا ذو الكفل عليه السلام

النبي الصالح الذي تغمده الله تعالى برحمته

هو من أنبياء بني إسرائيل، وهو ابن عم أليسع عليه السلام.

وحسب الروايات، فإن اسمه "بشر" وأما ذو الكفل فهو لقبه، وقد أُطلق عليه هذا اللقب لأنه تكفل بتعليم بني إسرائيل أمور دينهم من بعد اليسع عليه السلام، بالإضافة إلى أنه قام بأعمال الأنبياء الذين كانوا في عصره فنال بذلك ثواباً وحسنات مضاعفة، فأطلق عليه هذا اللقب تكريماً له. حيث أن معنى "ذو" في اللغة العربية هو صاحب، والكفل يأتي من الكفالة والكفيل، ويأتي بمعاني مثل النصيب، والثروة، والمضاعف. ولا يقصد بهذا اللقب الغنى والثروة الدنيوية، وإنما يقصد به التميز بخصائص الفضل الشخصية والدرجات العالية في الآخرة. وهناك رواية عن ابن عباس رضي الله عنه:

"أن الله تعالى أعطى نبياً من بني إسرائيل إلى جانب النبوة ملكاً وحكماً عظيماً، ولما دنا الأجل من هذا النبي، أُعلم بقبض روحه عن طريق الوحي، وقيل له:

"استخلف في الحكم واحداً من بني إسرائيل يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يغضب!"

فأعلم هذا النبي بني إسرائيل بالأمر الذي جاءه، فقام من بينهم فتى وقال:

– أنا أتكفل بهذا الأمر! وأتحمّل هذه المهمة!

فقال النبي لذلك الفتى:

– بين القوم من هو أكبر منك؛ فاجلس أنت!

وبعدها، أعاد عرضه على القوم مرة ثانية، فقال ذلك الفتى:

– "أنا أتكفل بالأمر". وعندما أعاد العرض للمرة الثالثة سكت الناس، وقام ذلك الفتى من جديدٍ فكرر قوله. فاستخلف النبي ذلك الفتى كفيلاً من بعده، وأسند إليه ملكه، وكان هذا الفتى هو بشر."

أصاب الشيطان حسد شديد من الفتى، ولجأ إلى حيل وأساليب شتى للحيلولة دون قيام الفتى بالمهمة التي حملها على عاتقه، ولكنه لم يستجب لوساوس الشيطان ولم يلتفت إليها، وأدى الأمانة التي تحمّلها بكل إخلاص وجدارة، وكان جهده وحماسه على أكمل وجه، ولهذا السبب لُقب بـ "ذو الكفل."

ويوجد في القرآن الكريم آيتان تتناولان النبي ذا الكفل عليه السلام:

﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ [289]

289 ص، ٤٨.

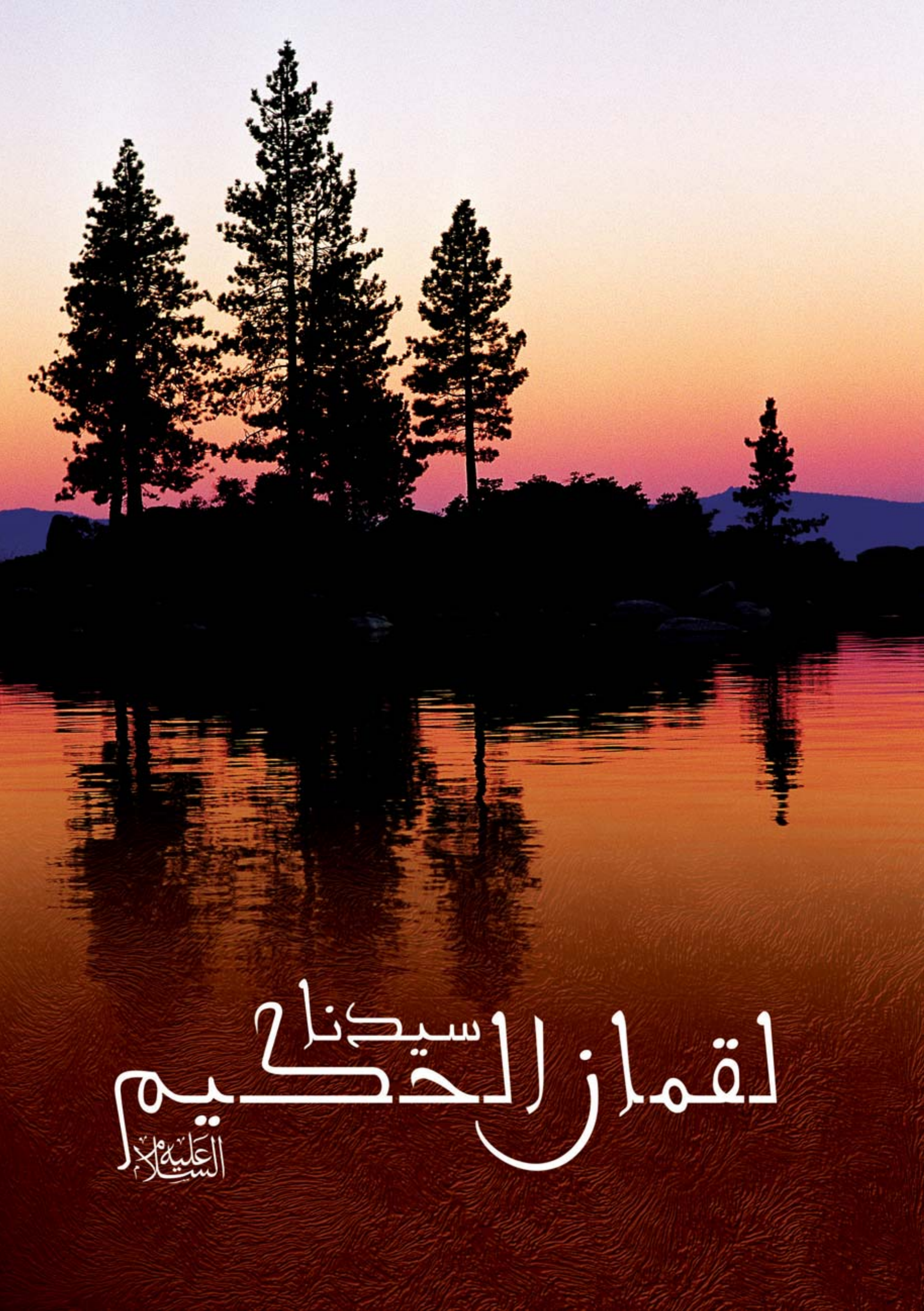
﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ. وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [٢٩٠]

وعمل ذو الكفل عليه السلام بشريعة موسى عليه السلام، وعلّم الناس الأوامر والنواهي التي في التوراة.

وقد روي أنه وافته المنية في بلدةٍ بالشام.

عليه السلام!..

٢٩٠ الأنبياء، ٨٥- ٨٦.


سيدنا
لقمان الحكيم
عليه السلام

سيدنا لقمان الحكيم عليه السلام
شيخ حكماء الظاهر والباطن
الذي أصبح أسطورة بنصائحه الحكيمة

لقمان عليه السلام إما نبي أو ولي صالح، وهو شيخ الحكماء.

وقد ذكر القرآن الكريم في "سورة لقمان" التي حملت اسمه، بأنه واحد من الذين أوتوا حكمة كبيرة، حيث يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[٢٩١]

الشكر هو، فرح العبد بالنعم التي تسبغ عليه، وإظهار الامتنان بمختلف الأقوال والأفعال تجاه ربه سبحانه وتعالى، والشكر اسم لمعرفة النعمة، ولهذا المعنى فقد أطلق اسم "الشكر" على الإسلام والإيمان أيضاً.

❀ ❀ ❀

الروايات التي وردت حول نسب لقمان الحكيم تفيد بأنه من أقرباء النبي أيوب عليه السلام، ويذكر بأنه ابن أخته أو ابن خالته[٢٩٢]. ويرى جمهور علماء المسلمين بأن لقمان الحكيم ليس بنبي، وإنما رجل

---

٢٩١ لقمان، ١٢.

٢٩٢ انظر في كتاب العرائس للثعالبي، ص. ٣٩١.

صالح أوتي حكمة عظيمة، ومن أحد معاني الحكمة أنها ملَكة تعين صاحبها على الصواب في القول والفعل من خلال الكمال الروحي الذي يتم اكتسابه بعد الإحاطة بالعلوم النظرية. حيث يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [٢٩٣]

الحكمة تمكّن الإنسان من إدراك حقائق الأشياء وأسرارها، ويمكن تحقيق هذا الأمر بتجلي النور الإلهي في القلب.

وينقل لنا الزمخشري الحادثة الآتية كمثالٍ على حكمة لقمان عليه السلام:

ذات يوم طلب داوود عليه السلام من لقمان الحكيم أن يذبح خروفاً، ويأتيه بأفضل عضوين من جسمه، فذبح لقمان الحكيم الخروف وجاءه بلسانه وقلبه، وبعد مضي أيام على هذا الأمر، طلب داوود عليه السلام من لقمان الحكيم أن يأتيه هذه المرة بقطعتين من أسوأ الأعضاء في الخروف، فجاءه لقمان الحكيم بلسانه وقلبه مرة أخرى، ولما سأله داوود عليه السلام عن سبب ذلك، قال لقمان الحكيم:

- إذا صلح هذان العضوان فلا أفضل منهما، وإذا فسدا فلا أسوأ منهما!. [٢٩٤]

---

٢٩٣ البقرة، ٢٦٩.

٢٩٤ الزمخشري، الكشاف، ٥، ١٨.

وفي الحديث الشريف الذي يرويه عبد الله بن عمر ﵄ يقول:

"لم يكن لقمان نبياً ولكن كان عبداً كثير التفكر حسن اليقين، أحب الله تعالى فأحبه، فمّن عليه بالحكمة." [٢٩٥]

ويقول الإمام مالك رحمه الله تعالى:

"أنه بلغه أنه قيل للقمان: ما بلغ بك ما نرى (يريدون الفضل)؟

فقال لقمان الحكيم:

"صدق الحديث وأداء الأمانة وترك ما لا يعنيني." [٢٩٦]

❁ ❁ ❁

ويعلمنا القرآن الكريم بالحكم والنصائح التي كان يقدمها لقمان الحكيم لابنه، حيث يقول الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [٢٩٧]

وفي الحقيقة فإن الشرك الذي هو ظلمٌ كبير يورد العبد إلى نار جهنم خالداً فيها أبداً.

ويتابع لقمان الحكيم نصائحه لابنه، إذ يقول:

---

٢٩٥ القرطبي، التفسير، ١٤، ٥٩- ٦٠.

٢٩٦ موطأ الإمام مالك، الكلام، ١٧.

٢٩٧ لقمان، ١٣.

﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [٢٩٨]

ويقول الله تعالى في آية كريمة مشابهة أخرى:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [٢٩٩]

ويقول لقمان الحكيم في متابعة نصائحه:

﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [٣٠٠]

إن ما يلفت الانتباه في الآية الكريمة هو التركيز على الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر.

فالصلاة، هي معراج المؤمن، ومن أهم وظائف العبد في هذه الدنيا. ولا يجوز تركها حتى خلال أشد المعارك مع الأعداء. وإن الله تعالى يبشر الساجدين لوجهه الكريم في قوله:

﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [٣٠١]

---

٢٩٨ لقمان، ١٦.

٢٩٩ الزلزلة، ٧– ٨.

٣٠٠ لقمان، ١٧.

٣٠١ الفتح، ٢٩.

ويقول في آية أخرى: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [٣٠٢]

وتقول أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها:

"كان رسول الله ﷺ إذا قام يصلي سمع فى صدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء فإذا نودي للصلاة خرج وكأنه لا يعرف منا أحداً." [٣٠٣]

وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أيضاً من أهم وظائف المؤمن في الحياة، إن إيصال المؤمن لكل النعم التي أحسن الله تعالى بها عليه ـ وعلى رأسها نعمة الإيمان والهداية ـ إلى غيره يُعتبر نوعاً من أداء وظيفة الشكر التي في عاتقه لله تعالى، وقد بين الله عز وجل هذا المنهج التبليغي في شخص النبي ﷺ، حيث يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [٣٠٤]

ويبين الله تعالى منهج التبليغ في آية كريمة أخرى:

---

٣٠٢ العلق، ١٩.

٣٠٣ أبو داود، الصلاة، ١٥٧؛ النسائي، السهو، ١٨.

٣٠٤ آل عمران، ١٥٩.

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾ [٣٠٥]

وأما الصبر فهو الآخر يحتل المراتب الأولى من بين المواضيع المهمة التي تناولها القرآن الكريم، فالجانب الدنيوي للصبر مؤلم وفيه مرارة كبيرة، أما الجانب الأخروي منه أي المكافأة التي ينالها الصابر يوم القيامة ففيها من اللذة والحلاوة الشيء الكثير، وكل الأنبياء والرسل قد مرّوا من غربال الصبر، حيث يقول الله تعالى:

﴿... وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [٣٠٦]

ويقول عبد الله بن مغفل ﵁: "قال رجل للنبي ﷺ: يا رسول الله والله إني لأحبك. فقال له: «**انظر ماذا تقول**»، قال: والله إني لأحبك، ثلاث مرات، فقال: «**إن كنت تحبني فأعد للفقر تجفافا، فإن الفقر أسرع إلى من يحبني من السيل إلى منتهاه**»" [٣٠٧]

وكأن الرسول الأكرم ﷺ يريد بحديثه هذا القول:

"ما دمت تحبني لوجه الله، إذاً، فحضّر نفسك لتحمل البلايا، والمصائب، والشدائد وارض بها! لأن من شروط المحبة اتباع المحبوب!..

❀ ❀ ❀

٣٠٥ النحل، ١٢٥.

٣٠٦ البقرة، ١٥٥.

٣٠٧ الترمذي، الزهد، ٣٦/ ٢٣٥٠.

ويتابع لقمان الحكيم نصائحه كما جاء في القرآن الكريم:

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [٣٠٨]

إن التفاخر أو الغرور، والكبر، والعجب هي خصال تمتد جذورها في جهنم، فصفة الكبرياء محصورة بالحق سبحانه وتعالى، حيث أن سبب طرد إبليس من الجنة وتحوله إلى العمل على دفع عباده في الضلالات والانحرافات هو شعوره بالغرور تجاه آدم عليه السلام، ومن ثم خروجه عن طاعة ربه، وكذلك قارون فقد هلك بسبب غيرته وحسده لهارون عليه السلام، على الرغم من أنه قد أوتي الكثير من العلوم المعنوية.

وقال لقمان الحكيم لابنه أيضاً:

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [٣٠٩]

إن هذه الآية الكريمة تعلّم المؤمنين الأدب واللطف والرقة، فصوت الحمار الذي يمثل انعدام الرقة يبدأ حاداً ثم يميل إلى الخفوت والاضمحلال. إن هذا الصوت الذي يصدر في غير

---

٣٠٨ لقمان، ١٨.

٣٠٩ لقمان، ١٩.

مكانه المناسب وبصورة مرتفعة للغاية لصوت منكر وشنيع، وإن هذا الأسلوب في الخطاب لا يلائم قواعد الرقة والأدب. إن الله تعالى في هذه الآية الكريمة يدعو عباده إلى التخاطب بشكل رقيق ومؤدب، أي أن رفع الصوت عالياً في غير مكانه اللازم أشبه بصوت الحمار وبالتالي يُعد مستهجناً وقبيحاً.

يقول حسن البصري رحمه الله تعالى:

"كان المشركون يتفاخرون بإعلاء أصواتهم، فأجابهم الله ﷻ: (لو كان إعلاء أصواتكم خيراً، لجعلت بذلك الحمير أعلى منهم شأناً!)."

لقد ورد في الروايات ما يفيد أن التأدب والرقة التي قد تبدو في الدنيا غير ذات أهمية أو أموراً بسيطة، تكسب أهمية كبيرة يوم الحساب، ولذلك ينبغي الحرص والحذر من التفوه بالكلام غير المسؤول، والانتباه إلى معاني الكلمات التي ننطق بها، حيث يقول النبي ﷺ في الحديث الشريف:

"إن العبد ليتكلم بالكلمة، ما يتبين فيها، يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق" [310]

ويقول أيضاً عليه الصلاة والسلام:

---

٣١٠ البخاري، الرقاق، ٢٣/ ٦٤٧٧.

"إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه." [٣١١]

إن من بين الآيات الآنفة الذكر والتي تضمنت نصائح لقمان الحكيم، آيتان كريمتان مهمتان للأمة من ناحية ما تضمنتا من مواضيع الاستقامة. ووفق الرواية، فإنها قد نزلت في حق سعد بن وقاص ﵁ ووالدته. حيث أن سعد بن وقاص ﵁ كان باراً بوالدته ومطيعاً لها، ولما دخل سعد الإسلام قالت له أمه:

" ماذا فعلت يا سعد؟ إذا لم تدع دينك الجديد هذا، أقسم أني لن آكل، ولن أشرب حتى أموت. وليقال عنك بسبب ذلك "قاتل أمه"!

أما هو فقال:

لا تفعلي ذلك يا أماه، فإني لن أترك هذا الدين! ولما قال لها ذلك، مكثت أمه يومين وليلتين لا تأكل فيهما شيئاً، حتى انهارت قواها. وعندما رأى سعد هذا قال لها:

يا أماه! اِعلمي لو أن لك مائة روح، وخرجت منك واحدة تلو الأخرى على أن أترك هذا الدين، ما تركته! فإن شئت كلي، وإن شئت فلا تأكلي!

---

٣١١ الترمذي، الزهد، ١٢/ ٢٣١٩؛ ابن ماجه، الفتن، ١٢.

عندئذ بدأت أمه بتناول الطعام ونزلت الآيتان الكريمتان:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ. وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [٣١٣] ". [٣١٢]

❀ ❀ ❀

يروي أبو أمامة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

"إن لقمان قال لابنه: يا بني عليك بمجالسة العلماء، واسمع كلام الحكماء، فإن الله يحيي القلب الميت بنور الحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل المطر"[٣١٤]

ويقول لقمان الحكيم في إحدى نصائحه ووصاياه:

"يا بني إني خدمت أنبياءً كثيرين، وأخذت من كلامهم أربع كلمات وهي:

---

٣١٢ لقمان، ١٤– ١٥

٣١٣ مسلم، فضائل الصحابة، ٤٣– ٤٤؛ ابن الأثير، أسد الغابة، جـ ٢، ص. ٣٦٨.

٣١٤ الهيثمي، مجمع الزوائد، ١، ١٢٥.

١. إذا كنت في الصلاة فاحفظ قلبك.

٢. وإذا كنت على المائدة فاحفظ بطنك .

٣. وإذا كنت في بيت الغير فاحفظ بصرك .

٤. وإذا كنت بين الخلق فاحفظ لسانك.

"يا بني اخترت من كلمات الحكمة أربع كلمات اذكر اثنتين وانس اثنتين،

أما اللتين تذكرهما: فالله سبحانه وتعالى ، والموت!

وأما اللتين تنساهما فإحسانك في حق الغير، وإساءة الغير في حقك!

❀ ❀ ❀

وهذه بعض الوصايا والحكم التي نقلت في الكتب المعتبرة عن لقمان الحكيم:

- "يا بني! اجعل التقوى رأسمال آخرتك، لأن التقوى من أربح التجارات."
- "يا بني! احضر الجنائز، ولا تحضر العرس، فإن الجنائز تذكرك الآخرة، والعرس يشهيك الدنيا."
- "يا بني! إياك والكذب وسوء الخلق، فإن من كذب ذهب ماء وجهه، ومن ساء خلقه كثر غمه."

- "يا بني ! نقل الصخور من مواضعها أيسر من إفهام من لا يفهم."
- "يا بني! لا ترسل رسولك جاهلاً، فإن لم يكن حكيماً فكن رسول نفسك."
- "يا بني! الدنيا بحر عميق، وقد هلك فيها عالم كثير، فاجعل سفينتك فيها الإيمان بالله ﷻ، واجعل شراعها التوكل على الله، واجعل زادك فيها تقوى الله ﷻ، فإن نجوت فبرحمة الله وإن هلكت فبذنوبك."
- "يا بني! لا تكن أعجز من هذا الديك الذى يصيح بالأسحار وأنت نائم على فراشك."
- "يا بني! إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة."
- "يا بني! اختر صديقاً، إذا فارقته لم يذكرك بسوء، وإن فارقك لم تذكره بسوء."
- "يا بني! احفظ أصحابك، وصل أرحامك."
- "يا بني! تُعرف ثلاثة أشياء عند ثلاثة: الحلم عند الغضب، والشجاعة عند المعركة، والصداقة عند الحاجة."
- "يا بني! كن موافقاً لأصحابك فيما خلا المعاصي!.."

- "يا بني! إذا أهمل الناس العبادات والطاعات كل يوم، فاعلم بأنهم لا يخشون من العذاب الموعود."
- "يا بني! خذ من الدنيا بقدر حاجتك، فلا تستسلم له فتضر آخرتك. ولا تنفض يدك من الدنيا بشكل تام فتصبح حملاً ثقيلاً على الناس. وعليك بالصيام فإنه يقطع الشهوة، ولكن لا تصم صياماً يمنعك من الصلاة! فإن الصلاة أعظم عند الله تعالى من الصيام..."
- "يا بني! أحسن إلى من يعرف الإحسان. فكما لا صداقة بين الذئب والخروف، فلا صداقة بين الإحسان والإساءة، ومن يحب الشجار يتعرض للمهانة؛ ومن يذهب إلى مواطن السوء، يعرّض نفسه للتهم؛ ومن يعمل السيئات، فلا يحمي نفسه من المعاصي، ولا يحفظ لسانه من قول السوء يقع في الندامة."
- "يا بني! كن عبداً للأخيار، ولا تكن خليلاً للأشرار."
- "يا بني! كن أميناً، تكن غنياً. ولا تنظر إلى من اتسخ قلبه بالذنوب، كنظرتك إلى من يخاف الله."
- "يا بني! لا تأمر الناس بالبر وتنسى نفسك! وإلا تكن كالشمعة التي تنير على من حولها، وتحرق نفسها!.."
- "يا بني! الأدب في الصغر، يفيد عند الكبر."
- "يا بني! لا تحقرنّ صغائر الأمور! لأن الصغير يكبر في الغد."

- "يا بني! لا تركن إلى الدنيا، ولا تشغل قلبك بهمومها وأحزانها. واحذر من الجشع. وارض بالقدر. واقنع بما أعطاك الله تعالى تحلو حياتك، ويمتلأ قلبك بالسعادة."
- "يا بني! إن الحياة الدنيا قصيرة، وعمرك فيها أقصر، وقد بقي جزء قليل من عمرك القصير."

❀ ❀ ❀

ويخبرنا النبي ﷺ عن لقمان الحكيم قوله:

"قال لقمان لابنه: إن الله ﷻ إذا استودع شيئا حفظه، وأنِ استودع الله نفسك ومالك وخواتيم أعمالك." [٣١٥]

ويروى أنه كانت توجد العبارة الآية على حجر خاتم لقمان الحكيم:

"الستر لما عاينت أحسن من إذاعة ما ظننت."

٣١٥ ابن حنبل، ٢، ٨٧.

الحمد والشكر:

يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [٣١٦]

إن من أحد أهم الأعمال التي يتطلبها واجب العبودية لله تعالى هو: الحمد والشكر. وإن صيغة وكيفية هذا العمل "الحمد والشكر" واردة وثابتة في القرآن الكريم، حيث يقول الله تعالى:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٣١٧]

فالحمد هو: المدح والثناء على عظمة الخالق سبحانه وتعالى وتجليات صفاته، وبديع الصنع الإلهي؛ وأما الشكر: فهو المدح الثناء على لطف الله تعالى، وكرمه، ونعمه التي لا تحصى باللسان، والعمل، والقلب. واللفظان قريبان من بعضهما من حيث المعنى.

إن "**الحمد والشكر**" من أعمق وأهم المسائل الدينية في حياة الإنسان، وهذه الأهمية تأتي من كون الإنسان يُعد من "أشرف

---

٣١٦ لقمان، ١٢.

٣١٧ الفاتحة، ٢.

المخلوقات" على وجه الأرض، حيث جعله الله تعالى يتربع على قمة الكائنات التي خلقها بصورة متسلسلة تدريجية من أبسط الأنواع إلى أتمها وأعقدها.

وإن الإنسان الذي يحافظ على عزته وأصالته التي جبل عليها بفطرته يوم خلقه الله تعالى، إن هذا الإنسان يشعر وجدانياً بأنه مدين بالشكر حتى إلى من يقدم له كأساً من الماء. فإن كان الحال كذلك، فكيف ينبغي أن يكون موقف الإنسان تجاه ربه سبحانه وتعالى الذي هو مصدر كل النعم التي يتمتع بها ومنبع المكرمات التي يتقلب فيها؟ لعمري، إن مقابلة هذا الربّ بالإعراض والتجاهل أمرٌ لا يقر به عقل، ولا يقبله ضمير ووجدان. إن هذه الحالة، لا بد أن تكون تعبيراً واضحاً عن ضحالة التفكير، وبلادة في المشاعر.

إن هذا الكون الذي تم تزيينه بكل طبقاته على درجة عالية من العناية والدقة كغرفة العروس لمتعة الإنسان وإدراكه، والذي تم ترتيب وتنظيم كل موجوداته بحسب طبيعتها وأشكالها بشكل عجيب، وذلك من المجرات، والذرات والخلايا، و آلاف الأنواع والأصناف من الفاكهة والزهور المختلفة في الرائحة والمذاق، وكذلك مختلف الحيوانات الأهلية منها والوحشية والتي تقدم مظاهر لا حد لها للقدرة الإلهية، وكل ذلك من أجل أن يتمكن هذا الإنسان الكامل الذي يمثل بديع خلق وصنع الله تعالى، يتمكن من الوفاء بوظيفة العبودية بالشكل الأمثل.

المؤمن هو، ذلك الشخص الفاضل الذي يبذل غاية جهده من أجل أن يحيا حياته ضمن مشاعر من العبودية، والوجدان، والعقل.

ولا ينبغي للذين يريدون أن يكونوا عباداً شاكرين بالصورة الأمثل، الاكتفاء فقط بالتعرف على مختلف النعم. وإنما من الضروري بعد التعرف على المنعم الحقيقي، القيام باستعمال هذه النعم في الوظائف والمجالات التي يوجبها عليهم. لأن إضافة النعمة إلى المنعم بهذه الصورة لها تأثير فياض في مجال إنماء مشاعر المحبة والمعرفة في القلوب التي تجذب الإنسان إلى ربه ﷻ.

ومما لا شك فيه أنه لا يوجد في الكائنات حتى ذرة واحدة لا تلهج بحمد الله وتسبيحه. فحتى الحيوانات تعرف التسبيح والتضرع إلى الله تعالى. ويطلق على التسبيحات التي تقوم بها المخلوقات جميعها ما عدا الإنسان اسم "التسبيح التسخيري". ويعاين هذه التسبيحات أهل القلوب فقط. وأما الإنسان باعتباره المخلوق الوحيد المتكامل في سلسلة كل الموجودات فحالته تستدعي أن يكون "حمده وتسبيحه" ملائماً لهذا الكمال الذي متعه الله به.

وفي الحقيقة، إن غفلتنا عن الشكر تَقلب كل هذه النعم التي بين أيدينا إلى عبء ثقيل على كاهلنا. وتصبح هذه الترسبات التي أبقيناها لدينا إلى مجرد وبالٍ علينا.

وإن المهمة الأساسية لكل عبد من العباد، القيام بواجب الشكر على النعم بالتعرف على المنعم الحقيقي.

ما هي النعمة؟

إن الذي سيعطينا معيار النعمة هو نور القرآن وفيضه. والذي يبين لنا الماهية الحقيقية للنعم هو أيضاً القرآن الكريم. ويمكن إدراك الحكمة المتجلية في الكائنات، وماهية الإنسان بالشكر. حيث يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ...﴾ [٣١٨]

وبمقتضى الآية الكريمة يتبين أن الحكمة، وحقائق عالم الأسرار تُفتح للشاكرين، ويتفضل الله بذلك على من يستمر في حالة الشكر.

إن الله سبحانه وتعالى يجلي إرادته في العالم بأربعة مظاهر:

١. اللطف.

٢. الشدة.

٣. الشدة التي تبدو بصورة اللطف.

٤. اللطف الذي يبدو بصورة الشدة.

إن الناس عندما ينظرون إلى الحوادث نظرة سطحية ـ مثل المرايا التي تعكس سطح الأشياء ـ يدركون فقط الوجه الخارجي لها، فيسيئون فهمها وتفسيرها بشكل عام. ولكن الذين ربوا عقولهم بالوحي الإلهي، فبإمكانهم النظر إلى الحوادث من خلال قلبهم السليم مثل الشعاع الذي يسلط على مكان الإصابة، فيتخلصون

---

٣١٨ لقمان، ١٢.

من كثير من اضطراباتهم ومعاناتهم وقلقهم بفضل الوقوف على الحكمة المستترة وراء تلك الحوادث.

ولذلك يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿... وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٣١٩]

لقد تمت الإشارة في الآية الكريمة إلى اللطف الذي يبدو بصورة الشدة، وإلى الشدة الذي يظهر بصورة اللطف.

ومن جهة أخرى، عندما يتم توسيع وإنماء الإدراك والفراسة، ويتكامل القلب ليصعد إلى قمة الصفاء، فإنه يعرض تلقي النعمة بصورة مختلفة ويكسب كمالاً يصعب على عوام الناس الوصول إليه. وعندئذٍ فإنه يدرك بموجب حاله أن الشدة التي يتعرض لها هي إيقاظ له من غفلته أو تتضمن حكمة لإيقاف النفس عند حدها... إلخ. وإن قول الحاج بيرم الآتي هو من هذا القبيل، إذ يقول:

"جميل ما جاءني منك، سواء كانت وردة ناعمة، أو شوكة قاسية."

إن المؤمن الذي وصل إلى هذا الصفاء والمزاج الروحي الشفاف يتلقى كل تجلٍ على أنه نعمة تستوجب الشكر والحمد، سواء أكان إيجابياً أو سلبياً. يمكن لبعض العوام ـ حسب نسبة الإدراك لديهم ـ رؤية اللطف الذي بداخل الشدة، أو الشدة التي

---

٣١٩ البقرة، ٢١٦.

تظهر بمظهر اللطف وذلك مع مرور الزمن، بينما من تعهدوا أنفسهم بالتزكية ووصلوا بها إلى مرحلة الحكمة يرون ذلك من أول الأمر ويدركونه وقت حدوثه. ولهذا السبب، كان الواجب المترتب على العوام هو الشكر على النعمة الظاهرة، والصبر على الشدة الظاهرة، بينما الخواص فإن مجموعة التجليات الأربعة المذكورة في الأعلى تمثل حالة واحدة بالنسبة لهم، فلا يختلف عندهم الأمر، ولا يتغير سلوكهم تجاه ربهم في الحالات الأربعة. لأنه كما أن المداومة على حالة الحمد مع الشدة من شأنها الحفظ من مصائب أكبر، كذلك فإنها تصبح وسيلة لانقلابها إلى لطف. وإن قول النبي ﷺ في كل حالة وتجلٍ:

(الحمد لله على كل حال) فيه توصية وتعليم لنا على الذكر الدائم. وأما البعيدون عن هذه الحالة، فإنهم بسبب غفلتهم وسطحيتهم يعلنون نوعاً من الحرب على القدر.

إن الذين ينجحون في المداومة على حالة الشكر والحمد تجاه مختلف المصائب التي يتعرضون لها، هم في قمة مراتب الطمأنينة والسكينة التي وُعد بها أتباع ديننا الحنيف، وتنال القلوب هذه الطمأنينة والسكينة بقدر نجاحها في الوصول إلى هذه النقطة.

إن أفضل مثال على اللطف الذي يبدو بصورة الشدة هو حالة يعقوب وابنه يوسف عليهما السلام، ففي التجليات التي ظهرت فيها

الكثير من العبرة والحكمة. لقد قدر الله سبحانه وتعالى لهما هماً شديداً، وكدراً، وقهراً، وفراقاً، واضطراباً، ومشقة، وابتلاءات فوق طاقة البشر حتى يدركا سر وجودهما معه، ولكي يقطعا صلتهما عن كل ما سواه تماماً، وهكذا حتى يصلا إلى الدرجات العليا من القرب منه. ولذلك ونتيجة لوصولهما إلى مرتبة الكمال بعيشهما منفردين غريبين، وبعيدين عن بعضهما، فقد قدم الله تعالى قصة حياتهما لنا تحت اسم "أحسن القصص" وذلك في القرآن الكريم.

وكذلك، فإن النبي ﷺ عندما اتفق مع المشركين على صلح الحديبية، فقد رأى الصحابة الكرام في هذا الصلح خلال أيامه الأولى تجلياً من الشدة والقهر لهم. ولكن الصحابة الكرام أدركوا مع الزمن كم كان ذلك الصلح لطفاً إلهياً عظيماً عندما هيأ الله تعالى لهم فتح أبواب مكة المكرمة وتزاحمت عليهم آلاف النعم، حيث أن عدد المسلمين بعد معاهدة صلح الحديبية بسنتين قد ازداد أضعافاً مضاعفة عما كان عليه عددهم خلال ثمان عشرة سنوات قبل هذه المعاهدة. وإضافة إلى ذلك، فقد فتحت مكة المكرمة سلماً دون إراقة الدماء.

وأما الشدة التي تبدو بصورة اللطف، فأجلى وأوضح مثال عليها هو حال عاد قوم هود عليه السلام. حيث أنهم عندما رأوا الغيوم قد أطبقت عليهم في السماء والتي أرسلت إليهم عذاباً لهم من الله تعالى، استهزأوا بنبيهم، وقالوا له:

– أنت تحدثنا عن العذاب، ولكننا نرى أن السماء سوف تمطر علينا! فخدعوا بذلك أنفسهم، ولكن لم يهطل المطر، وإنما ضربت عاصفة هوجاء هؤلاء القوم الظالمين المنحرفين، فقلبت عاليهم سافلهم، وأُهلكوا جميعاً.

إن ما سوف يلقاه الغافلون يوم القيامة من الخزي بسبب انخداعهم بالنعم الدنيوية التي يظنونها نعماً دائمة لهم، فيدمرون بذلك حياتهم الأخروية، ليس إلا عبارة عن إحدى الشدائد التي سوف تحيق بهم في ذلك اليوم، ولذلك فقد بين القرآن الكريم ببيان إلهي واضح لا مرية فيه العاقبة الحزينة والمخزية التي سيؤول إليها سيئوا الحظ الذين ظنوا أن السعادة الدنيوية التي أُعطيت لهم هي جنتهم الأبدية.

وكذلك الإنسان الغني الذي أُعطي نصيباً من المال، يُعتبر هذا بالنسبة إليه من حيث الظاهر لطفاً. ولكن إن لم ينفق هذا المال في سبيل الله تعالى، فإنه سوف ينقلب إلى أحد تجليات الشدة والقهر يوم القيامة، ويورد صاحبه في خسران مبين.

وقد وصف العارفون من أهل القلوب بشكل رائع هذا العالم المتأرجح والمتقلب بين تجليات اللطف والشدة، فقالوا:

"إن هذه الدنيا بالنسبة للعقلاء بداية السير، وبالنسبة للحمقى عبارة عن طعام وشهوات."

❀ ❀ ❀

فكل ما بين يدي العباد من أشياء هي عائدة إلى الله تعالى. وإن المالك الحقيقي لمختلف النعم التي تأتي من الطبيعة، أو من الإنسان وخالقها الحق هو الله ﷻ. ومن موجبات القلب السليم عدم الغفلة عن هذه الحقيقة، فالمخلوقات جميعها عبارة عن واسطات ووسائل، لأن كل كائن في هذا الوجود مكلف بتنفيذ وظيفة ما موكلة إليه.

وكل الواسطات التي تقوم بتوزيع النعم هي عبارة عن عمال وموظفين، فصاحب النعم الحقيقي والمتفضل بها هو رب الكائنات جميعاً. ولهذا السبب فإن كل مؤمن ينبغي أن يكون مديناً بمشاعر الشكر لمرسل النعمة أكثر من جالبها أو موصلها إليه، وأن يعيش حياة مملوءة بأحاسيس الشكر، ولا يليق بكرامة الإنسان الارتباط بالأشخاص أو الأسباب التي توصل النعم إليه، ونسيان أو تجاهل صاحب النعمة الحقيقي.

ولكن مع ذلك، فمن مستلزمات الأخلاق الحميدة والرقة في المعاملة شكر المخلوقات، أي التي تكون وسيلة لإيصال النعمة، حيث يقول النبي ﷺ في الحديث الشريف:

"من صنع إليه معروف فقال لفاعله: جزاك الله خيراً فقد أبلغ في الثناء." [٣٢٠]

---

٣٢٠ الترمذي، البر، ٨٧/ ٢٠٣٥.

وأما عكس هذه الحالة، أي نسيان صاحب النعمة الحقيقي، والتوجه بالشكر والامتنان إلى الأمناء أو من هم بحكم الوسائط الفانية حماقة وتصرف في غير محله. فمن سنن الله تعالى في الكون ارتباط كل شيء بسبب، ولكن لا ينبغي الركون إلى الأسباب والتعلق بها، ونسيان " مسبب الأسباب " أي خالق الأسباب.

ينبه الله تعالى عباده ببيان إلهي جميل، حيث يقول:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [٣٢١]

إن الإيفاء بواجب الشكر لله تعالى يكون بثلاثة صور:

١. الشكر اللساني:

الشكر اللساني هو أدنى مراتب الشكر، وهو عبارة عن نطق الناس كلمات الشكر باللسان تجاه الخالق سبحانه وتعالى، كأن يقول: "يا رب! أشكرك شكراً لا نهاية له."

يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [٣٢٢] بينما نجد لسوء الحظ أناساً من ميتي القلب أو مرضاها، أو في غفلة من أمرهم يتمتعون بنعم الخالق

---

٣٢١ النحل، ٧٨.

٣٢٢ الضحى، ١١.

سبحانه وتعالى بدافع من الغريزة الحيوانية، ومع ذلك لا يذكرون اسم الله تعالى بقدر ما تذكره الحيوانات، فينحدرون إلى مستويات من الدون والسفالة لينطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿**ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ**﴾ [٣٢٣]، وقوله: ﴿...**كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ**...﴾ [٣٢٤]

٢. الشكر الفعلي:

الشكر الفعلي هو: صرف النعمة التي تفضل الله تعالى بها في سبيله، وبالشكل الذي أمر به.

وبناءً على ذلك، فإن شكر الغني هو الإنفاق، وشكر العلم هو الإحسان وتعليم الغير، وأما شكر الجسم فهو استعمال كل عضو منه بصورة مشروعة وفي سبيل الحق.

٣. الشكر القلبي:

الشكر القلبي هو: محبة الخالق سبحانه وتعالى، والارتباط بالمعرفة، والرضا على كل حال.

وفي الحقيقة ليس من الممكن أداء واجب الشكر على نعم الله تعالى المختلفة بالمعنى المطلق، فطاقة البشر أقل من أن تكفي لذلك، وحتى الأنبياء فلأنهم لم يستطيعوا القيام بالشكر على وجهه

٣٢٣ التين، ٥.

٣٢٤ الأعراف، ١٧٩.

التام، لذا كانوا في حالة من الاستغفار الدائم، حيث يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

"...وإني لأستغفر الله، في اليوم، مائة مرة." [٣٢٥]

إن كان هذا حال الأنبياء، فغير الأنبياء، الذين لا يتمكنون أبداً من أداء واجب الشكر كم مرة ينبغي أن يستغفروا في اليوم؟

ومن جهة أخرى، فإن إمكانية القيام بالحمد والشكر من اللطف والإحسان الرباني للعباد، أي أنها نعمة أخرى، وفي حال اتباعنا هذا المنطق إلى ما لا نهاية يتبين أن كل شكر يولد ديناً بشكر آخر نظراً للتوفيق الإلهي للعبد في الشكر الأول، وبالتالي لا يمكن الوصول إلى نهاية هذه السلسلة والخلاص من أداء دين الشكر لله تعالى الذي جعل هذا الشكر المتسلسل من نصيب عبده! ولهذا السبب فإن جميع البشر ومن ضمنهم الأنبياء عاجزون عن الإيفاء بدين الشكر بمعناه الكامل والمطلق.

وفي هذه الحالة فإن الواجب علينا هو التسليم بعجزنا عن إدراك نعم الله تعالى بحق، وعن القيام بواجب الشكر تجاه هذه النعم بالشكل الأمثل، ومن ثم الحمد والثناء على الله تعالى بما يتأتى لنا، وبذل الجهد على قدر استطاعتنا للقيام بواجب الشكر،

٣٢٥ مسلم، الذكر، ٤٢/ ٢٧٠٢.

حيث أن الحكمة القائلة: "من عرف نفسه، عرف ربه..." [326]، تفيد بأن معرفة الرب تكون أيضاً من خلال إدراك الإنسان عجزه أمام بديع الصنع الإلهي والنعم المتجلية في نفسه.

فالنعم لا تحصى، والألسنة عاجزة، والأجسام ضعيفة... وكذلك فإن من أكبر النعم أيضاً عدم نسيان صاحب تلك النعم، وكما أن شكر النعم يكون وسيلة لزيادة النعمة، فإن عدم الشكر يكون سبباً في نقصان النعمة.

إن الشكران رأسمال الجنة، وأما الكفران فهو وثيقة جهنم، فحالة انعدام الشكر تُعد من كفران النعمة، أي أنه نكران للجميل بطريقة حمقاء، فالمال الذي لا تُدفع زكاته، ولا يتم الإيفاء بالشكر الفعلي في حقه، يخرج من وصف النعمة ليتحول إلى حالةٍ من الفتنة، ويكون سبباً في وقوع المصائب على مالكه.

ويقول الله تعالى في ذلك:

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [327]

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [328]

---

٣٢٦ العجلوني، كشف الخفاء، ٢، ٣٦١.

٣٢٧ التوبة، ٣٤.

٣٢٨ التكاثر، ٨.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [٣٢٩]

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [٣٣٠]

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [٣٣١]

إن قيام الإنسان بالشكر مقابل كل نعمة ينالها من ربه عزو جل من أهم وظائف العبودية المكلف بها. وإن المؤمن الذي يتمتع بإدراك هذا الأمر مع مرور الوقت لا يمكنه البقاء دون القيام بواجب الشكر، والحمد، والثناء على الله تعالى. إن خُلُق الشكر تجاه نعم الخالق سبحانه وتعالى يشكل نصف رأسمال بالنسبة للمؤمن الصادق. حيث جاء في الحديث الشريف عن النبي ﷺ:

"الشكر شطر الإيمان..." [٣٣٢]

وإن العبد صاحب العقل الراجح ينبغي أن يغتبط الصالحين الذين يتمتعون بالميزات المعنوية والروحانية، ومن ثم يبذل كل جهده وطاقته للوصول إلى مراتبهم، وأما من الناحية المادية فينبغي

---

٣٢٩ إبراهيم، ٧.

٣٣٠ البقرة، ١٥٢.

٣٣١ لقمان، ١٢.

٣٣٢ السيوطي، الجامع الصغير، ١، ١٠٧.

عليه أن يقارن نفسه بمن هم أقل منه مالاً وغنى، وثم يشكر الله تعالى على نعمه. وقد جعل الأنبياء، ومن بعدهم الأولياء والعلماء الشكر حالة من الورد اليومي.

حيث أن الله تعالى قال بحق نوح عليه السلام:

﴿... إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [333]

وقال عن إبراهيم عليه السلام:

﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ...﴾ [334]

وقال أيضاً عن لقمان عليه السلام:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ...﴾ [335]

وكان رسول الله ﷺ ، إذا صلى، قام حتى تتفطر رجلاه، قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله! أتصنع هذا، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال النبي ﷺ:

"يا عائشة! أفلا أكون عبدا شكوراً" [336]

❀ ❀ ❀

---

٣٣٣ الإسراء، ٣.

٣٣٤ النحل، ١٢١.

٣٣٥ لقمان، ١٢.

٣٣٦ البخاري، التفسير، ٤٨، ٢/ ١١٣٠؛ مسلم، المنافقين، ٨١/ ٢٨٢٠.

إن بحث الشكر بحث عميق وطويل، ولا يمكن الإحاطة به وتوضيحه بالشكل الأمثل، وإن فيض وبركة الشكر الحقيقي لا يمكن أن يدركه إلا الذين عاشوا تلك الحالة وأحسوا بها.

والخلاصة، هي أنه ينبغي على كل إنسان بذل جهد لأداء واجب الشكر بحسب النعمة التي أُعطيت له، وبناءً على ذلك فإن:

شكر العلماء: هو نقل العلم الذي أكرمهم الله تعالى به إلى غيره، وتعليم المحرومين منه، والعمل علمهم، وإن حال الإمام الأعظم رحمه الله تعالى أفضل مثال ونموذج على هذا الشكر، فقد أنفق الإمام الأعظم مؤسس المذهب الحنفي أبو حنيفة النعمان رحمه الله، أنفق علمه طيلة سنوات عمره بصورة حسنة ورائعة؛ وقد خرّج وربى كبار الأئمة المجتهدين الذين ستظل اجتهاداتهم قائمة إلى يوم القيامة، والذين أناروا العالم الإسلامي بأكمله من أمثال: الإمام أبي يوسف، والإمام محمد، والإمام زفر. ومن أجل أن يحمي ذلك الإمام الجليل شرف وكرامة علمه فقد فضل ظلمات السجن وتحمل أنواع العذاب من الضرب والجلد على أن يعتلي أعلى مناصب عصره في بغداد ليصبح آلة بيد الخليفة الظالم ويصدر الفتاوى الخاطئة لإرضائه.

شكر الأغنياء: ينبغي على الغني التصرف وفق سر الآية الكريمة ﴿... **وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ**...﴾ [٣٣٧]، وينفق ماله في سبيل

---

٣٣٧ القصص، ٧٧.

الله تعالى وفي المواضع التي يأمره بها. وعليه إدراك أن المالك الحقيقي لهذا المال الذي بين يديه هو الله تعالى فلا يغترّ به، ولا يقع في الإسراف والتبذير، وباختصار، على الغني بذل غاية طاقته ليكون من الأغنياء الشاكرين.

إن الإسراف الذي يُعد تصرفاً معاكساً للشكر، فهو تحقير للنعمة التي أنعمها الله على عباده، وسوء استعمال لها. وينبهنا الله ﷻ في كتابه الكريم إلى هذا السلوك ويحذرنا منه بلهجة شديدة القسوة، حيث يقول:

﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا. إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [٣٣٨]

وقد اعتبر أهل الحال أن تناول الطعام، وشرب الماء، ولبس الثياب، واستعمال أي شيء آخر بغفلة عن الشكر من قبيل الإسراف.

شكر صاحب الخُلق الحسن: هو إدراكه التام بأن كل خصاله الحميدة هي من لطف الله تعالى به وكرمه عليه، ومن ثم تجنب تحقير الأشخاص الآخرين أو الاستهزاء بهم، والمحافظة على حالة التواضع التي يتحلى بها ليكون بذلك مثالاً وقدوة حسنة للآخرين.

شكر أهل السير والسلوك: هو التعلق بالمرشد الكامل الذي أصبح تابعاً له، والانتباه بدقة إلى الحلال والحرام، وحسب الأمر

---

٣٣٨ الإسراء، ٢٦- ٢٧.

الموجه إلى النبي ﷺ في الآية الكريمة ﴿**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ...**﴾ [٣٣٩]، هو الالتزام بالاستقامة، وباختصار، هو التخلق بأخلاق القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وبذل الجهد لكسب المشاعر من معرفة الله، والعمل على خدمة مخلوقات الله تعالى. ومن جهة أخرى حفظ النفس من الرياء والعجب في حال نيل المقامات والمراتب المعنوية والروحانية.

شكر الأصحاء وذوي الأمراض: هو التعايش مع الحالة بشعور من الرضا والتسليم لله تعالى مع الإدراك بأن هذه الحالة هي من إرادة الله ﷻ وتقديراته، وعبارة عن امتحان دنيوي زائل، وأما الأصحاء فيجب عليهم العلم بأن هذه الصحة قد أُعطيت لهم ليستخدموها في سبيل الله ﷻ بالأعمال الصالحة، والعيش في حياتهم على أساس هذا الهدف. وأما المريض فعليه النظر إلى مرضه على أنه نعمة كبيرة من ربه ﷻ، والعيش برضا وضمن مشاعر من الوجد بقول "يا رب الحمد لك على كل حال."، وينبغي أن نعلم؛ بأن الأعمى الذي لا يقع في النظر إلى الحرام والتلصص على أعراض الناس بسبب عميه قد يكون أفضل حالاً من البصير الذي ينظر إلى المحرمات ويقع في الفتنة بسبب ذلك! ولكن هذه الحقيقة لا تتبين لنا إلا يوم القيامة حيث تُزال الغشاوات عن الأعين وتنجلي الأمور.

٣٣٩ هود، ١١٢.

شكر الفقراء: هو التجمل بالصبر، يستوي الفقراء الصابرون مع الأغنياء الشاكرين بالرضا الإلهي، وإن الحوار الذي دار بين إبراهيم بن أدهم وشقيق البلخي رحمهما الله تعالى خيرٌ مثال وعبرة بشأن الشكر الحقيقي لمن هم في حالة الفقر:

حيث يسأل شقيق البلخي إبراهيمَ بن أدهم:

- ماذا تفعل؟ وماهي أحوالك؟

يجيب إبراهيم بن أدهم:

- إن وجدت شكرت، وإن لم أجد صبرت!..

وعندما قال شقيق البلخي:

- إن هذا ما يفعله كلابنا في خراسان أيضاً! وهذه المرة سأله إبراهيم بن أدهم:

- حسناً، وماذا تفعل أنت؟

فأجاب شقيق البلخي قائلاً:

- إن وجدت شكرت وأنفقت، وأما إن لم نجد نصبر ونشكر.

❀ ❀ ❀

إن كل إحسان ونعمة هي من الله ﷻ، ويقول إبراهيم الدسوقي قدس الله سره في هذا المجال:

"يا أخي! أحذر من الركون إلى ادعائك القدرة على القيام بعمل خاص!

لأنك بعدها ستحاول الادعاء بأنك صاحب حقّ بجهد نفسك!

اعلم جيداً، بأنك إذا كنت تصوم، فإن الذي يمكّنك من الصيام هو الله تعالى.

أتقيم الصلاة؟ أتقف بين يدي الله؟ إن ذلك بفضل الله ولطفه.

وكل أعمالك مثل ذلك. لتعلم أن كل شيءٍ منه... وإن رأيت شيئاً فأدرك بأن الذي أراك هو الله، وعندما تداوم على هذه الحال وتتذوق الشراب الروحي، ستقول هو الذي أشربني."

من موجبات تمام الإيمان العلم بأن حدوث كل شيء هو من تجليات صفة الله تعالى "الخالق"، حتى وإن ظهر في العمل أثر الإرادة البشرية. ومن أجل ذلك كان من شروط الإيمان الاعتقاد بأن "**الخير والشر من الله تعالى**". ولكن يجب عدم الخلط بين "**إرادة** الله تعالى" و "**رضاه**". لأنه بينما إرادة الله تعالى موجودة في كل فعل، فإن رضاه موجود في الخير فقط. ولكن قد يقال لما يُحدث الله عملاً دون رضاه، ويخلقه بسبب اختيار العبد له، فإن الجواب هو من أجل إعطاء هذه الدنيا صفة "الامتحان"، لأنه لا امتحان دون إرادة واختيار.

فمهمة الطبيب وهدفه مداواة المريض، وأما إن لم يتبع المريض إرشادات الطبيب، ولم يتناول الدواء الذي وصفه له، فلا مسؤولية على الطبيب، وكذلك المعلم فإن هدفه هو إنجاح جميع

طلابه وتوفيقهم، ولكن إن لم يبذل الطلاب جهوداً، ولم يجتهدوا فلا يُسأل المعلم عن فشلهم، والله سبحانه وتعالى أيضاً قد دعا عباده إلى دار السلام "الجنة"، ولكن إذا لم يحقق العبد شروط هذه الدعوة ولم يتبع إرشاداتها، فإن النتيجة هي حرمانه من الجنة. فلو أن العبد لم يُمنح القدرة والحق في اختيار الخير أو الشر، لكان "الجزاء" أو "الثواب" ضرباً من العبث وبعيداً عن العدالة الإلهية، وحاشى لله أن يكون هذا شأنه، ومن أحد أهم الأفعال التي تدخل ضمن ساحة اختيار العبد وبالتالي تستلزم الثواب والجزاء، الفهم الحقيقي لمفهوم الحمد والشكر، والقيام بالأعمال بناءً على هذا الفهم والاستيعاب.

اللهم ياربنا اجعلنا مثل لقمان عليه السلام الذي شكرك فآتيته نصيبه من الحكمة، واجعلنا من عبادك الذين تستفيد الأمة من فعالهم وقالهم وحكمهم وخواطرهم. آمين.


البحر الأبيض
الاسكندرية
القدس
القاهرة
إيلات
مصر
أسيوط
البحر الأحمر
الصحراء العربية
نهر النيل
صحراء النوبة
السودان



حضرة زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام

سيدنا زكريا عليه السلام

النبي المظلوم والشهيد الذي قسم جسده إلى نصفين بالمنشار

وسيدنا يحيى عليه السلام

الذي لاقى مصير أبيه في الموت والشهادة

وسيدنا عيسى عليه السلام

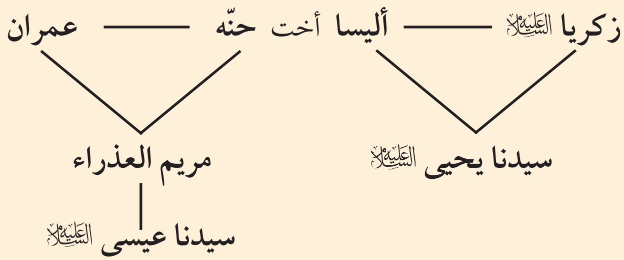
الذي شفى المرضى وأحيا الموتى

إن هؤلاء الأنبياء يتشابهون فيما بينهم من حيث الآلام التي عاشوها، والمعاناة التي تعرضوا لها، والنضال في سبيل نشر دين التوحيد.

لقد بذل هؤلاء جهوداً جبّارة في سبيل إعادة اليهود إلى طريق الاستقامة، وهدايتهم إلى سبيل الهداية، هؤلاء اليهود المنحرفون الذين بلغوا درجة كبيرة من الفساد والضلال بعد النبي موسى عليه السلام، وقد أصبح الأنبياء الثلاثة عرضة للإيذاء والتحقير والاستهزاء على أيدي غالبية اليهود الذين لم يؤمنوا بهم، ما عدا قسم قليل منهم، وقد قضوا حياتهم الدنيا وهم يعانون خلالها من الآلآم والشدائد، والمحن ممالا نهاية لها. وهكذا فإن سيدنا زكريا ويحيى عليهما السلام قد نالا في النهاية شرف الشهادة وانتقلا إلى جوار ربهما

الرحيم، وأما سيدنا عيسى عليه السلام فقد رفعه الله تعالى بين يديه ليصعد ويحلق حياً في السماء.

وإلى جانب تشابه هؤلاء الأنبياء الأربعة من حيث تجليات الامتحان الذي ظهر في مهمات رسالتهم النبوية، فإن بينهم صلة قربى ورباط من التربية الروحية والمعنوية. وهذه القرابة على الشكل التالي:



سيدنا زكريا عليه السلام:

هو نبي من أنبياء بني إسرائيل، ويصل نسبه إلى سليمان، كان يكتب التوراة في المسجد الأقصى ويشرف على إدارة ذبح القرابين والأضاحي هناك. وكان يجهد في سبيل تقوية دين موسى عليه السلام، ويعمل في مهنة النجارة فيكسب قوته من كدّ يده وعرق جبينه، وقد استشهد على يد قومه الظالمين، ويوجد قبره في حلب المدينة السورية حالياً.

لقد كانت الشام والقدس في عصر زكريا عليه السلام بيد البطالسة، وقد كان هؤلاء البطالسة يقدسون البيت المقدس ويحبون بني

إسرائيل، ولم يكن رهبان هؤلاء القوم يخرجون من معابدهم أبداً، و يتعبدون في بيت المقدس ليلاً نهاراً، ولم يكن في ذلك الوقت من نبي بين بني إسرائيل، ولذلك التجؤوا إلى الله تعالى من أجل أن يبعثَ إليهم نبياً.

وفي النهاية أرسل الله سبحانه وتعالى إليهم زكريا عليه السلام نبياً.

لقد كان في البيت المقدس أربعمائة عابد معتق بحالة عبادةٍ دائمة، وإذا أراد العابد المعتق أن يكون ذا شأن ومعتبراً عند الله تعالى، فإنه كان يقول عندما تحمل امرأته:

- يا رب! نذرت أن أضع الولد الذي ستلده امرأتي في البيت المقدس من أجل عبادتك.

وبذلك فإن الأولاد الذكور كانوا يُنذرون للعبادة في البيت المقدس، وقد بقيت هذه العادة من عصر موسى عليه السلام. حيث قال الله عز وجل لموسى عليه السلام:

"يا موسى! إني أحب من عبادي ذلك الإنسان الذي قضى عمره من عهد شبابه حتى شيخوخته بحالة عبادةٍ لي. ولم يرتكب ذنباً في شبابه، وتعلق قلبه بي فكسب بذلك محبتي."

❀ ❀ ❀

لقد تزوج زكريا عليه السلام بأليسا التي يرجع نسبها إلى سليمان عليه السلام، وأليسا هي أخت حنّة أم مريم العذراء، وزوج حنّة هو عمران.

وقد ولد لزكريا عليه السلام وأليسا يحيى عليه السلام.

عاش زكريا عليه السلام حياته نبياً صالحاً صادقاً، وراضياً تجاه إلهه سبحانه وتعالى، وكما ذكرنا في السابق وسيمر معنا ذكره لاحقاً فإنه استشهد على أيدي بني إسرائيل المتجبّرين بشكل دموي.

يحيى عليه السلام:

يحيى عليه السلام هو ابن خالة مريم العذراء، وقد تعلم التوراة في صغره، وقد كلف بمهمّة النبوة عندما بلغ سنّ الرشد.

ويبين القرآن الكريم إحسان الله تعالى إلى زكريا عليه السلام بيحيى عليه السلام، حيث يقول الله تعالى:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [٣٤٠]

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [٣٤١]

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ [٣٤٢]

---

٣٤٠ آل عمران، ٣٨.

٣٤١ مريم، ٤.

٣٤٢ مريم، ٥.

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [343]

وقد قُبل هذا الدعاء الذي دعا به زكريا ﷺ من صميم قلبه ووجدانه من الله تعالى، حيث يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [344]

حسبما بينه المفسرون فإن المقصود بـ"كلمة" الواردة في الآية الكريمة هو عيسى ﷺ. وتشير الآية / ٤٥ / من سورة آل عمران إلى هذا الأمر بشكل واضح.

يقول الله ﷻ في آية أخرى بشأن زكريا ﷺ و ولده الذي بُشر به:

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [345]

إن قول الله تعالى في الآية الكريمة ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ هو من أجل تكريم يحيى ﷺ، وذلك لأن اسم يحيى أطلق لأول مرة عليه هو ولم يُسمّى أحدٌ به من قبل، وعلاوة على ذلك فقد أُطلق عليه هذا الاسم من الله تعالى بالذات، وهذا في الوقت نفسه دليل على فضيلة أخرى ليحيى إضافة إلى فضائله الأخرى الاستثنائية.

---

٣٤٣ مريم، ٦.

٣٤٤ مريم، ٣٩.

٣٤٥ مريم، ٧.

إن "يحيى" من معاني الحياة. فمنح ولد لشخصين مسنين كأنه خلق للحي من الميت، حيث يقول الله تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [٣٤٦]

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [٣٤٧]

وقد صارت علامة قبول دعاء زكريا عليه السلام أن لا يكلم الناس ثلاثة أيام إلا إشارة، والانشغال بذكر ربه عز وجل، حيث يقول الله عز وجل:

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [٣٤٨]

فلم يكلم زكريا عليه السلام الناس لمدة ثلاثة أيام، وقد كان يبلغ قومه بالكتابة على التراب، وعن طريق الإشارة. يقول الله تعالى:

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [٣٤٩]

---

٣٤٦ مريم، ٤٠.

٣٤٧ مريم، ٩.

٣٤٨ آل عمران، ٤١.

٣٤٩ مريم، ١١.

ويقول ﷻ:

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[٣٥٠]

وعندما بلغ يحيى عليه السلام سن الرشد أمره الله تعالى التمسك بالتوراة، حيث قال:

﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [٣٥١]

﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ [٣٥٢]

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [٣٥٣]

بُعث يحيى عليه السلام نبياً، واتبع شريعة موسى عليه إلى أن بُعث عيسى عليه السلام نبياً وأُنزل عليه الإنجيل المقدس، وأصبح يحيى عليه السلام بذلك آخر الأنبياء الذين اتبعوا شريعة موسى عليه السلام وعملوا بها، واستشهد مثل أبيه زكريا عليه.

بحسب الشريعة التي جاء بها موسى عليه السلام يحرم الزواج من زوجة الأخ، وجزاء من يفعل ذلك الإخصاء. [٣٥٤]، بينما عقوبة الزنا

٣٥٠ الأنبياء، ٩٠.

٣٥١ مريم، ١٢.

٣٥٢ مريم، ١٣.

٣٥٣ مريم، ١٤.

٣٥٤ لاويين، ١٨/٦- ١٨، ٢٠/١٩- ٢١.

بين الأجانب في التوراة هي الموت، في حين أن عقوبة الزنا بين المحارم (من يحرم الزواج بينهم) مختلفة جداً [355] حيث تروى حادثة تتعلق بهذا الموضوع والذي كان سبباً في استشهاد يحيى عليه السلام، وهذه الحادثة هي:

خلال فترة نبوة يحيى عليه السلام زنا الملك هيرودوتس بزوجة أخيه، وعندما قال يحيى بأن هذا الفعل مخالف للقوانين الإلهية ألقي في السجن بأمر من الملك، وبعد ذلك وخلال احتفال الناس بيوم ميلاد الملك انضمت المرأة التي زنا بها مع ابنتها إلى هذا الاحتفال، ومن خلال الاستعراضات والرقصات التي قامت بها تلك الفتاة كأنها قد سحرت الملك وأسكرت عقله، وقطع الملك ذلك اليوم وعداً بأن يتمّ تنفيذ كل ما تتمناه وتطلبه هذه الفتاة، وقد طلبت الفتاة رأس يحيى عليه السلام بناءً على تحريض وخديعة أمها لها، حزن الملك كثيراً تجاه هذا الطلب، إلا أنه تذكر الوعد الذي قطعه على نفسه فأمر بقطع رأس يحيى عليه لينال شرف الشهادة في سبيل ربه. [356]

وجاء في رواية أن يحيى عليه السلام حتى بعد أن تم قطع رأسه قال عدة مرات لذاك الظالم هيرودوتس:

- لا تحل لك هذه الفتاة!..

---

٣٥٥ التثنية، ٢٢/ ٢٢- ٢٧؛ لاويين، ٢٠/ ١١، ١٢، ١٤، ١٧.

٣٥٦ لوقا، ٣/ ١٩- ٢٠، متى، ١٤/ ١- ١٢.

إنها لغفلة كبيرة، فعلى الرغم من رؤية المعجزات النبوية الخارقة إلا أنه مع الأسف لم يعتبر هيرودوتس فعاند يحيى عليه السلام وقتله ليسقط شهيداً عليه السلام.

إن جسد يحيى عليه السلام المبارك في مدن مختلفة، وأما رأسه فمدفون في الجامع الأموي في دمشق بسوريا حالياً.

وأما تلك الفتاة التي تزوج بها هيرودوتس فقد خسف الله بها الأرض فغاصت في باطن الأرض.

إن صعود عيسى عليه السلام إلى السماء يصادف هذا العصر من الزمن. لأن اليهود في ذلك العهد كان قد بلغ بهم العنف والانحراف مبلغاً دفعهم إلى حد قتلهم الأنبياء، ولذلك فقد لعنهم الله تعالى وطبع على قلوبهم بسبب هذه الجريمة المنكرة وغيرها من الجرائم المشابهة لها، حيث يقول الله تعالى:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [٣٥٧]

❀ ❀ ❀

٣٥٧ النساء، ١٥٥.

ولما استشهد يحيى عليه السلام كان له من العمر بضع وثلاثون سنة.

وكما تبين الآية الكريمة فإنه قد نال رحمة الله تعالى في ثلاثة أيام خطيرة ومهولة، فيقول الله تعالى:

﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [358]

"وسلام عليه من الله يوم ولد من أن يناله الشيطان بما ينال به بني آدم، ويوم يموت من عذاب القبر، ويوم يبعث حياً من عذاب النار القيامة."

سيدنا عيسى عليه السلام:

لقد شرف عيسى عليه السلام الدنيا بعد ولادة يحيى عليه السلام بسبعة أشهر في مدينة القدس، وعيسى عليه السلام هو آخر الأنبياء الذين أرسلوا إلى بني إسرائيل.

وهو واحد من الأنبياء ذوي الفضل العالي ويأتي في المرتبة الرابعة من الأنبياء "أولي العزم". وقد كرمه الله تعالى بأن قال عنه "روح الله"، ويعود سبب تكريمه إلى أن الله عز وجل قد خلقه مثل آدم ونفخ فيه من روحه.

بُعث عيسى عليه السلام نبياً وهو في عمر الثلاثين عاماً، وأُنزل عليه الكتاب السماوي إنجيل المقدس، ورفعه الله تعالى إلى السماء حياً وهو في عمر الثلاثة والثلاثين عاماً.

---

٣٥٨ مريم، ١٥.

سوف ينزل عيسى عليه السلام إلى الأرض عند اقتراب يوم القيامة، وسوف يتزوج ويرزق بأولاد، وسيلتقي "بالمهدي"، وسوف ينشر الإسلام في جميع العالم، ويتوفى في المدينة المنورة. وسوف يدفن بجوار قبر النبي ﷺ في الحجرة الشريفة.

❁ ❁ ❁

إن والدة عيسى عليه السلام السيدة مريم العذراء من نسل داوود عليه السلام، فأمها حنّة وأبوها عمران.

وحسب ما ذُكر في المصادر التاريخية فإن حنة لم تكن تنجب الأطفال، فنذرت لله نذراً بقولها:

"يا رب! إن رزقت بولد سوف أجعله في خدمة بيت المقدس!"

وبعد أن نذرت حنة هذا النذر حملت بطفل، حيث يقول الله تعالى في هذا الشأن:

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [٣٥٩]

وبعد مدة من الزمن رزقت بمولود أنثى، فسمتها مريم، إذ يقول الله تعالى:

---

٣٥٩ آل عمران، ٣٥.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[٣٦٠]

لقد كان نذر الأولاد الذكور إلى البيت المقدس في ذلك العصر جائزاً وله ثواب كبير. وهكذا فإن الأولاد الذكور المنذورين يوضعون في البيت المقدس منذ ولادتهم ويخدمون فيه حتى بلوغهم سن الرشد، وأما بعد سن الرشد فكانوا إذا شاءوا يستمرون بالخدمة في ذلك المكان، وإن شاءوا ذهبوا إلى مكان آخر يختاروه، ولكن في كل الأحوال لم يكن من الجائز مغادرة البيت المقدس قبل سن البلوغ.

وهذه النذور لم تكن تحدث إلا بالنسبة للذكور من الأطفال، وبعد أن قبل الله تعالى تضرّع والدة مريم العذراء من أجل قبولها في البيت المقدس، وبعد أن تفضل بقبول النذر بحق الأطفال الإناث، أصبح من الجائز نذر الإناث للبيت المقدس.

قامت حنة بتسليم ابنتها مريم إلى المكلفين بالخدمة في البيت المقدس، فاختلفوا على أمر تولي رعايتها وتربيتها، ولجؤوا بعد ذلك إلى القرعة لتحديد الشخص الذي سوف يتولى أمرها، ويقول الله تبارك وتعالى في ذلك:

---

٣٦٠ آل عمران، ٣٦.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[361]

ووقعت القرعة على إمام البيت المقدس وزوج أخت حنّة زكريا عليه السلام، فقال زكريا عليه السلام:

- "إن خالتها على عصمتي"، ومن ثم أخذ مريم البتول تحت وصايته.

وعندما تم فطام مريم عن الرضاع، خصصت لها غرفة مستقلة في البيت المقدس، وقد سميت هذه الغرفة في القرآن الكريم بـ "المحراب". والمحراب هو من وسائط الحرب والجهاد، ومن وجهة النظر هذه، فإن الكلمة تحمل معنى غرفة الرباط.

وكان زكريا عليه السلام هو الشخص الوحيد الذي يدخل إلى غرفة مريم البتول، واستمرت هذه الحالة إلى أن بلغت الثانية عشرة سنة من عمرها، وكان زكريا عليه السلام عندما يدخل إلى غرفتها يفتح الباب بالمفتاح ويدخل، ولدى خروجه يغلق الباب عليها بالمفتاح أيضاً، ويأخذ لها كل يوم من الطعام والشراب ما يكفيها طيلة فترة النهار، ولكنه كلما دخل عليها ذلك المحراب يجد عندها مختلف أنواع الفاكهة فيستغرب من الأمر وتصيبه الحيرة من هذا الأمر، وعندما يسألها عن مصدر هذه الفاكهة، كانت مريم تقول بأنها مرسلة إلي

٣٦١ آل عمران، ٤٤.

من عند الله تعالى، ومن بين هذه الأطعمة فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف. حيث يقول الله ﷻ:

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [٣٦٢]

إن مكرمات الله تعالى الكبرى لمريم العذراء هي:

١. على الرغم من نذور الأطفال للبيت المقدس كان مقتصراً على الذكور فقط إلى ذلك الوقت، فإن الله تعالى قد قبل نذر مريم البتول بتضرع والتجاء والدتها حنة إلى ربها.

٢. جعلها الله تعالى تحت حماية ووصاية نبيه زكريا عليه السلام.

٣. تفضل الله تعالى عليها بالرزق من نعيم الجنة.

٤. قابلت الملاك الذي يُرسله الله تعالى إلى أنبيائه وهو جبريل عليه السلام.

٥. حفظها الله تعالى وولدها عيسى عليه السلام من شر ومسّ الشيطان.

٦. لقد تكلم ابنها عيسى عليه السلام وهو ما يزال في المهد، ورد على الافتراءات التي قيلت بحق أمه.

---

٣٦٢ آل عمران، ٣٧.

وقال رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم بحق مريم العذراء:

"خير نسائها مريم بنت عمران. وخير نسائها خديجة بنت خويلد" [٣٦٣]

❁ ❁ ❁

لقد كانت مريم البتول تعبد الله تعالى ليل نهار، وأصبح ورعها وتقواها مضرب المثل بين بني إسرائيل، فقد كانت من عباد الله المختارين، وقد أثنى الله تعالى عليها ومدحها في القرآن الكريم فسماها "صدِّيقة."

يقول الله ﷻ:

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [٣٦٤]

﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [٣٦٥]

وقد أطاعت مريم العذراء أوامر ربها خير طاعة، وبلغ تقواها الآفاق، وقد كانت تقوم إلى الصلاة حتى تتورم قدماها.

---

٣٦٣ مسلم، فضائل الصحابة، ٦٩/ ٢٤٣٠.

٣٦٤ آل عمران، ٤٢.

٣٦٥ آل عمران، ٤٣.

الذي يخلق من العدم، يخلق من غير أب أيضاً!

لقد كانت مريم العذراء مخطوبة لرجل يُدعى "يوسف النجار" عندما كانت في الخامسة عشر عاماً من عمرها. إلا أن الله سبحانه وتعالى قد بشرها قبل الزواج بأنها سوف تُرزق بغلام من قبل أن تتزوج، حيث يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ[٣٦٦] عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[٣٦٧]

وأكملت الملائكة قولها لها:

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[٣٦٨]

كانت البشارة مفاجئة لمريم البتول، وأصابتها بالدهشة والحيرة، ويصور البيان الإلهي حالها وكلامها، وجواب ربها لها:

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[٣٦٩]

---

٣٦٦ المسيح، كلمة عبرية، وهي لقب لعيسى عليه السلام، وتأتي بمعنى " المبارك ".

٣٦٧ آل عمران، ٤٥.

٣٦٨ آل عمران، ٤٦.

٣٦٩ آل عمران، ٤٧.

وتابعت الملائكة خطابها لمريم العذراء، وقالت بحق عيسى عليه السلام:

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾[370]

إن المقصود بكلمة "الملائكة" التي مرت في الآيات الكريمة المذكورة آنفاً هو جبريل عليه السلام، وقد ورد ذكر جبريل عليه السلام بصيغة الجمع تكريماً له، إذ أن استخدام صيغة الجمع في الكلام بالنسبة للمفرد يدل على التعظيم والتكريم.

❁ ❁ ❁

يقول الله عز وجل:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾[371]

إن المكان الذي أشير إليه في الآية الكريمة بعبارة "مكاناً شرقياً" حسب رأي المفسرين هو الجهة الشرقية من المسجد الأقصى، أو الجهة الشرقية لبيت مريم البتول، وقالوا بأن المسيحيين لهذا السبب يتجهون إلى الشرق.

ولم يمض وقت طويل حتى أرسل الله تبارك وتعالى جبريل عليه السلام إلى مريم العذراء، حيث يقول في الآية الكريمة:

---

٣٧٠ آل عمران، ٤٨.

٣٧١ مريم، ١٦.

﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [٣٧٢]

إن المقصود بالروح هنا هو جبريل عليه السلام، وقد كان سبب إرساله في مرة على هيئة شاب حسن الهيئة والأناقة هو كي لا ترتعب مريم البتول وتخاف منه، لأن مريم لو رأت جبريل عليه السلام على هيئته الحقيقية، لا شك أنها ما كانت لتتحمل ذلك.

ومع ذلك عندما رأت إنساناً شاباً أمامها خافت كثيراً بسبب عفتها وأدبها المتكامل، ولأنها لم تكن تعرف جبريل عليه السلام، أصابها اضطراب وقلق شديد، وكما جاء في الآية الكريمة:

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ [٣٧٣]

﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [٣٧٤]

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [٣٧٥]

﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ [٣٧٦]

---

٣٧٢ مريم، ١٧.

٣٧٣ مريم، ١٨.

٣٧٤ مريم، ١٩.

٣٧٥ مريم، ٢٠.

٣٧٦ مريم، ٢١.

وتحققت مشيئة الله سبحانه وتعالى، وحملت مريم العذراء، حيث يقول الله تعالى:

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ [377]

وبدأت آلام المخاض تزداد على مريم البتول، فلجأت إلى جذع شجرة نخل يابسة وأسندت ظهرها إليه، ويقول الله ﷻ في ذلك:

﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾ [378]

وفي نهاية الأمر أبصر عيسى عليه السلام الدنيا تحت تلك الشجرة اليابسة، وبذلك خلقه الله تعالى من غير أب.

وهكذا فإن ربنا ﷻ بمقتضى عظمته وقدرته التي لا حدود لها قد خلق عيسى عليه السلام من غير أب، كما خلق من قبله أبانا آدم عليه السلام من التراب دون أب أو أم، وكما خلق أمنا حواء من ضلع آدم عليه السلام من غير أم.

وإن التشابه الذي بين خلق آدم عليه السلام وخلق عيسى عليه من ناحية أن كلاهما قد خلقا بمقتضى أمر الله تعالى الذي تجلى في

---

٣٧٧ مريم، ٢٢.

٣٧٨ مريم، ٢٣.

قوله لهما "**كن**". وقد بين الله تبارك وتعالى هذه الحقيقة في كتابه الكريم بقوله:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آَدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [٣٧٩]

إن هذه الآية الكريمة تشير من جهة إلى عظمة قدرة الخالق ﷻ اللامتناهية، ومن جهة أخرى تؤكد على براءة وعفة مريم العذراء تجاه الافتراءات القذرة والسيئة التي اتهمها بها اليهود بعدما أصيبوا بالحيرة والاستغراب من حالها الخارق للعادة، والذي يمثل معجزة إلهية.

❀ ❀ ❀

لا توجد كتابات ثابتة في المصادر التاريخية بشأن تاريخ ميلاد عيسى عليه السلام، ولم يتم العثور على أية معلومات تتعلق بهذا الموضوع في مختلف الأناجيل، وقد ورد في أحد الأناجيل أن عيسى بن مريم عليه السلام قد وُلد في عهد أحد ملوك اليهود [٣٨٠]، ولكن المصادر الرومانية تشير إلى وفاة هذا الملك قبل ميلاد المسيح عليه السلام، وكل البيانات والأبحاث التي وردت وأجريت في هذا المجال تتناقض، وتفنّد بعضها البعض. وإن كان الأمر كذلك، فلا ينبغي اعتبار معنى **(عيد الميلاد)** أكثر من أسطورة مختلقة لا أساس لها من الصحة.

٣٧٩ آل عمران، ٥٩.

٣٨٠ متى، ٢/ ١.

ولهذا السبب، فبينما يحتفل الكاثوليك بعيد الميلاد في يومي الرابع والعشرين والخامس والعشرين من شهر كانون الأول في كل عام، تحتفل الكنائس الأرمنية بهذا العيد في السادس من شهر كانون الثاني، وأما قسمٌ من البروتستانت فلأنهم يعتبرون أن هذا التاريخ لم يرد في المصادر والكتابات المقدسة بشكل قاطع، لذلك فإنهم لا يحتفلون بعيد الميلاد.

❀ ❀ ❀

وبعد ولادة عيسى عليه السلام، جاء نداء إلى مريم العذراء من عيسى عليه السلام أو من الملك، حيث يقول الله تعالى:

﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [٣٨١]

وتشير الآية الكريمة إلى المعنى الآتي:

"يا مريم، لا تتكدري وتقلقي! فإن الذي تحتك (عيسى عليه السلام) قد خُلق ليكون قائداً له شأن وشرف رفيع بين الناس!".

وتابع الصوت الذي خاطب مريم البتول، قائلاً:

﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [٣٨٢]

ولما أمسكت مريم بغصن شجرة النخل وهزته إليها بدأت الشجرة تساقط الرطب الطازجة عليها، على الرغم من أن الفصل

---

٣٨١ مريم، ٢٤.

٣٨٢ مريم، ٢٥.

كان شتاءً وليس موسم ثمار النخيل. وأخذت مريم البتول تشرب من ماء الساقية التي تجري بجوارها، وتأكل من الرطب الطازجة، وكان عطاء شجرة النخيل لثمارها الجنية في موسم الشتاء عزاءً لمريم العذراء على محنتها التي تمر بها، ونُوديت مريم:

﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ [٣٨٣]

وحسب الروايات، فإن قوم مريم كانوا يصومون عن طريق الامتناع عن الكلام (الصوم عن الكلام) مثلما كانوا يصومون بالامتناع عن الطعام والشراب، أو أنهم كانوا يمتنعون عن الكلام عندما يكونون في حالة الصيام عن الطعام والشراب.

وبولادة عيسى عليه السلام أطلّت إشاعات وافتراءات عظيمة في حقها بين قومه، وتبين الآيات الكريمة هذه الحالة بالشكل الآتي، حيث يقول الله تعالى:

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ [٣٨٤]

﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [٣٨٥]

٣٨٣ مريم، ٢٦.

٣٨٤ مريم، ٢٧.

٣٨٥ مريم، ٢٨.

إن هارون الذي تشير الآية الكريمة إليه ليس هارون شقيق موسى عليه السلام، وحسب أقرب الآراء إلى الصواب التي وردت في هذا الشأن هو أن هارون المذكور في الآية السابقة شقيق مريم الحقيقي، وهو أيضا كان رجلاً صالحاً وعفيفاً مثل أبيه وأمهن ولهذا السبب، فإن القوم تعجبوا من أمر مريم العذراء، وأرادوا التعبير عن تعجبهم واستغرابهم بأنه ليس من المعقول واللائق إطلاقاً لأخت مثل هذا الإنسان أن ترتكب معصية الزنا!

لقد كان تحقير واتهامات بني إسرائيل متتابعة بحق مريم البتول، وهي تستمع إلى أقاويلهم بفارغ الصبر، ولا تكلمهم بناءً على الأمر الإلهي الذي جاءها، ولكن تصرفات بني إسرائيل الرعناء ازدادت تجاهها، وفي نهاية الأمر أدركتها العناية الإلهية.

حيث يقول الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [386]

أنطق الله تعالى عيسى عليه السلام الذي سوف يصبح رسوله في المستقبل، وكلم الناس وهو ما يزال في المهد، إذ قال لهم:

﴿... إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [387]

---

٣٨٦ مريم، ٢٩.

٣٨٧ مريم، ٣٠.

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [٣٨٨]

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [٣٨٩]

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [٣٩٠]

إن كلام عيسى عليه السلام الناس وهو ما يزال طفلاً رضيعاً في المهد أثار حيرة من حوله، وأصابهم بالذهول، فبرّأ بذلك أمه مريم العذراء من الافتراءات التي تعرضت لها على ألسنة القوم.

وهكذا، فإن مريم البتول كلما وُجه إليها سؤال من القوم بقولهم : "من أين لك هذا الطفل الصغير" تشير دائماً إلى رضيعها الصغير ليجيب عن أسئلتهم، وكان عيسى عليه السلام على الرغم من أنه طفل في مهده يقول لهم:

"إن والدتي امرأة ذات عفة وشرف، أيها الجهلة! لا تسيئوا إلى أمي العابدة ذات الحياء والعفة! واعلموا أن الله تعالى قد خلقني وأوجدني في هذه الدنيا من غير والد، وهذه من معجزات الله عز وجل !"

فقال كثير من الناس حول هذا الأمر:

---

٣٨٨ مريم، ٣١.

٣٨٩ مريم، ٣٢.

٣٩٠ مريم، ٣٣.

"إن هذه معجزة ربانية ساطعة لا ريب فيها، فمن المستحيل لطفل وليد للتوّ التكلم وهو ما يزال في المهد، الحق أن هذا الأمر من الله تعالى؛ وهذه حادثة تظهر مدى عظمة الخالق وقدرته."

وأما قسم آخر من الناس فلم يتعظوا، ولم يتراجعوا عن خبثهم ونذالتهم.

ويقول الله تعالى:

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [٣٩١]

إن اعتبار عيسى عليه السلام في الآية الكريمة "قول الحق" هو كونه من أثر قول الله تعالى له "**كن**". وتتبين هذه الحقيقة في آية أخرى، حيث يقول الله تعالى:

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [٣٩٢]

﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [٣٩٣]

❀ ❀ ❀

---

٣٩١ مريم، ٣٤.

٣٩٢ الأنبياء، ٩١.

٣٩٣ التحريم، ١٢.

لقد دحض تكليم عيسى عليه السلام وهو في المهد الكثير من الافتراءات والأقاويل، وأسقطها، إلا أنه لم يمض وقت طويل حتى بدأت الفتنة والافتراءات من جديد، وقال القوم الغافلون:

ـ "أيعقل أن يولد طفل من غير أب؟!"

وبعد ذلك، قالوا:

ـ "لا بد أن زكريا هو من ارتكب الزنا!"، واتجهوا إلى زكريا عليه السلام عندما كان وحيداً في البيت المقدس، وقالوا له:

ـ "أنت الذي زنيت بمريم!" ظلماً وبهتاناً، وهجموا عليه.

ولكي يتقي زكريا عليه السلام شرّهم اختبأ في جوف شجرة، فتمثل الشيطان بهيئة إنسان ودخل بين الباحثين التعساء عن زكريا عليه السلام، ودلّهم على الشجرة التي يختبئ فيها قائلاً:

ـ"شقوا تلك الشجرة بالمنشار إلى نصفين! فلن تفقدوا شيئاً! فزكريا بداخل تلك الشجرة!"

أسرع أولئك التعساء إلى الشجرة وانهمكوا بقطع الشجرة، ولما بدأ المنشار بجرح رأس زكريا عليه السلام تأوّه النبي المظلوم من الألم، إلا أنه جاء نداءٌ قائلاً:

ـ "أنْ يا زكريا! لا تشكو أمرك لأحد!"

فتجمّل زكريا عليه السلام بالصبر والتوكل البالغ، وقسمه المنشار إلى

نصفين ليستشهد ويسلم الروح إلى بارئها، ووصل إلى المراتب العلا عند الإله القدير.

وفي هذه الأثناء انضمّ يوسف النجار خطيب مريم العذراء السابق إلى الافتراء ذاته.

❁ ❁ ❁

لقد أراد الله تعالى حفظ مريم العذراء وابنها عيسى عليه السلام من أذى اليهود المفترين الذين استُشهد زكريا عليه السلام على أيديهم ظلماً وعدواناً، وإحاطتهما بأمنه وسلامه، حيث قال الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [٣٩٤]

جاء في رواية أن هذا المكان في مصر، وقد أقامت مريم العذراء وابنها عيسى عليه السلام هناك مدة اثنتي عشرة سنة، وخلال هذه المدة وقعت عدة حوادث خارقة منها:

ذات يومٍ فُقد بعض النقود من صاحب البيت الذي تقيم فيه مريم وابنها عيسى عليه السلام، وكان يوجد في ذلك البيت فقراء ومساكين. ولم يتمكن صاحب البيت معرفة الشخص الذي أخذ النقود، وأصبح الجميع عرضة للمظنة والاتهام، وقد صعبت هذه الحالة

---

٣٩٤ المؤمنون، ٥٠.

كثيراً على مريم العذراء، وكان من بين أولئك الناس شخص أعمى وآخر كسيح. وأمام حزن أمه قال عيسى عليه السلام لهذين الشخصين:

_ "هيا! أخرجا النقود من المكان الذي خبأتماها فيه!"

فلم يجدا مهرباً أمام هذه المعجزة وأخرجا النقود التي أخذوها مضطرين، ومن بعد هذه الحادثة ارتفع شأن عيسى عليه السلام في نظر القوم هناك.

نبوة سيدنا عيسى عليه السلام:

وبعد أن مكث عيسى عليه السلام مدة اثنتي عشرة سنة عاد إلى القدس، وسكن في مدينة الناصرة، ولهذا السبب يطلق على المسيحي تسمية "نصراني". وقد بُعث عيسى عليه السلام نبياً وهو في الثلاثين عاماً من عمره، فقام على الفور بأداء المهمة التي كُلف بها، وبدأ بدعوة الناس إلى دين التوحيد.

يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [٣٩٥]

يفهم من الآية الكريمة أن الكتب السماوية الأربعة الرئيسية التي مرّ ذكرها في القرآن الكريم قد أنزلت على الأنبياء الذين جاؤوا

٣٩٥ الحديد، ٢٦.

من هذين النبيين نوح وإبراهيم عليهما السلام.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [٣٩٦]

الرهبانية مفهوم وطراز من المعيشة ظهر إلى الوجود بعد المسيحيين، وحسب الروايات فإن المؤمنين قد عملوا بعد عيسى عليه السلام على القضاء على الطغاة المنكرين، وقد تكبدوا خلال الحروب الثلاثة التي خاضوها معهم الكثير من الخسائر في أرواح المؤمنين، فقرر من بقي على قيد الحياة من أهل الإيمان عدم خوض مزيد من الحروب بسبب خوفهم وقلقهم من أن لا يبقى أحد من المؤمنين يدعو الناس إلى الدين في حال تعرضهم للموت أيضاً، وبدأوا مرحلة جديدة انشغلوا فيها بالعبادة فقط دون أمر آخر غيرها، وهكذا فإن هؤلاء الناس قد ابتعدوا عن الفتنة وأظهروا إخلاصاً وتصميماً منقطع النظير لدينهم، وفارقوا كل ملذات الدنيا، واكتفوا بالحد الأدنى من الطعام والشراب، وامتنعوا عن الزواج؛ وفرغوا أنفسهم للعبادة في الجبال، والكهوف، والمغارات، والحجر المنعزلة عن الناس، ولكن كثير من هؤلاء المؤمنين لم يلتزموا بهذا الأمر،

٣٩٦ الحديد، ٢٧.

فأنكروا دين عيسى عليه السلام، ودخلوا في دين حكّامهم؛ وخرجوا على الناس بعقيدة التثليث؛ وعندما حصلت بعثة النبي ﷺ أنكروا نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، ووقعوا في انحرافات مشابهة كثيرة.

❀ ❀ ❀

لقد كان عيسى عليه السلام يتابع تبليغ الناس الدين، إلا أن كثيراً من الناس كانوا معاندين ومصرين على كفرهم.

وقد أظهر عيسى عليه السلام الكثير من المعجزات، وصدّق كتاب التوراة الذي أُنزل على موسى عليه السلام، وبلّغ الناس بعض الأحكام التي غيرها الله عز وجل. حيث يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [٣٩٧]

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [٣٩٨]

---

٣٩٧ آل عمران، ٥٠- ٥١.

٣٩٨ الصف، ٦.

وقد ورد في القسم الرابع عشر من إنجيل يوحنا أن عيسى عليه السلام قال:

"وأنا أطلب من الأب فيعطيكم معزياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد؛ روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله، لأنه لا يراه ولا يعرفه، وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم ويكون فيكم" [٣٩٩]

وقد قال في القسم السادس عشر:

"لكني أقول لكم الحق: إنه خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المُعَزِي، ولكن إن ذهبت أرسلُه إليكم * ومتى جاء ذاك يُبَكِتُ العالم على خطيَةٍ وعلى بر وعلى دينونةٍ * وإن لي أموراً كثيرةً أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن * وأما متى جاء ذاك، روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يَسمعُ يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية" [٤٠٠]

إن كلمة "**المُعَزي**" مقابلة لكلمة "الحمد". وبعض المسيحيين يستخدمون كلمة "المخلص" للتعبير عن ذلك؛ والبعض الآخر من المسيحيين فسروا تلك الكلمة بـ "الحمَاد" و "الحميد"، وإن كلمة "المُعَزي" تتوافق مع معنى أحمد ومحمد وبالتالي يُفهم منها بشكل واضح أنها إشارة إلى ذلك الاسم الأصلي.

---

٣٩٩ يوحنا، ١٤/١٦-١٧.

٤٠٠ يوحنا، ١٦/٧-٩، ١٢-١٣.

ويوجد في الباب التاسع والثلاثين من إنجيل برنابا الحوار التالي:

"قال الحواريون: ما هو الاسم المسيح الذي قلته لنا، وكيف نعرف مجيئه؟ فأجاب عيسى عليه السلام على سؤالهم بالكلام الآتي:

" اسم المسيح (الرسول) موجود في الجمال الذي يبعث الحيرة والإعجاب، منحه الحق تعالى هذا الاسم عندما خلق نوره، ووضعه في الرقي والسمو السماوي، وقال بعد ذلك:

" من أجلك أنت خلقت الجنة والدنيا والكثير من المخلوقات، وأنا اليوم أهبك هذه كلها، وكل من عظّمك نال النعم مني، ومن أنكرك تعرض للعنتي، وسوف أبعثك إلى الدنيا رسولاً من عندي، وإنك سون لن تنطق إلا بالحق، و ربما تزول الأرض والسموات ولكن إيمانك سوف يدوم للأبد"

"اسم ذلك الرسول أحمد"

وبناءً على هذا صاح المؤمنون الذين اجتمعوا بجوار سيدنا عيسى عليه السلام وتضرعوا بالدعاء:

يا أحمد عجّل المجيء والفرج حتى تنقذ الدنيا..." [٤٠١]

❀ ❀ ❀

٤٠١ يمكن الاطلاع على أقوال مشابهة في الأبواب، ٤١ و ٩٧ من إنجيل برنابا.

وبمرور الوقت ازداد غيظ وحقد المنافقين على عيسى عليه السلام كثيراً، وعندما أدرك عيسى عليه السلام هذا الأمر قال للرجال الاثني عشر الذين كان قد اختارهم تلامذة له من بين القوم أي "الحواريين":

"من منكم يقوم بمساعدتي من أجل خدمة دين الله عز وجل، والمحافظة عليه؟

فقال الحواريون جميعهم:

"نحن أعوانك ومساعدوك، وسوف نقوم بكل ما نملك بمساعدتك وإعانتك في سبيل الله تعالى، لأننا أعطينا قلوبنا لدينه، واشهد بأننا مسلمون صادقون وحقيقيون نتبع دينك ولا نفارقه!"

ويقول الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز حول هذا الأمر:

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [٤٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [٤٠٣]

---

٤٠٢ آل عمران، ٥٢.

٤٠٣ الصف، ١٤.

إن كلمة "حواري" دخلت من اللغة الحبشية إلى اللغة العربية وأصلها "حواريا"، وتحمل معنى "المساعد". ومن جهة أخرى فإنها تأتي بمعنى "الإنسان المُختار."

وأطلق اسم الحواريين على المؤمنين الاثني عشر الذين سبقوا الجميع في الإيمان بعيسى ﷺ، وأخلصوا في خدمته ومساعدته، وأُطلق عليهم اسم "أنصار الله" أيضاً، وقد تم اختيار الحواريين من قبل عيسى ﷺ من أجل نشر المسيحية بين الناس، ومن بين هؤلاء الحواريين برنابا كاتب الإنجيل الشهير برنابا ، وسُمي هذا الإنجيل باسمه.

المائدة المنزلة من السماء:

لقد طلب الحواريون من عيسى ﷺ أن يدعو ربه من أجل أن ينزل عليهم مائدة من السماء. فسألهم عيسى ﷺ:

"هل ترتابون في قدرة الله ﷻ؟ كيف تجرؤون على طلب مثل هذا الأمر؟"

قال الحواريون:

"لا نقصد بطلبنا شيئاً مما ذكرت. وإنما طلبنا مائدة من السماء حتى ننال من لطف الله تعالى وكرمه، وتطمئن قلوبنا أكثر!."

فاغتسل سيدنا عيسى ﷺ وصلى ركعتين لله تعالى، ومن ثم لبس أرثّ الثياب وأقدمها لإظهار التذلل، والتجأ إلى الله ﷻ

بالدعاء، وتضرع إلى الله تعالى أن ينزل عليه مائدة من السماء وأن يجعل يوم إحسانه ذاك عيداً لهم.

فتقبل الله تعالى دعاءه ونزلت المائدة من السماء، وكان على المائدة سمك مشوي، وعلى جانب الرأس ملح، وعلى جانب الذيل يوجد الخل، وقد زُيّنت المائدة بالخضار، وكان يوجد على الخبز زيتون، وعسل، وجبن وغيرها من النعم الكثيرة.

فقال الحواريون هذه المرة:

"يا نبي الله! أظهر لنا معجزة داخل هذه المائدة!

قال عيسى عليه السلام للسمكة التي على المائدة:

"أيتها السمكة! عودي إلى الحياة بإذن رب الكائنات جميعاً!

فأُحييت السمكة، وأصاب الحواريين خوفٌ ورعب شديد، فقال عيسى عليه السلام هذه المرة:

"أيتها السمكة! ارجعي إلى سابق عهدك بإذن ربنا عز وجل!

وعادت السمكة إلى حالتها السابقة، فقال الحواريون لعيسى عليه السلام:

"يا روح الله! كل أنت قبلنا!"

فقال لهم عيسى عليه السلام:

"لا! إن من طلب المائدة يأكلها!"

فأصبح الحواريون في حالة خوف وجزع، ولما أحسّ عيسى ﷺ بذلك أمر قائلاً:

"ليأتي المرضى والفقراء ويأكلوا من هذه المائدة!"

وعلى وجه السرعة أخبروا الفقراء والمرضى بالأمر، فجاء ألف وثلاثمائة شخص وأكلوا من هذه المائدة، وعلى الرغم من ذلك لم تنته السمكة، وشُفي جميع المرضى الذين أكلوا من هذه المائدة؛ وأما من لم يأكلوا فقد أصابهم ندم شديد.

وجاء في أخرى، أن عيسى ﷺ أمَر الحواريين بالصوم مدة ثلاثين يوماً، ولما أتمّ الحواريون صيامهم طلبوا من عيسى ﷺ مائدة تنزل عليهم من الناس يكفي طعامها جميع الفقراء والأغنياء، وأن يجعل ذلك اليوم عيداً لهم، وذلك من أجل أن يطمئنوا إلى قبول العبادة التي أدوها.

قلِق عيسى ﷺ وخاف على حوارييه من أن لا يتمكنوا من القيام بشكر هذا الطلب حق القيام، فأخذ يعظهم وينصحهم محاولاً منعهم من هذا الطلب والتراجع عنه.

ولما أصرّ الحواريون على رغبتهم ولم يتراجعوا، اتجه عيسى ﷺ إلى مُصلّاه واصطّف خلفه الحواريون. وأخذ روح الله يبكي متضرعاً إلى الحق سبحانه وتعالى، ولما انتهى من التجائه وتضرعه نزلت عليهم مائدة من السماء بلطف الله تعالى وإحسانه، وكان

يحمل المائدة شخصان على رأسهما عمامة. فدعا عيسى عليه السلام ربه من أجل أن تكون هذه المائدة رحمة لهم وليس عذاباً وعقاباً.

اقتربت المائدة النازلة من السماء ووقفت أمام عيسى عليه السلام، أزاح روح الله الغطاء عن المائدة، فكانت عليها سبع سمكات، وسبع كعكات، وخلّ، ورمان، ومختلف أنواع الفاكهة.

وبدأت المائدة بالنزول يومياً، واستمرت هذه الحالة مدة أربعين يوماً، حيث كانت المائدة تنزل في مقتبل الصباح فيأكل منها كل الناس من الأغنياء والفقراء، وترتفع إلى السماء وقت الظهيرة، وكانت المائدة خلال ذلك تنزل في مكان مظلل.

وبعد ذلك، جاء وحي من الله تعالى بأن "لا يأكل من المائدة الأغنياء والأصحاء!". وأثار هذا الأمر الإلهي حنقَ ذوي القلوب الفاسدة من الأصحاء والأغنياء، فاتبعوا أهواء أنفسهم وغضبوا من حرمانهم من تلك المائدة، وبدأوا بالاستهزاء قائلين:

"أتعتقدون بأن هذه المائدة حق فعلاً؟

وكان عدد هؤلاء ثلاثون أو ثلاثمائة وثلاثون شخصاً، وقد تعرّضوا إلى غضب الله تعالى ومُسخوا ذات ليلةٍ إلى خنازير، فذاقوا بذلك العذاب الذي أخبرهم الله به، وأما الآخرون فقد أصابهم خوفٌ عظيم لمّا رأوا حالة هؤلاء بأم أعينهم، والتجأوا إلى عيسى عليه السلام.

وعندما كان هؤلاء الذين مُسخوا إلى خنازير يرون عيسى عليه السلام كانوا يطلبون منه علاجاً لحالتهم، حيث كانوا يتجولون في الأنحاء ويقومون بحركاتٍ تعبر عن طلبهم هذا، وعندما يخاطب عيسى عليه السلام هؤلاء بأسمائهم كانوا يستغرقون بالبكاء؛ فيشيرون برؤوسهم طالبين العون والمدد من عيسى عليه السلام، ولكن لأنهم قد ارتكبوا معصية كبيرة في حق الله تعالى كان هذا العذاب حقاً عليهم، واستمر مدة ثلاثة أيام ثم هلك الجميع، واختفت جثثهم.

ويروى أن عيسى عليه السلام كان يقول عندما يمر بجانبه خنزيرٌ من أولئك الممسوخين "لك الخلاص"، فكان يسأله الذين حوله:

"لماذا تقول لهم ذلك، بالرغم من أنهم قد استحقوا العذاب الإلهي؟"

فيقول لهم عيسى عليه السلام:

"لكي لا أعوّد فمي على قول السوء!."

❀ ❀ ❀

يبين الله تعالى لنا حادثة نزول المائدة من السماء في كتابه الكريم، حيث يقول عز وجل:

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. قَالُوا

نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ. قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ. قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾[٤٠٤]

وكما يتبين من الآيات الكريمة فإن طلب الحواريين من عيسى عليه السلام مائدة تنزل عليهم من السماء كان من أجل اطمئنان قلوبهم بالإيمان. وليس بسبب شكٍ أو ريب في قلوبهم. إذ كانوا يرغبون برؤية معجزة إلهية تتجلى أمام أبصارهم، ولأن هذا الطلب يرتب عليهم مسؤوليات عظيمة تجاه أنعم الله تعالى، فقد قال لهم عيسى عليه السلام:

﴿اتَّقُوا اللَّهَ واخشوه إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

وينبغي التنبيه هنا إلى أمرين:

١. إن عيسى عليه السلام قال لمن طلب منه معجزة وحدد طبيعتها، اتقوا الله واخشوه!. وذلك لأن طلب المعجزة لمجرد رغبة النفس بذلك يشكل جرماً، وهو تجاوز للحد، وهو نوع من الجرأة على الله تعالى، وإن طلب من رأى المعجزات مزيداً منها،

---

٤٠٤ المائدة، ١١٢- ١١٥.

طلب خاطئ في غير محله، ولا يليق هذا الأمر بإنسان مؤمن، ويناقض واجب تسليم الأمور لله تعالى.

٢. ومن جهة أخرى، فإن قول عيسى عليه السلام **"اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ"**، فيه توجيه للقوم، بأنه: إن كنتم تريدون تحقيق طلبكم فالتزموا بتقوى الله تعالى.

❀ ❀ ❀

وجاء في الحديث الشريف الذي رُوي عن عمار بن ياسر رضي الله عنه:

"أنزلت المائدة من السماء خبزا ولحما، وأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا لغد، فخانوا وادخروا ورفعوا لغد، فمسخوا قردة وخنازير" [٤٠٥]

ذهاب عيسى عليه السلام والحواريين إلى نصيبين:

رُوي عن سلمان الفارسي رضي الله عنه:

أن عيسى بن مريم عليه السلام أُمر بدعوة ملك نصيبين المعروف بكبره، وظلمه، وبطشه إلى الإيمان، ففكر في البداية أن يرسل إلى هناك بعضاً من حوارييه، وسألهم:

- من يود التوجه إلى نصيبين؟

فقال يعقوب:

٤٠٥ الترمذي، التفسير، ٥/ ٣٠٦١.

- أنا سوف أذهب.

فالتحق به كل من توماس وشمعون، حيث قال شمعون لعيسى عليه السلام راجياً:

- يا روح الله! إن أذنت لي ذهبت أنا أيضاً معه، ولكن إن وقعنا في ضائقةٍ وناديتك، فلا تحرمنا من مساعدتك، وحفظك، ورعايتك لنا!.

فخرج الثلاثة في طريقهم إلى نصيبين، وعندما اقتربوا من المدينة لم يدخلها شمعون، وإنما بقي خارجها وقال:

- إن احتجتما إلى المساعدة سآتيكما.

فدخل شمعون وتوماس إلى المدينة، وجمعوا الناس حولهم وبدأوا بدعوتهم إلى عقيدة التوحيد، ولأن الناس كانت لديهم أفكار خاطئة عن عيسى عليه السلام وأمه مريم العذراء ويظنون سوءً بهما، فلم يتقبلوا دعوتهما وردوها، حتى أنهم لعنوهما وسبوهما، وفي النهاية اقتادوا توماس إلى الحاكم. فأمر الحاكم بتقطيع يديه ورجليه، واقتلع عينيه وألقاه في السجن.

وفي هذه الأثناء تنكر شمعون ودخل سراً إلى المدينة، فتقرب من الملك وأقام معه علاقة طيبة، وأصبح من منادميه ورجال مجلسه، وذات يوم طلب شمعون مساعدة الحاكم لكي يوجه بعض الأسئلة إلى توماس، وتصرّف الاثنان وكأنهما لا يعرفان بعضهما البعض.

فقال شمعون سائلاً:

- يا هذا! ما قولك؟

فقال توماس:

- إن قولي هو أن عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله.

وبعدها تابعا حديثهما كما يلي:

- ما هو الدليل على صحة قولك هذا؟
- شفاء كل مريض من مرضه.
- إن هذا ما يفعله الأطباء أيضاً، هل لديك دليل آخر؟
- إنه يعلم ما يأكله الناس في بيوتهم، وما يدخرون.
- هذا ما يعرفه الكهنة أيضاً، فهل من دليل آخر؟
- إنه يصنع من الطين طيراً ويطيره.
- إن هذا ما يفعله السحرة أيضاً، هل لديك من دليل غيره؟
- إنه يحيي الموتى!..
- إن هذا الأمر فوق طاقة البشر، فعلينا أن ننادي عيسى عليه السلام، فإن كان يحيي الموتى حقاً نؤمن به!

سُرّ الملك بكلام شمعون وتقبله بقبول حسن، فأوصلوا الخبر على الفور إلى عيسى عليه السلام، وقد أتى إلى مدينة نصيبين، وتصرف كأنه لا يعرف شمعون أبداً.

فقال شمعون للحاكم:

- إذا أردتم نمتحن توماس أيضاً مع عيسى عليه السلام .

فأحضروا توماس إلى مجلس الملك، ولما مسح عيسى عليه السلام على يدي ورجلي توماس عاد جسمه إلى حالته السابقة، وبعد ذلك مسح بيده على عيني توماس فاستعاد بصره.

فنظر شمعون إلى الحاكم وقال:

- إن هذا دليل على نبوته حقاً.

وبعد ذلك قال شمعون سائلاً:

- يا عيسى! ماذا أكل الليلة الذين في مجلسي في بيوتهم؟ وما الذي ادّخروه؟

فأخبر عيسى عليه السلام عن كل ما أكله كل واحد منهم.

فكلفه بتصنيع خفاش من الطير، فصنعه عيسى عليه السلام وطيّره أمام أعينهم. وطُلب منه إشفاء المرضى، فاستعاد المرضى صحتهم وشُفي الجميع، وطلبوا منه إحياء ميت، وفوق ذلك عيّنوا له سام بن نوح عليه السلام لكي يحييه، فأحيا عيسى بن مريم عليه السلام سام بن نوح عليه السلام بإذن الله تعالى، فقالوا لسام:

- هل كنت مسناً هكذا عندما توفاك الله تعالى؟

فقال سام:

- لا! ولكني ظننت أن القيامة قد قامت!..

وبعد ذلك صدق سام بن نوح عليه السلام بنبوة عيسى عليه السلام، ومن ثم توفي من جديد.

وأمام هذه المعجزات الخارقة والتي لا مرية فيها آمن الحاكم وكل جنوده بعيسى عليه السلام.

ويُفهم من هذه الحادثة أن على المسلم صاحب العقل السليم والإدراك القويم أن يتصرف بحكمة وفراسة، لأنه ليس كل ما يُعرف يقال، وإنما ينتظر الوقت المناسب ويحضر الأرضية المناسبة ليقوله.

حبيب النجار:

أرسل عيسى عليه السلام اثنين من حوارييه إلى أنطاكية، ودعا هذان الحواريان الناس إلى ترك عبادة الأوثان والأصنام والتوجه إلى الإيمان بالله تعالى، إلا أنه كان هناك ملك وثني فأمر بالقبض على الدعاة الجدد وألقاهم في ظلمات السجن.

وبسبب ذلك فقد أرسل عيسى عليه السلام رئيس الحواريين شمعون إلى تلك البلاد.

وأول ما فعله شمعون هو التقرب من الملك وإقامة علاقة صحبة معه، وبعد أن وصل بتأثيره الإيجابي على الملك وحاشيته إلى درجة عالية من الكمال والثبات، بدأ بدعوتهم إلى الإيمان بأسلوب لين وحسن، فاطمأن الملك وحاشيته إلى هذه الدعوة الجديدة وآمن جميعهم، إلا أن الشعب لم يؤمن.

وعندما سمع شخص يُدعى حبيب النجار بأمر اعتراض الناس على الدعوة الجديدة خرج من بيته الذي يقع بعيداً عن المدينة ودخل بين الناس. فكلم الناس عن إيمانه بالرسل الجدد ودعاهم إلى الإيمان بهم مثله، إلا أن الناس الغافلون لم يسمعوا كلامه وركبوا رؤوسهم واتبعوا أهواءهم وغضبهم فقتلوا حبيب النجار لينال شرف الشهادة وينتقل إلى الرفيق الأعلى.

ويبين القرآن الكريم هذه الحادثة في قوله تعالى:

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [406]

﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾ [407]

﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ [408]

﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [409]

﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [410]

---

٤٠٦ يس، ١٣.

٤٠٧ يس، ١٤.

٤٠٨ يس، ١٥.

٤٠٩ يس، ١٦.

٤١٠ يس، ١٧.

﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٤١١]

﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾[٤١٢]

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾[٤١٣]

﴿اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[٤١٤]

وبسبب هذه النصائح استداروا إلى الرجل وقالوا له:

"أأنت أيضاً على دين هؤلاء؟ فأجاب عليهم الرجل بالكلام الآتي كما ينقله لنا القرآن الكريم:

﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٤١٥]

﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ﴾[٤١٦]

---

٤١١ يس، ١٨.

٤١٢ يس، ١٩.

٤١٣ يس، ٢٠.

٤١٤ يس، ٢١.

٤١٥ يس، ٢٢.

٤١٦ يس، ٢٣.

﴿إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[417]

﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾[418]

إلا أن القوم الظالم ذوي القلوب القاسية لم يستمعوا إلى كلام الرجل وأمطروه بالحجارة، فقال حبيب النجار وهو مشرفٌ على الموت في الرمق الأخير من حياته:

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ. بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾[419]

يقول مجاهد رحمه الله تعالى:

"إن أحمق المخلوقات هو النفس، لأنها تطلب دائماً أشياء معادية لها."

وهكذا فإن أولئك التعساء لم يتقبلوا دعوة حبيب النجار المباركة والسامية، واتهموه بالشؤم لأن دعوته لم توافق أهواء أنفسهم، بينما كان حبيب النجار إلى تأمين سلامتهم وسعادتهم الدنيوية والأخروية، إلا أنهم اتبعوا أنفسهم فلم يؤمنوا، وخسروا آخرتهم.

---

٤١٧ يس، ٢٤.

٤١٨ يس، ٢٥.

٤١٩ يس، ٢٦-٢٧.

رفع عيسى عليه السلام إلى السماء:

لقد أظهر بنو إسرائيل إهمالاً وتراخياً كبيراً في الدين الذي أُرسل به موسى عليه السلام، وأبدوا اعتراضات كثيرة على ذلك الدين وخرجوا عن الطريق السليم تماماً. وعلى الرغم من قيام الأنبياء الذين جاؤوا بعد موسى عليه السلام بنصحهم وإرشادهم بشكل دائم، إلا أن هذا الشعب الذي اتصف بالعنف والقسوة أمعن في الفساد وواجه بالشدة والعنف؛ وحتى أنه وصل بهم الأمر إلى قتل أنبيائهم، وحملوا صفة قاتل الأنبياء على مرّ التاريخ.

وعندما ظهر عيسى عليه السلام كان هؤلاء القوم في حالة من الشتات والتفرق الكبير. وكانوا ينتظرون مخلصاً ينتشلهم مما هم فيه. وكانوا يريدون أن يكون نبيهم المنتظر شديد البأس، قوي العزيمة، ومحارباً صلباً، لأنه كان على ذلك النبي أن يخلّصهم من الأسر ويحقق لهم منافع ومصالح كثيرة.

ولذلك لما أُرسل إليهم عيسى بن مريم عليه السلام بدعوة الهداية وجده اليهود ليناً ولطيفاً للغاية، ولم يودوا اتباعه والإيمان به.

ولكن على الرغم من كل شيء فقد تجمّل عيسى عليه السلام بالصبر وبذل جهوداً جبارة من أجل نشر مشاعر المحبة والسلام في الأرض، وإصلاح العلاقات بين الناس وإحلال الصلح والتفاهم بينهم، وعمل على تخليص اليهود من سبل الانحراف والفساد التي وقعوا فيها، إلا أن هؤلاء اليهود القساة المنحرفين الذين تلطخت

أيديهم بدماء الأنبياء ضاقوا ذرعاً بهذه الدعوة، وقرروا في النهاية قتل سيدنا عيسى عليه السلام، فبدأوا بممارسة الظلم والاضطهاد بحق عيسى عليه السلام وبحق أتباعه الذين اجتمعوا حوله.

وتحت وطأة الظلم والعذاب الذي تعرض له أتباع عيسى عليه السلام ارتدّ من الحواريين كل من يودس، وإسهار، ويوط (يهودا)، وعلاوة على ذلك فقد دلّ يهودا الجناة اليهود الذين قتلوا زكريا ويحيى عليهما السلام على مكان تواجد عيسى عليه السلام، ولكن يهودا صار من ضمن الذي تعرضوا لغضب الله وعذابه ونال عقابه العادل بأن شُبه لليهود بعيسى عليه السلام وصلب مكانه، وأما عيسى عليه السلام فقد رُفع إلى السماء.

❀ ❀ ❀

هناك عدة روايات بشأن رفع عيسى عليه السلام إلى السماء:

فحسب الرواية الواردة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن جماعة من اليهود أطالوا ألسنتهم بحق عيسى عليه السلام وأمه مريم العذراء، فرفع عيسى عليه السلام يديه إلى السماء داعياً:

- يا رب! لقد خلقتني بقولك لي "كن"، فالْعن اللهم الذين نالوا بألسنتهم مني ومن أمي!

واستجاب الله دعاءه فمسخ الذين تطاولوا عليه بالافتراءات والسخرية قردة وخنازير.

وبعد هذه الحادثة قرر اليهود قتل عيسى ﵇، فدفعوا ليهودا وهو أحد حواري عيسى ﵇ بعض المال وعرفوا منه مكان عيسى ﵇، إلا أن جبريل ﵇ لم يكن يفارق روح الله أبداً من اجل حمايته وحفظه من أذى اليهود، حيث يقول الله تبارك وتعالى:

﴿... وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ...﴾ [٤٢٠]

وفي نهاية الأمر رفع الله ﷻ عيسى إلى السماء، وكان عمره إذ ذاك ثلاثة وثلاثون عاماً، وعندما دخل اليهود إلى المكان الذي كان يتواجد فيه عيسى ﵇ وجدوا هناك يهودا الذي ألقى الله تعالى عليه شبه عيسى ﵇ فقتل اليهود يهودا بدلاً من روح الله عيسى بن مريم ﵇. ويقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم بشأن هذا الأمر:

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا. وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [٤٢١]

﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [٤٢٢]

---

٤٢٠ البقرة، ٢٥٣.

٤٢١ النساء، ١٥٦– ١٥٧.

٤٢٢ النساء، ١٥٨.

لقد حفظ الله ﷻ عيسى وحماه من اليهود ومنعهم من قتله، وهذا الأمر قطعي لا ريب فيه، ولا شك في أن الله تعالى قد رفع عيسى إليه، ولكن هناك عدة روايات تتعلق بكيفية وشكل هذا الرفع، وزمانه. وحسب أكثر الروايات أن الله تعالى قد رفع عيسى عليه السلام إلى مكانٍ ما في السماوات، وسوف يرسله إلى الدنيا مرة أخرى قبل يوم القيامة، وسوف يؤمن به جميع المسيحيين ويدخلوا الإسلام، ولن يبق على وجه الأرض غير دين الإسلام، حيث يقول الله ﷻ:

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [٤٢٣]

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [٤٢٤]

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [٤٢٥]

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [٤٢٦]

---

٤٢٣ آل عمران، ٥٤.

٤٢٤ آل عمران، ٥٥.

٤٢٥ آل عمران، ٥٦.

٤٢٦ آل عمران، ٥٧.

بعد رفع سيدنا عيسى عليه السلام إلى السماء:

لقد افترق المسيحيون بعد رفع عيسى عليه السلام إلى السماء إلى اثنتين وسبعين فرقة، وظهرت عقيدة التثليث، فقالت فرقة اليعقوبيين من المسيحيين: "لقد حل عزّ وجلّ في عيسى عليه السلام، وقد تجسّد في جسم عيسى عليه السلام وظهر في شكله، أي أن الله هو عيسى..."

لقد جاءت هذه العقيدة أو الرأي من الفلسفة الهندية، إذ أن القدس كانت واقعة دائماً تحت تأثير الحضارة الهندية والرومانية، وحسب الفلسفة الهندية فإن الله عزّ وجلّ قد نزل إلى الدنيا، وحل في "كريشنا" المولود من أب وأم بشريين، وأصبح كريشنا بذلك الخالق؛ وصار هو الله.وعلى أية حال فإن الله تبارك وتعالى يقول:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [٤٢٧]

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [٤٢٨]

٤٢٧ المائدة، ٧٢.

٤٢٨ المائدة، ٧٥.

يبين الله تعالى في هاتين الآيتين بما لا يدع مجالاً للشك بطلان عقيدة التثليث، وأنها عبارة عن شرك بالله تعالى.

❁ ❁ ❁

لقد انقسمت الفرق الاثنتان والسبعون التي تشكلت بعد رفع عيسى إلى السماء، انقسمت إلى ثلاثة أقسام رئيسية بحسب عقيدتها:

١. فقسم قالوا: "بأن عيسى كان هو الله بيننا، وذهب الآن."

٢. والقسم الثاني قالوا: "بأن عيسى ابن الله، وذهب الآن."

٣. والقسم الثالث قالوا: "بأن الله عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله. وقد كرمه الله تعالى بأن رفعه إلى السماء."

فأما القسمان الأول والثاني فإنهم وقعوا في الشرك والضلال، وأما القسم الثالث فإنهم المؤمنون حقاً.

❁ ❁ ❁

وبعد أن رُفع عيسى عليه السلام إلى السماء فقد استمر اليهود بإيذاء الحواريين والإساءة إليهم. وقد أظهر الحواريون الحقيقيون والصادقون صبراً وجلداً منقطع النظير في تحمل الظلم والإيذاء الذي تعرضوا له على أيدي اليهود الظالمين.

ومن بين هؤلاء الحواريين كان برنابا، وقد نقلت المعلومات التي سنذكرها والمتعلقة بالأيام الأخيرة لعيسى عليه السلام في البابين / ٢٢١ - ٢٢٢ / من إنجيل برنابا الذي سُمي باسمه، نقلت ما يلي:

لما دخل الجنود الرومان إلى البيت الذي يتواجد فيه عيسى عليه السلام من أجل إلقاء القبض عليه، أخرجه أربعة من الملائكة العظام من نافذة البيت ورفعوه إلى السماء، فقال الجنود الرومان ليهودا الذي كان في البيت:

- أنت عيسى بن مريم! ومن ثم أمسكوا به وأخذوه إلى الصليب فعلقوه به وقتلوه رغم كل توسلاته إليهم وإنكاره بأنه ليس عيسى، إذ أن الله تعالى كان قد ألقى شبه عيسى عليه السلام على يهودا.

وبعد ذلك ظهر عيسى عليه السلام لأمه مريم البتول وحوارييه، وقال لأمه مريم:

- يا أماه! إنك ترين بأني لم أعلق على الصليب، وإنما جيء بيهودا بدلاً عني إلى الصليب وعُلّق عليه، فاحذروا من الشيطان؛ لأنه سوف يزين الدنيا في أعينكم ويعمل على تضليلكم وخداعكم.

وبعدها دعا الله تعالى من أجل أن يحفظ ويحمي المصدقين والمؤمنين، ومن ثم توجه إلى حوارييه بالقول:

- ليرحمكم الله تعالى ويسبغ عليكم نعمه الدائمة!

وبعد هذه الكلمات رفعه الملائكة الأربعة مرة أخرى إلى السماء.

❀ ❀ ❀

بعد رفع عيسى عليه السلام إلى السماء بأربعين عاماً (في عام ٧٠ ميلادي) نهب الرومان القدس واستباحوها تحت إمرة قائدهم تيتوس، فقتلوا قسماً من اليهود وأسروا القسم الآخر، وأحرقوا التوراة وكل الكتب الأخرى التي كانت بين أيديهم، ودمّروا القدس وخربوها، وهدموا معبد سليمان عليه السلام، وبقي من أثر المعبد حائط واحد فقط، ويُعرف هذه الحائط لدى اليهود اليوم بـ"حائط المبكى" (الحائط الغربي) حيث يذهبون إلى هذا الأثر المتبقي فيقفون أمامه ويغرقون في الدموع والبكاء مستذكرين تلك الأيام الأليمة، ولم يجتمع شمل اليهود بعد تلك الأحداث، وعاشوا حياة ذل ومهانة.

وعندما ارتد الحواري يهودا عن دينه اختار الحواريون ماتياس بدلاً منه، فانتشروا في أنحاء البلاد وبدأوا بدعوة الناس إلى دين عيسى عليه السلام، ونشره بينهم.

وعندما بدأت الديانة العيسوية بالانتشار بين الناس، اتحدّ اليهود والرومان، واليونانيون، والوثنيون فيما بينهم لمواجهة هذا الدين الذي انتشر في البلدان، فألقي باليهود الأوائل الذين اعتنقوا المسيحية في ساحات السيرك والألعاب بين السباع لتمزقهم بأنيابها شرّ تمزيق، وأنزلوا بهم مختلف صنوف الظلم والتعذيب.

وقد كان زنوس اليهودي ورجاله يلقون بمسيحيي نجران الذين لم يقبلوا باليهودية، يلقونهم مكبلين إلى الخنادق، فيشعلون بهم النيران ويستمتعون بالفرجة إليهم، وبالرغم من كل هذا الظلم

فلم يترك المؤمنون الصادقون عقيدتهم ولم يتزحزحوا عنها، وإنما كانوا يستقبلون الموت بكل سعادة ورضا في سبيل دينهم ودعوتهم، وقد ورد ذكر هؤلاء في القرآن باسم **"أصحاب الأخدود"**، حيث يقول الله تعالى في كتابه الكريم بشأنهم:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ. وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ. وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ. قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ. النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ. إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ. وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ [٤٢٩]

ولم يكتفوا بهذه الوحشية، ولم تشفي كل هذه المظالم غليلهم، وإنما وضعوا خططاً لاجتثاث المسيحية من جذورها، حيث قام بولس اليهودي بكتابة عدة رسائل مختلفة ضمَنها أكاذيبه، وافتراءاته، وقال فيها:

- إن عيسى ابن الله!.

وأحل في تلك الرسائل شرب الخمر وأكل لحم خنزير، وقال بعدم لزوم الختان، وعدم وجوب اتباع النواهي المتعلقة بيوم السبت، وهكذا فإنه أعلم الناس في رسائله بعدم ضرورة أو وجوب اتباع الأوامر والنواهي الواردة في شريعة موسى عليه السلام. وورد فيما قاله أيضاً أن الإيمان وحده يكفي للإنسان ولا حاجة له إلى القيام

---

٤٢٩ البروج، ١ – ٧.

بالعمل، بينما عمل سيدنا عيسى ﷺ بشريعة موسى ﷺ، حيث أنه ورد في الإنجيل كلاماً مسنداً إلى سيدنا عيسى السلام بأنه قال:

"لا أني جئت لأنقُضَ الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل." [٤٣٠]

ولهذا فإن عيسى ﷺ ظل طيلة سنوات حياته يتعبد ربه في معابد اليهود، وقد أجري له الختان، وامتنع عن شرب الخمر، وأكل لحم الخنزير وحرمهما على أتباعه وحذّرهم منهما، بينما بولوس وأصحابه شرعوا وحللوا المحرمات وحرفوا الدين دونما وازعٍ أو تأثر بأوامر الله تعالى ولا تعاليم ومواعظ المسيح عيسى بن مريم ﷺ، وعملوا على تكوين المسيحية من جديد بما تتوافق مع أهوائهم وشهواتهم النفسية .

وقد كان بولوس يقول: "إن الله واحد، وصفاته ثلاثة". وكان يؤلف الدين وفق فلسفة أفلاطون، وفلسفة أفلاطون تتلخص باختصار فيما يلي:

١. الإله الخالق الذي لا يُرى،

٢. المنطق أو العقل الذي هو المساعد والوزير المرئي والمعلوم للإله.

٣. الكائنات المرئية والمعلومة.

٤٣٠ متى، ٥/ ١٧.

ورتب بولوس أيضاً العقيدة الألوهية للمسيحية وفق الترتيب الآتي:

١. الله.

٢. ابن الله عيسى.

٣. روح القدس.

وهكذا فقد دخلت عقيدة التثليث المعروفة اليوم إلى المسيحية.

ولقد كانت الظروف في تلك الفترة مساعدة لظهور أو نشر مثل هذه العقيدة، وذلك لأن الناس لم يكونوا يتقبلون اليهودية بسبب تعصبهم المفرط، وقد وجدوا عقيدة التثليث أقرب إلى عقيدة تعدد الآلهة التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم.

وبعد ذلك انقسمت المسيحية إلى قسمين هما:

١. البولوسيون: وقد أصبح الملوك ممن آمنوا بهم، ولذلك فقد ازدادوا قوة وشوكة.

لقد قام بولوس الذي اعتنق المسيحية بعد رفع عيسى عليه السلام إلى السماء بإبعاد الدين الجديد عن عقيدته الأساسية، وإعادته إلى عقيدة التثليث. وقد كتب بولوس فيما بعد أربع عشرة رسالة، وهي التي تشكل قسماً هاماً من الأناجيل المتداولة اليوم، والتي تُعتبر أيضاً مصدراً مهماً للأناجيل الأربعة الأولى، وتُعد هذه الرسائل من النصوص المقدسة لدى المسيحيين مثل الأناجيل الأربعة.

٢. البرنابانيون، وقد كانوا يقولون: "بأن عيسى عليه السلام بشر، وأحد الأنبياء المرسلين، ولا تجوز عبادته أبداً". وبالإضافة لذلك فإن الأبيونتيين برئاسة الحواري يعقوب كانوا يدخلون ضمن هذه المجموعة وكانوا يدافعون عن المعتقد نفسه، ولأن الملوك لم يقفوا في صف هؤلاء، ولم يساندوهم فقد بقي هذا القسم في حالة من الضعف.

ومن جهة أخرى، فقد كانت التصرفات العدائية للبولوسيين تجاه البرنابانيين في ازدياد مع مرور الوقت، وعملوا على صَهرهم وطمس عقيدتهم، وعلاوة على ذلك، فقد اعتبرت هيئة البابوات المؤلفة من المستشارين والتي اجتمعت بإمرة الملك قسطنطين في عام / ٣٢٥ ميلادي / ، اعتبرت هذه الهيئة أن إنجيل برنابا ليس صحيحاً وغير مُعترف به، واختاروا من بين الأناجيل الكثيرة أربعة قريبة من بعضها البعض، واعتبروها الأناجيل الصحيحة والمعترف بها، وهذه الأناجيل هي: إنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا، وإنجيل مرقس، وإنجيل متى. وقاموا بإتلاف الأناجيل الباقية عدا هذه الأربعة، واعتُبرت الأناجيل ما عدا تلك الأربعة أناجيل مزورة من قبل الكنيسة الرسمية.

وقد بُدئ رسمياً بكتابة الأناجيل الأربعة المحرفة فقط واعتمادها في التلاوة والتعاليم، وبذلك تمّ إلغاء الأناجيل الأخرى بما فيها إنجيل برنابا ـ على الرغم من أنه يُعتبر الإنجيل الأصح

والأكثر وثوقية ـ وفي الحقيقة كان برنابا من أقدم حواريي عيسى ، وقد كان قد التقى بعيسى وكتب ما سمعه منه مباشرة، ولكن لم ترقْ هذه الحالة لبوليس اليهودي وأتباعه، ولذلك فقد أخرجوه وأزالوه عن طريقهم تماماً. لذا فإن المسيحيين اليوم لا يعتبرون برنابا الذي استشهد في قبرص بعد رفع عيسى بثلاثين عاماً، لا يعتبرونه من الحواريين نظراً للقرار الذي تم اتخاذه في اجتماع إزنيق والمتعلق بها الشأن، ويعتبرون توماس بدلاً عنه كأحد الحواريين.

وجاء بعد برنابا أحد البابوات الذي عرف باسم "أريوس"، ودخل في تحدٍ ونزاع مع البولسيين، ولكنه تم حظره وطرده، فتوجه إلى مصر، وقُتل خلال نشره لعقيدة التوحيد.

ولم تنجح الأجوبة التي خرجت بها الكنيسة الرسمية رداً على انتقادات أريوس للمسيحية، لم تنجح في تطمين المسيحيين على مدى التاريخ. وظهرت مثل هذه الانتقادات خلال تاريخ المسيحية في عصر توفرت فيه الأرضية والظروف المناسبة، وتسببت كثيراً باهتزاز هيبة وتسلط الكنيسة الرسمية وزعزعة الثقة بالعقيدة التي تتبناها، وقد نظم رجال الدين المسيحيين العديد من الاجتماعات والمؤتمرات واتخذوا قرارات مختلفة وذلك في سبيل الإجابة والرد على هذه الانتقادات، والحفاظ على وحدة الكنيسة، والأهم من ذلك كله تثبيت الأسس التي تقوم عليها المسيحية.

وكمثالٍ على ذلك، فقد نظم أول مؤتمر في إزنيق في العام / ٣٢٥ ميلادي / وتم الإعلان عن ألوهية عيسى عليه السلام في هذا المؤتمر، وفي عام / ٣٨١ / تم الإعلان عن ألوهية روح القدس في مؤتمر إسطنبول، وبذلك اكتملت عقيدة التثليث، وبينما تم القبول بعقيدة أن مريم العذراء هي أم الإله وذلك في مؤتمر أفس عام / ٤٣١ /، فقد حصلت انقسامات بين الكنائس أثناء مناقشة وجهات النظر المتعلقة بطبيعة عيسى عليه السلام وذلك خلال مؤتمر الذي عُقد في مدينة "قاضي كوي" عام / ٤٥١ ميلادي /. ومرة أخرى تم البدء بنقاش حول مصدر مجيء روح القدس وذلك عام / ٨٦٩ ميلادي / في المؤتمر الثامن الذي عُقد في إسطنبول. وبنتيجة هذه المناقشات والمباحثات التي استمرت طويلاً فقد انقسمت المسيحية إلى مذهبين في عام / ١٠٥٤ ميلادي /، هما: الكاثوليك في (روما)، والأرثوذوكس في (إسطنبول). وفي القرن السادس تولّد المذهب البروتستانتي نتيجة الضغوطات والدراسات المضادة التي جرت بحق الكاثوليكية.

إن التدخلات البشرية التي جرت على كل الأمور المتعلقة بالمسيحيين، وفي نفس الوقت على العقائد الأصلية، والمبادئ الأساسية التي تشكل صلب الديانة المسيحية، والتي تم تثبيتها من قبل الناس بعد عصور مختلفة تُظهِر بوضوح مدى التحريف الذي تعرضت له الديانة المسيحية، والفساد الذي طرأ على أساسه.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن القرارات التي اتخذت في المؤتمرات ناقضت بعضها البعض خلال أزمنة مختلفة، ولا يمكن أن نرى ديناً آخر في العالم قد جرى التلاعب به إلى هذه الدرجة، وفي كل مرة تتم إضافة أشياء عليه أو إنقاصها منه مثل هذا الدين.

❁ ❁ ❁

سبب كتابة أناجيل كثيرة:

حسب عقيدة التثليث في الديانة المسيحية المحرفة هناك: الله، وابن الله (عيسى عليه السلام)، وروح القدس. وقد كتب الكثير من البابوات الذين يعتنقون هذه العقيدة الإنجيلَ مدعين بأن روح القدس قد نزل عليهم بالوحي، وقد تم تعريف روح القدس بعبارات متضاربة، فإما أنه جبريل عليه السلام، أو قوة روحية تلهم قلب الإنسان، ولا يوجد تعريف دقيق وواضح، حيث يوجد حتى في أيامنا هذه من يكتب الإنجيل بهذه الطريقة.

نزول سيدنا عيسى عليه السلام من السماء:

سوف ينزل عيسى عليه من السماء إلى الأرض قبل يوم القيامة بفترة قصيرة، وثمة الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة التي تتعلق بهذا الأمر. ويقول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾[٤٣١]

---

٤٣١ الزخرف، ٦١.

تبين هذه الآية الكريمة أن عيسى عليه السلام من علامات يوم القيامة وتشير بأنه سوف يعود مرة ثانية إلى الدنيا في آخر الزمان. حيث أن كلمة "علم" الواردة في الآية الكريمة يُقصد بمعناها الإشارة أو العلامة، ولذلك تقرأ الكلمة أيضاً بلفظ "عَلَم."

وعندما ينزل عيسى عليه السلام إلى الأرض فإنه سوف يتبع شريعة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ويحكم بها بين الناس.

وسوف يلتقي عيسى عليه السلام بالمهدي، ويقتل المهدي عليه السلام المسيحَ الدجال، ويرجع المهدي عليه السلام الذي سوف يظهر في آخر الزمان، يرجع بنسبه إلى بني هاشم من عترة النبي صلى الله عليه وسلم، وسوف تنتقل الخلافة منه إلى عيسى عليه السلام.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:

"إني لأرجو إن طال بي عمر أن ألقى عيسى بن مريم عليه السلام، فإن عجل بي موت فمن لقيه منكم فليقرئه مني السلام" [٤٣٢]

وإن نزول عيسى عليه السلام إلى الأرض سوف يكون وسيلة رحمة لكل الإنسانية. حيث جاء في الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وسلم:

" ليس بيني وبينه نبي - يعني عيسى - وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه: رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، بين ممصرتين، كأن رأسه يقطر، وإن لم يصبه بلل، فيقاتل الناس على الإسلام، فيدق

---

٤٣٢ ابن حنبل،٢، ٢٩٨.

الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك المسيح الدجال، فيمكث في الأرض أربعين سنة، ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون " [٤٣٣]

وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ:

"والذي نفسي بيده، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيرا من الدنيا وما فيها" .

ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم:

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾ [٤٣٤]

معجزات سيدنا عيسى ﵇:

لقد حصلت المعجزات الآتية على يد عيسى ﵇ بإذن الله ﷻ:

١. إحياء الموتى.

٢. إشفاء المرضى.

٣. علمه بما يأكله الناس في بيوتهم من طعام، وما يدخرونه.

---

٤٣٣ أبو داوود، خروج الدجال، جـ ٤، ١١٧/ ٢٣٢٤؛ ابن ماجه، الفتن، ٣٣، ٤٠٧٧.

٤٣٤ النساء، ١٥٩. (البخاري، البيوع، ١٠٢، الأنبياء، ٤٩/ ٣٤٤٨؛ مسلم، الإيمان، ٢٤٢).

٤. كان يصنع من الطين طيراً، ويطيره.

٥. أُنزلت عليه مائدة من السماء.

٦. لقد كان يسمع ويعلم بما يدور حوله من الأحاديث والأعمال حتى عندما يكون نائماً.

٧. لقد كانت تأتيه الفاكهة والطعام من السماء عندما يريد ذلك.

٨. كان يسمع الأحاديث البعيدة، أو التي تجري في السر.

لقد بشرت الملائكة مريم العذراء بعيسى عليه السلام كما جاء في القرآن الكريم بقولهم لها:

﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [٤٣٥]

ويقول الله تبارك وتعالى في آيات أخرى:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [٤٣٦]

---

٤٣٥ آل عمران، ٤٩.

٤٣٦ المائدة، ١٠٩.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[٤٣٧]

---

٤٣٧ المائدة، ١١٠.

المسيحية اليوم

كما ذكرنا من قبل، فإن المسيحية قد تعرضت بعد سيدنا عيسى ﵇ إلى تدخلات وتأثيرات بشرية كثيرة. ولأجل ذلك فقد استخدم القرآن الكريم في حق أهل الكتاب تعبير:

﴿الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ [٤٣٨]

ويقول الرسول ﷺ في الحديث الشريف:

"... ولقد مكث أصحاب المسيح على سننه وهديه مائتي سنة" [٤٣٩]

ثم بدلوا دينهم وحرفوه

وفي الحقيقة فقد تم إفساد وتحريف المسيحية على أيدي رجال الدين المسيحيين، وجُردت المسيحية الموجودة والتي نعرفها اليوم من عقيدة التوحيد تماماً. وبسبب هذا التحريف الذي لحق بالمسيحية كما الأديان السماوية الأخرى فقد رُفعت هذه الأديان عن التطبيق، وأُلغيت أحكامها، وأنزل الله ﷻ الإسلام دين الحق خاتماً وخالداً إلى يوم القيامة، حيث يقول الله تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ...﴾ [٤٤٠]

---

٤٣٨ الروم، ٣٢.

٤٣٩ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٨، ٢٠٧.

٤٤٠ آل عمران، ١٩.

لم يرض اليهود ولا المسيحيون بهذا الحكم الإلهي، فلم يقبلوا الإسلام، ولم يؤمنوا بنبيه محمد عليه الصلاة والسلام وذلك لأنهم كانوا يعتقدون بأن النبي الجديد سوف يُبعث من بينهم، ولما لم يحدث ما كانوا يعتقدونه أنكروا نبوته، إذ أن أتباع الديانتين كانوا يبشرون الناس ببعثة النبي ﷺ بالنظر إلى ما هو ثابتٌ في كتبهم، ولكن على الرغم من ذلك فقد غيّروا رأيهم وسلوكهم بعد البعثة. ألما رأوا أن النبي ﷺ والدين الجديد الذي بُعث به لم يكن من بين أتباعهم وملتهم أصابهم الحسد، وامتنعوا عن الإيمان به.

ويقول الله تبارك وتعالى في ذلك:

﴿... وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[٤٤١]

ولم يكتف أهل الكتاب بالحسد والاختلاف وعدم التصديق ببعثة النبي عليه الصلاة والسلام، وإنما ذهبوا أبعد من ذلك، حيث أنهم قاموا بحذف وتحريف الأقسام والعبارات التي تبشر ببعثة نبي الإسلام محمد ﷺ من كتبهم. وذلك لأن بعضاً من اليهود والمسيحين الذين يقرؤون هذه الأقسام بتدبرٍ وفراسة، كانوا يدركون الحقيقة في الحال ويدخلون الإسلام نتيجة ذلك، إذ أن كثيراً من الشخصيات من ذوي الشأن الرفيع قد دخلوا الإسلام

٤٤١ آل عمران، ١٩.

بهذه الطريقة، فمن اليهود أمثال عبد الله بن سلام العالم اليهودي وغيره كثير، ومن المسيحين سلمان الفارسي، وحتى النجاشي ملك الحبشة قد دخل الإسلام وتقبله بصدق من كل قلبه بهذه الوسيلة.
ويقول الله تبارك وتعالى في هذا المجال:

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [٤٤٢]

وحتى هرقل امبراطور بيزنطة عندما سمع بظهور النبي ﷺ علم بصفاته الكريمة أصابه الحماس والتوتر، وقال لرسول رسول الله ﷺ:

"إن ذاك الشخص ليحكمنّ في زمن قصير ما تحت قدمي، وقد كنت أعلم من قبل ظهور هذا النبي، ولكني ما كنت أتوقع أنه سوف يُبعث منكم، ولو أني أملك الوصول إليه لتحمّلت مختلف الصعاب والمشاق للقاء به، ولو كنت بجانبه لغسلت له قدميه"

فهذه الحوادث وغيرها من الحوادث المشابهة الكثير، وكلها شاهدة على ما ذكرنا، إلا أن عُميَ القلوب وضعاف الإرادة من اليهود والمسيحين بدأوا يشعرون بالقلق مع مرور الزمن من أن يتحول كل المتدينين فيهم إلى الإسلام، وأخذوا يبحثون عن حلٍّ يتداركون به هذا الأمر ويمنعوه، فاستقر رأيهم على تغيير النصوص

٤٤٢ آل عمران، ١٩٩.

الواردة في كتبهم والتي تبشر ببعثة النبي ﷺ وبدينه الذي سوف يكون خاتمة الرسل والأديان، فعملوا على ذلك دون كلل أو ملل وحرفوا تلك النصوص. ويبين لنا الله تعالى العاقبة الوخيمة والمحزنة التي وقعوا فيها نتيجة عملهم هذا، حيث يقول عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [٤٤٣]

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [٤٤٤]

كما تشير وتوضح الآيتان الكريمتان فإن أهل الكتاب الذين لم يتبعوا الهدى ولم يدخلوا تحت عباءة سعادة إسلامية قد أضاعوا دنياهم وأخراهم باتباع كتبهم الباطلة التي جرى تحريفها وتشكيلها لتوافق أهواءهم ورغباتهم النفسية. وذلك لأن الله تعالى الذي أنزل كل الكتب الإلهية قد اعتبر الذين لم يتبعوا الدين الإسلامي الخاتم واتبعوا الأديان التي أُبطلت وحُرفت، اعتبرهم مغرقين في البطلان،

٤٤٣ البقرة، ١٧٤.

٤٤٤ البقرة، ٩٠.

ولا يقبل إيمانهم، وقد بين ذلك في كتابه العزيز، حيث يقول:

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [445]

ففي الحقيقة عندما ننظر إلى أصول وأساسيات العبادة والإيمان الموجودة في الدين المسيحي وغيره من الأديان الأخرى عدا الإسلام، نجد أنها تتعارض مع إرادة الخالق سبحانه وتعالى، وتناقض أوامره ووصاياه، فضلاً عن ماهيتها الخارجة عن المنطق البشري. فوفق المسيحية:

الإنسان يولد مذنباً، وذلك لأن آدم عليه السلام لم يلتزم بأوامر الله عز وجل وأخرج من الجنة جراء ذلك، والآن فإن هذا الذنب أو المعصية تستمر متسلسلة في جميع البشر، وقد جاء عيسى عليه السلام إلى الدنيا من أجل تخليص الإنسان من هذا **"الذنب الأزلي"**. وأن الله عز وجل قد علّق ابنه عيسى على الصليب من أجل تخليص الناس من هذا الذنب.

إذ أن الله سبحانه وتعالى لم يبين في أي كتاب سماوي أن الإنسان يتحمّل جزاء وتبعة أعمال وذنوب الناس الآخرين، وذلك لأن جعل الإنسان البريء ضحية لذنوب غيره ليس إلا محض ظلم.

ومن جهة أخرى، فإن الاعتقاد بولادة الإنسان مذنباً فيه إسناد الظلم إلى الله جل وعلا وحاش لله عن ذلك، إن النبي صلى الله عليه وسلم يبين

---

٤٤٥ آل عمران، ٨٥.

حقيقة هذه المسألة بشكل رائع في الحديث الشريف، حيث يقول:

"ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟" [٤٤٦]

ويقول الله ﷻ في كتابه الكريم:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٤٤٧]

❀ ❀ ❀

إن إحدى المعتقدات الباطلة التي تأخذ مكانها في الديانة المسيحية هي **"التعميد"**. فتعميد معتنقي المسيحية باسم الأب، والابن، وروح القدس واحد من الأوامر الكنسية، فالكنيسة تقوم بالتعميد برشّ الماء على وجه الذي يجري تعميده، أو بغطس جسده في الماء، وهذا الإجراء هو إعلان على قبول الشخص في الديانة المسيحية، ومن جانب آخر هناك اعتقادٌ بأن الإنسان يتم العفو عن ذنبه الأزلي عن طريق التعميد، ومن أجل ذلك فإن المسيحين يعتبرون أن الشخص الذي يموت دون إجراء التعميد عليه في حياته، يعتبرونه قد مات على الذنب.

---

٤٤٦ مسلم، القدر، ٢٢/ ٢٦٥٨.

٤٤٧ الروم، ٣٠.

وبحسب الديانة المسيحية أيضاً إن الدنيا عبارة عن مكان للألم والعذاب، فلا مكان فيها للمتعة والابتهاج، فالناس قد خُلقوا من أجل التألم والمعاناة، إلا أن حياة المتعة والبهجة المنفلتة عن القيود التي يعيشها المسيحيون مضادة بشكل صارخٍ للمعايير والمقاييس الدينية التي يتكلمون عنها.

لا يمكن لديار الامتحان التي من شأنها إكساب الإنسان السعادة الأبدية أن تكون ممتلئة بتناقضاتٍ وشقاقات من هذا القبيل، فمما ينبغي إدراكه والتنبه إليه أن الله تبارك وتعالى يمتحن عباده بمختلف أشكال الامتحان، وانطلاقاً من ذلك، فإن العبد يتعرض أحياناً للضيق، وأحياناً يتمتع بالسعة؛ وأحياناً يعيش حالات من الألم والمعاناة، وأحياناً أخرى يعيش في تجليات من السرور والفرح.

ووفق المعتقدات المسيحية أيضاً، لا يمكن للناس إيجاد صلة مباشرة بينهم وبين الله تعالى، ولا يمكنهم طلب شيء من الله تعالى بأنفسهم، وإنما يتوسل البابوات إلى الله ﷻ باسم الناس، وكذلك فإن ذنوب الناس يمكن أن يغفرها لهم الباباوات، بمعنى أن الباباوات هم وسطاء فيما بين العباد وربهم ﷻ، ومن أجل ذلك فقد أصبح الاعتراف في المسيحية شكلاً من أشكال العبادات، وهكذا فإن الكنيسة تجبر الناس على الاعتراف بذنوبهم، وأعطي الباباوات صلاحية العفو عن الذنوب مقابل مبلغٍ مادي، وإن لم

يجد المعترف المراد العفو عنه مالاً فإنه يدفع بدل العفو بالخدمة والعمل في الكنيسة، وإن المسيحيين يقولون متأثرين بعبارات الإنجيل المحرف:

(فقال لهم يسوع أيضاً: "سلام لكم! كما أرسلني الآب أرسلكم أنا؛ ولما قال هذا نفخَ وقال لهم: "اقبلوا روح القدس"، من غفرتم خطاياه تُغفَر له، ومن أمسكتم خطاياه أمسكت) [٤٤٨]

إن هذا الأصل والركن بالإضافة إلى أنه يبعد الناس عن طريق الهدى، فإنه يضفي على الباباوات نوعاً من الألوهية، ويدفع الآخرين إلى استسهال اقتراف المعاصي أو إجازتها استناداً إلى اعتقادهم بالعفو عنهم من قبل الباباوات.

فهل يمكن للباباوات الذين ليس بمقدورهم العفو عن ذنوب أنفسهم، أن يعفوا عن ذنوب الآخرين؟ وكيف يمكن لإنسان لا يخلو من الذنوب، أن يعفو عن ذنوب إنسان آخر مثله؟ إن مثل هذه الصلاحية لم تمنح لنبي ولا رسول من قبل، حتى للرسل أولي العزم، إن الاعتقاد بأن المغفرة الإلهية مرتبطة بعفو الباباوات الذين لا يخلون من المعاصي والذنوب، بينما الأنبياء والرسل على الرغم من عصمتهم من الذنوب قد قضوا عمرهم بالتوبة والاستغفار ضلالةٌ ما بعدها ضلالة!

---

٤٤٨ يوحنا، ٢٠/ ٢١- ٢٣.

ويقول الله تبارك وتعالى عن أهل الكتاب الذين يوهمون الناس بأن أصحاب الصلاحية بالعفو عن ذنوبهم مقابل مبلغ من المال، أو العمل والخدمة في الكنيسة على عكس الحقائق الإلهية، يقول الله في حقهم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ [٤٤٩]

وعلى الرغم من ذلك فإن المسيحيين يتبعون رهبانهم بشكل أعمى، وفي الوقت الذي ترى فيه أن الكتاب المقدس للمسيحية مملوء بالافتراءات على الأنبياء وإلصاق مختلف الذنوب والتهم بهم، فإننا نجد أن المسيحيين يعتبرون "البابا " الذي لا يتمتع بأية خاصية نبوية، يعتبرونه معصوماً خالياً من الذنوب، ويرون أن كل ما يأتيه من عمل هو الصواب.

ومما يلفت الانتباه، أن الدعوات الإلهية للأنبياء الذين اختارهم الله ﷻ من أجل تنفيذ أوامره قد صعُبت على نفوس المسيحيين، فقد عمل هؤلاء على الاستخفاف بالمؤسسة النبوية وإضعافها من خلال إلصاق مختلف التهم والصفات السيئة بأولئك الأنبياء من زنا، وشرب الخمر، والكذب، والخداع، والوثنية وغيرها من

---

٤٤٩ التوبة، ٣٤.

الصفات والمعاصي الشنيعة [٤٥٠]، بينما يسندون إلى البابا الذي يختارونه هم بأنفسهم صفات علوية وسامية بشكل مفرط ومبالغ فيه، ويبجلونه إلى درجة التقديس. [٤٥١]

يقول الله ﷻ في كتابه العزيز:

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [٤٥٢]

إن المظهر الآخر للحقيقة التي وردت في الآية هو أن المسيحيين قد وقعوا في خطأ حول طبيعة الإنسان، إذ أنهم يرون أن روح الإنسان وبدنه مفترقين عن بعضهما، فالروح لا يستطيع تطهيرها وتنقيتها إلا الباباوات، أما البدن فإن الغالبية يعتبرونه كائناً مذنباً وبشعاً.

بينما هذه العبارات هي تعريفات مجحفة بحق الإنسان الذي هو "زبدة العالم" و "أشرف المخلوقات".

فيبين الله ﷻ حقيقة هذا الأمر في كتابه الكريم، حيث يقول:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [٤٥٣]

---

٤٥٠ للاطلاع على الأوصاف والأفعال الشنيعة المسندة إلى الأنبياء في الكتب المسيحية المقدسة انظر، التكوين، ١٢/ ١١-١٣، ١٩/ ٣٠- ٣٨، ٢٠/ ١- ٧، ٣٠/ ٣٢- ٤، ٢. صموئيل، ١١. الباب، ١، الملوك، ١١/ ١- ١٣.

٤٥١ إلا أن أتباع المذهب البروتستانتي لا يقبلون بعصمة البابا وتأثيره في العفو عن الذنوب.

٤٥٢ التوبة، ٣١.

٤٥٣ التين، ٤.

ويبين الشيخ غالب هذه الحقيقة بعبارة جميلة:

تدبر ما في نفسك ببصيرتك لأنك زبدة الأكوان

يا ابن آدم تأمل في خلقك يا قرة عين الأكوان

لأن الإنسان ذاك المخلوق الذي كرمه الله تعالى يتربع على قمة الصنع الإلهي في هذا العالم الذي زُيّن بآلاف النقوش والأشكال من المخلوقات بقدرة الإله ﷻ.

إلا أن الذين لا يصطبغون بحياة ملؤها الإيمان والعبادة التي تليق بهذه المكانة السامية للإنسان، فإنهم يفقدون هذه الصفات المتميزة والعلوية التي تمتعوا بها في بدء الخلق، وإنهم ينحدرون إلى الحالة التي وصفها الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز:

﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [٤٥٤]

فيفقدون بذلك الأمانة الإلهية التي حُملوها، وإلا فإن كل إنسان في بدء خلقه يدخل ضمن الخطاب الإلهي الذي يبين حقيقة الإنسان، حيث يقول ﷻ:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ...﴾ [٤٥٥]

❁ ❁ ❁

---

٤٥٤ التين، ٥.

٤٥٥ الإسراء، ٧٠.

يسوق المسيحيون العديد من الأدلة من الأناجيل ليؤكدوا أن الدين المسيحي هو دين المحبة والسلام، إلا أن هناك الكثير من العبارات التي تناقض هذه الأدلة حتى في الأناجيل المحرفة. فمثلاً ينقل لوقا عن عيسى عليه السلام الكلام الآتي: "لكن إيتونني أعدائي الذين يرفضون أن أملك عليهم ثم قوموا بقتلهم" [٤٥٦]

وقد جاء أيضاً في رسائل بولوس إلى أهل كورنتوس:

"لأنه يجب عليه أن يستمر في الحكم ويدوم سلطانه حتى يضع جميع أعدائه تحت أقدامه." [٤٥٧]

ويقول عيسى عليه السلام في مكان آخر:

"لا تظنوا أني جئت لألقي سلاماً على الأرض، ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً؛ فإني جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه، والابنة ضد أمها، والكنة ضد حماتها" [٤٥٨]

ومن جانب آخر، فقد جاء في العهد القديم:

"وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك، فلا تستبق منهم نسمة ما حياً في مدنهم بل عليك أن تفنيهم كما أمرك الرب إلهك." [٤٥٩]

---

٤٥٦ لوقا، ١٩/ ٧.

٤٥٧ رسالة بولس إلى أهل كورنتوس، ١/ ١٥.

٤٥٨ متى، ١٠/ ٣٤- ٣٥.

٤٥٩ التثنية، ٢٠/ ١٦- ١٧.

"فالآن اذهب، واضرب عماليق، وحرّموا كل ما له، ولا تعف عنهم، بل اقتل رجلاً وامرأة، طفلاً ورضيعاً، بقراً وغنماً، جملاً وحماراً" [٤٦٠]

وكما يتبين من النصوص السابقة فإن الكتاب المقدس المحرف للمسيحيين يتضمن عبارات من العنف والشدة بحيث تغرق بظلالها رسالة المحبة والسلام التي يدّعونها.

وأما القرآن الكريم فإنه يبين حدود الحرب التي يجب على المسلمون التقيد بها في حال اضطروا إليها بقوله تعالى:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [٤٦١]

الحرب في الإسلام هي من أجل تأمين تبليغ دين الله ﷻ. والآيات التي تأمر المسلمين بمحاربة الأعداء، موجهة إلى الناس الذين يعلنون الحرب مع المسلمين، وتكون مقتصرة على الأشخاص المحاربين من حاملي السلاح دون غيرهم. فلا يجوز المساس بغير المحاربين من النساء، والأطفال، والشيوخ، والمرضى، وحتى لا يجوز قتل الحيوانات، ولا قطع الأشجار، أو إتلاف المزروعات.

٤٦٠ صموئيل، ١، ١٥/ ٢- ٣.

٤٦١ البقرة، ١٩٠.

لقد كان سيدنا عيسى عليه السلام مثل بقية الأنبياء يحرم ما حرمه الله تعالى، ويحلل ما أحله الله، وكان يأمر أمته بذلك ويدعوهم إليه. وفي الوقت الذي كان فيه عيسى عليه السلام يرد الأعمال أو "البدع" - ما عدا المحرمات - التي تبدو صحيحة في ظاهرها ولكنها لا تتوافق مع أصول الدين، نجد المسيحيين اليوم قد جعلوا الكثير من الذنوب والمعاصي ضمن العبادات، ومن أحد هذه الأمور "**عشاء الرب.**"

وعشاء الرب هو طعام مؤلف من كسرات الخبز ويضاف إليه الخمر، وفيه ترميز إلى الطعام الذي تناوله عيسى عليه السلام في الليلة الأخيرة، حيث أن الطعام هنا يمثّل لحم عيسى عليه السلام، وأما الخمرة فتمثل دمه، ويعتقد المسيحيون أنهم بتناولهم عشاء الرب هذا يتوحدون في عيسى عليه السلام، إن هذا الطقس المسيحي المعروف يعتبر من أهم العبادات، ويأتي في المرتبة بعد التعميد، ويتم أداء هذا والإيفاء بهذا الطقس من قبل جميع المسيحيين.

فبينما كان في السابق يتم أداء هذا الطقس مرة واحدة خلال السنة، أما فيما بعد فقد أصبح طقساً أسبوعياً، ودخلت ضمن معتقدات المسيحيين، إن هذا الاعتقاد الذي يؤدي إلى نوعٍ من الاشتراك في الألوهية عن طريق مثل تلك العبادات، وبالتالي يودي بصاحبه إلى الشرك المناقض للتوحيد والذي لا يغفره الله تعالى أبداً.

العبادة في المسيحية عبارة عن كثير من الأدعية ومجموعة من الأناشيد التي تُقرأ باسم الرب، ولا يوجد في الديانة المسيحية

عبادات مفروضة كما في الدين الإسلامي مثل الصلاة، والصيام، والحج وما شابه ذلك، فيما عدا طقس الطعام والخمر، وبعض العبادات التي تمثل بعض الأدعية كما ذكرنا. فالصيام في المسيحية عبارة عن نوع من الحمية، فلا يمكن تناول بعض الأطعمة والأشربة التي تشتهيها النفس خلال فترة الصوم، إلا أنه يمكن تناول فطور خفيف في الصباح، وكذلك تناول عشاء خفيف في المساء.

وقد بين الله سبحانه وتعالى بطلان الأعمال والمعتقدات التي أدخلها المسيحيون إلى دينهم، وأنها ليست من المسائل التي أُمروا بها من قبل، وذلك في قوله تعالى:

﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ. وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [٤٦٢]

إلى جانب كل ما ذكرناه في الأعلى، فإن أكبر إضافة للمسيحية والتي أُلحقت بالدين فيما بعد هو "**عقيدة التثليث**". حيث أن النبي ﷺ وقف عند هذا الأمر في رسائله التي بعثها إلى ملوك المسيحيين يدعوهم فيها الإسلام، وقد قال في رسالته التي أرسلها إلى هرقل امبراطور بيزنطة:

٤٦٢ البينة، ٤- ٥.

(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين [٤٦٣]، و:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [٤٦٤]

عقيدة التثليث (ثلاثة آلهة):

التثليث مفهوم عقائدي مسيحي يشير إلى أن الإله يتكون من ثلاثية "**الأب، والابن، وروح القدس**". وفي الأصل يُذكر الدين المسيحي بشكل عام بين الأديان التي تؤمن بالإله الواحد، إن عقيدة التوحيد في المسيحية التي تمت المحافظة عليها بحزم في العهد القديم، قد تأثرت بالثقافة الهندية، واليونانية التي انتشرت بين المسيحيين في القدس حيث مركزهم الأساسي، وتحوّلت العقيدة المسيحية إلى شكل مناقض للتوحيد.

٤٦٣ يقصد به الأتباع وعامة الشعب.

٤٦٤ آل عمران، ٦٤.

إن دخول التثليث إلى المسيحية كان بعد ظهور هذا الدين بفترة طويلة، إذ لم تكن عقيدة التثليث موجودة بعدْ في المؤتمر الذي انعقد في إزنيق عام / ٣٢٥ ميلادي/ . حيث كان يجري التباحث حول الطبيعة الإلهية للأب والابن، وفيما إذا كانا من الجوهر نفسه، وبعد ذلك، وخلال المؤتمر الذي عُقد في قسطنطين وبولوس عام / ٣٨١ ميلادي / فقد تمت إضافة روح القدس إلى الطبيعة الإلهية، واعتُمدت عقيدة التثليث، وأرادوا من المسيحيين عبادة إله متكون من "**ثلاثة أقانيم**" ، أي ثلاثة عناصر الأب والابن وروح القدس.

ولكن اليوم يتم التوجه إلى تأويل عقيدة التثليث نتيجة الاعتراضات والانتقادات التي واجهتها؛ فقالوا أن الإله واحد والقوة بيده، وأما عيسى فهو ابنه، وروح القدس قوته، إلا أن هذه التعديلات التي أجريت على هذه العقيدة لا تقرّب الشرك من التوحيد، ومن جهة أخرى، فإن نَسب ابن إلى الله ﷻ المُنزه عن الصفات البشرية وعن كل نقص ليس إلا الشرك عينه الذي يهوي بصاحبه في أشد أنواع العذاب يوم القيامة، ويتسبب بطرده من رحمة الله تعالى، ويقول الله ﷻ في هذا الشأن:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ [٤٦٥]

٤٦٥ البقرة، ١١٦.

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٤٦٦]

﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [٤٦٧]

﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [٤٦٨]

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [٤٦٩]

لا يمكن العثور على دليل واضح وصريح في الأناجيل مما يثبت أو يشير إلى عقيدة التثليث التي دخلت إلى الدين المسيحي فيما بعد ظهوره، حيث كان في البداية دين توحيد صاف ونقي عمّا يشوبه من الشركيات والانحرافات، إن الكلمة المقابلة "للتثليث" في الغرب هي "ترينايت" وهذه الكلمة لم ترد في أي مكان من الإنجيل، وقد استخدمت هذه الكلمة لأول مرة في التاريخ المسيحي من قبل الترتليين في القرن الثاني للميلاد.

---

٤٦٦ يونس، ٦٨.

٤٦٧ يونس، ٦٩.

٤٦٨ يونس، ٧٠.

٤٦٩ المؤمنون، ٩١.

وبالإضافة إلى ذلك، ففي العهد الجديد لا يقول عيسى عليه السلام في أي مكان منه "أنا الإله". وإنما يقول عكس ذلك تماماً، حيث يقول بأنه عبد وليس إله. [470] ويخبرنا الله تعالى في القرآن الكريم بأن عيسى عليه السلام عبد ورسوله. [471] ولم يكن عيسى عليه السلام ينزعج أو يرفض صفة العبودية، وإنما على العكس من ذلك فقد كان يحسّ بالتشرف بهذه الصفة كما يتبين ذلك في الكتاب المقدس[472]، وقد كان يعيش حياته بعبودية خالصة لربه عز وجل، وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان عيسى عليه السلام يداوم على العبادة، ويستمر في تعبد الله تعالى طوال الليل، حيث أن العبادة أو التعبد ليس من علامات الألوهية، وإنما من تجليات العبودية.

يذكر المسيحيون باستمرار العبارة الآتية الواردة في الإنجيل كدليل على ثبوت عقيدة التثليث في ديانتهم:

(فلما اعتمد يسوع صَعِد للوقت من الماء، وإذا السماوات قد انفتحت له، فرأى روح الله نازلاً مثل حمامة وآتياً عليه؛ وصوتٌ من السماوات قائلاً:

"وهذا هو ابني الحبيب الذي به سُررت") [473]

---

٤٧٠ راجع متى، ١٢/ ١٨.

٤٧١ انظر في سورة النساء، ١٧٢.

٤٧٢ راجع متى، ١٢/ ١٨؛ إشعيا، ٤٢/ ١.

٤٧٣ متى، ٣/ ١٦- ١٧.

وترد عبارات مشابهة لهذه العبارة في أقسام أخرى من الإنجيل.[474] ولكن بالتدقيق في هذه العبارات والنصوص يتبين أنه لا يمكن الاستنتاج منها ما يدل على ثلاثة آلهة، أو يشير إلى معنى بأن الإله الواحد يتكون من ثلاثة أقانيم، أو ثلاثة عناصر.

ومما يجب قوله هنا، أنه حتى في الإنجيل الذي تم تحريفه عن أصله والذي يُعتبر الكتاب السماوي للمسيحيين كما أخبر بذلك القرآن الكريم أيضاً، حتى في هذه الأناجيل لا يمكن العثور على دليل صحيح وبين يثبت عقيدة التثليث، ولذلك فمهما تمّ تأويل هذه العقيدة، ومهما حاول المسيحيون على إيجاد تعاريف مناسبة لها، فإنها لا يمكن أن تتوافق أو تنسجم مع عقيدة "التوحيد" الذي جاء به الإسلام مُنزلاً من عند الله تعالى كخاتمة للأديان السماوية، إن جاز تعبير الأديان، إذ المعلوم أن الدين عند الله الإسلام منذ أن خلق آدم عليه السلام!

ومن جانب آخر، فإن استخدام المسيحيين كلمة "بابا " للتعبير عن الإله فيه انتقاص كبير بحق الله تعالى، وذلك لأنه يوجد في نظر الإنسان أصناف من الآباء الذين يثيرون انطباعات سيئة لديهم، وفي نفس الوقت فإن مفهوم البابا أو الأب يذكّر الإنسان بالكيفية أو الخصائص البشرية مثل العلاقات الجنسية، وفكرة تركه وارثاً من بعده، وتحقق الموت بحقه، والتي يتنزه الله سبحانه وتعالى عنها كلها.

---

٤٧٤ راجع يوحنا، ١/ ١، ١٤.

إن خلق الله ﷻ لعيسى عليه السلام من غير أب معجزة خارقة للعادة. إلا أن هذه الحالة لا تستوجب رفعه إلى مرتبة الإله. وذلك لأن سيدنا آدم عليه السلام قد خُلق من التراب من غير أب، وعلاوة على ذلك فإنه لم تكن له أم حين خلْقه. فكما أنه لا يجوز إضفاء صفة الألوهية على آدم عليه السلام الذي خُلق من غير أب ولا أم، وعلى حواء التي خُلقت من آدم عليه السلام، كذلك لا يجوز إضفاء هذه الصفة على عيسى عليه السلام. حيث أنه ينبغي التوجه بالعبودية إلى الله الذي خلق من فتاةٍ عزباء ابناً من غير أب، وليس تعبد هذا الابن البشري.

إن الإسلام يعلن بأن ﷻ إله واحد أحدٌ متصف بصفات علوية سامية، لا يشبه أحداً من المخلوقات، ومنزه عن كل عيب أو نقص، ولا إله غيره، وهو صاحب العظمة والقدرة كلها، وهذا الإعلان قد تم بيانه بصورة موجزة في سورة الإخلاص:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾

إن هذه الصورة القصيرة تلخص كل خصائص التوحيد، وتكفي للدلالة على أن عيسى عليه السلام كائنٌ بشري محدود بأبعاد الحياة والموت، ولا علاقة له بالألوهية وبالتالي فإن عقيدة التثليث باطلة لا أصل لها من الصحة. وانطلاقاً من ذلك، فإن الله تعالى يحذر بشدة الذين يدينون بعقيدة التثليث، حيث يقول في كتابه الكريم:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [٤٧٥]

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [٤٧٦]

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [٤٧٧]

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [٤٧٨]

إن قول الله تعالى في الآية الكريمة: " **كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ** " بحق عيسى عليه السلام وأمه هو من أجل الدلالة على طبيعتهما البشرية. وذلك لأن تناولهما الطعام يستوجب إحساسهما بالجوع والشبع وهي من الخصائص البشرية، والله سبحانه وتعالى منزه بلا ريب عن كل ذلك.

٤٧٥ المائدة، ٧٢.

٤٧٦ المائدة، ٧٣.

٤٧٧ المائدة، ٧٤.

٤٧٨ المائدة، ٧٥.

وعلى الرغم من ذلك، فإن أهل الكتاب يميلون إلى عقيدة تسند إليهما الصفات الألوهية، وما ذلك إلا بسبب جهالتهم وغفلتهم المطبقة. وإلا فإن عيسى ﷺ لم يفتح في هذا المجال حتى ولو باباً صغيراً لينفذ منه أهل الكتاب إلى التمسك بمثل هذا الاعتقاد. حيث يقول الله تعالى:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [٤٧٩]

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [٤٨٠]

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [٤٨١]

٤٧٩ المائدة، ١٠٩.

٤٨٠ المائدة، ١١٦.

٤٨١ المائدة، ١١٧.

العقل السليم يدعو الإنسان إلى التفكير بأنه حسبما هو معروف بأن عيسى عليه السلام لم يكن موجوداً في الحياة قبل الميلاد بسنوات طويلة، وولد بعد ذلك، فهل يمكن إضافته إلى الله تعالى بعد هذا الميلاد؟ وقد ورد في إنجيل يوحنا خطابٌ إلى عيسى عليه السلام بعبارة "يا رب" مسندين إليه بذلك القدرة الإلهية، فهل بعد ذلك اتصف هذا الإله بالضعف والعجز في مواجهة الناس الذين اقتادوه إلى الصليب لتعليقه عليه؟ لأنه قد وردت جُملٌ في الأناجيل تفيد بأن عيسى عليه السلام اِقتيد إلى الصلب دونما إرادة منه، وحسب هذه الجمل فإن عيسى عليه السلام قد قال حين أخذوه إلى الصليب صارخاً بصوت عالٍ، كما جاء في الإنجيل:

"ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً:

إيلي، إيلي، لما شبَقتني؟ أي: إلهي، إلهي لماذا تركتني؟" [٤٨٢]

أليست هذه العبارات مليئة بالضعف، والعجز، والعصيان البشري.

إن الدين الإسلامي يأمر بمراعاة الحذر والدقة الفائقة فيما يتعلق بمسألة "التوحيد". ويصف أي عمل، أو تصرف قد يمسّ بالتوحيد مهما كان صغيراً، يصفه بالشرك، ويمكن أن نورد مثالاً على ذلك، فقد حكم الله تعالى الشخص الذي يدع أوامره جانباً

٤٨٢ متى، ٢٧/ ٤٦.

ويتبع رغبته بأنه: "**اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**" [483] إضافة إلى ذلك، فقد وصف الله تعالى الذين الرهبان الذين حرموا ما أحله، وحللوا ما حرمه عليهم بـ"الأرباب" والذين اتبعوا أهواءهم وأطاعوهم، وصفهم بأنهم "اتخذوا أولئك أرباباً من دون الله". واعتبر الإسلام الرياء الذي يرد في قلب المؤمن عندما يقوم بالأعمال الصالحة نوعاً من الشرك الخفي. ولذلك فإن القرآن الكريم الذي يبدي أهمية كبيرة لموضوع التوحيد، يردُ بطلان عقيدة التثليث التي يدين بها المسيحيون، ويحكم على هذه العقيدة بالكفر والخروج عن التوحيد.

ويحذر الله تعالى في القرآن الكريم الكتاب السماوي الخاتم، يحذر أهل الكتاب بسبب الضلالات التي انحرفوا إليها نتيجة عقيدة التثليث، حيث يقول الله تبارك وتعالى:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [484]

---

٤٨٣ الفرقان، ٤٣.

٤٨٤ النساء، ١٧١.

﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [٤٨٥]

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [٤٨٦]

كما ذكرنا من قبل وحسبما يثبته الباحثون في تاريخ الأديان فإن فكرة ألوهية عيسى عليه السلام قد دخلت إلى الديانة المسيحية بتأثير من الفلسفة اليونانية، والاسكندرية، والهندية.

حيث ورد في الموسوعة البريطانية أن:

"عيسى عليه السلام لم يدّع أبداً أنه من عنصرٍ فوق الطبيعية، ولم يقل أيضاً أنه من طبيعةٍ أعلى من الطبيعة البشرية." [٤٨٧]

وقال عيسى عليه السلام:

"اسمع يا إسرائيل! الرب إلهنا رب واحد." [٤٨٨]

---

٤٨٥ النساء، ١٧٢.

٤٨٦ المائدة، ١٧.

٤٨٧ الموسوعة البريطانية، المجلد الخامس، ص. ٦٣٦.

٤٨٨ مرقس،١٢/ ٢٩؛ وانظر أيضاً، متى، ٢٣/ ٨؛ ولوقا، ١٣/ ٣٣.

ويوجد في أماكن أخرى العبارات الآتية:

"فأخذ الجميع الخوف، ومجدوا الله قائلين: قد قام فينا نبي عظيم، وافتقد الله شعبه." [٤٨٩]

"فلما رأى الناس الآية التي صنعها يسوع قالوا: إن هذا هو بالحقيقة النبي الآتي إلى العالم." [٤٩٠]

وكما يتبين مما أوردناه آنفاً من النصوص، فإن المعلومات الواردة في المصادر المسيحية بالذات وحدها كافية لإثبات أن عيسى هو عبد الله ورسوله، ولا علاقة له بالطبيعة الإلهية، إلا أن رجال الدين المزيفين والمدعين من أمثال بولس قد عادوا الدين متسترّين تحت عباءة الإيمان، ولم يكتفوا بخداع الناس بحق عيسى عليه السلام، وإنما ساقوهم إلى الضلال بتقديم كثير من المعلومات المغلوطة والخاطئة عن عيسى عليه السلام. وعلى الرغم من ذلك، فإن المسيحين اليوم يدعون بأنهم أحباء الله عز وجل، وأنهم وحدهم سوف يدخلون الجنة يوم القيامة. ويجيب الله عز وجل على ادعائهم هذا في كتابه الكريم:

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٤٩١]

٤٨٩ لوقا، ٧/ ١٦.

٤٩٠ يوحنا، ٦/ ١٤.

٤٩١ البقرة، ١١١.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [٤٩٢]

❀ ❀ ❀

إن هذه العاقبة المحزنة التي وقع فيها المسيحيون نابعة من تحريفهم الكتاب الإلهي الذي أُنزل إليهم وفق أهوائهم ورغباتهم مثل اليهود، وإفراغ محتواه الإلهي بإدخال أقوال بشرية منحرفة وفاسدة إليه. وذلك لأنهم بعملهم هذا وجدوا أن ما أدخلوه من التحريفات يلبي رغباتهم وأهواءهم النفسية أكثر، ويمكّنهم من إضفاء نوع من المشروعية على الجرائم التي اقترفوها بإدخالها إلى الكتاب الإلهي، إلا أنه من الطبيعي أن هذه الحالة قد أصبحت وسيلة لفقدانهم السعادة الأبدية في الآخرة، وكم تدعو حالة كثير من أهل الكتاب الذين لم يتعظوا ولم يتنبهوا إلى أوهامهم حتى ببعثة النبي ﷺ وبقوا مغرقِين في الباطل والضلال، كم تدعو حالتهم إلى الحزن والأسى!

جاء وفد من نصارى نجران إلى رسول الله ﷺ وقالوا له:

"باعتبار أن القرآن الكريم يقرّ بأن عيسى عليه السلام لا أب له، فهذا دليل على أنه هو الله!"

---

٤٩٢ المائدة، ١٨.

فنزلت في ذلك آية المباهلة، حيث قال الله تعالى:

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[٤٩٣]

ولما دعاهم النبي ﷺ إلى المباهلة وفق ما تقضيه الآية الكريمة، لم يجرؤ نصارى نجران على الإقدام عليها، فوقّعوا مع النبي عليه الصلاة والسلام على اتفاقية قبلوا بموجبها الدخول تحت حماية المسلمين، وعادوا إلى بلادهم. يقول الله تعالى في كتابه العزيز بشأن تحذير وتنبيه أهل الكتاب وإيقاظهم من غفلتهم:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [٤٩٤]

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [٤٩٥]

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٤٩٦]

---

٤٩٣ آل عمران، ٦١.

٤٩٤ آل عمران، ٧٠.

٤٩٥ آل عمران، ٧١.

٤٩٦ آل عمران، ٩٩.

إن المسيحيين يدركون بأن ما أخبرت به الآيات الكريمة من معلومات هي حقائق صحيحة، وأن دينهم قد تم تحريفه وإبعاده عن أصوله الأساسية، ولهذا السبب فإنهم يعلمون أن النبي ﷺ الذي هو خاتم الأنبياء والقرآن الكريم خاتم الكتب السماوية مبعوث من الله تعالى. وحتى لو لم يصرحوا بذلك بشكل علني وواضح، فإن الله ﷻ قد بين ذلك في كتابه العزيز:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [٤٩٧]

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [٤٩٨]

إن ابتعاد أهل الكتاب إلى درجة كبيرة عن الإسلام الذي هو الدين الوحيد المقبول عند الله تعالى مؤسف حقاً! ولكن ما يدعو للسرور والسعادة أن منهم من يدرك ويفهم الحقيقة الجليلة فيتوجه إلى الله تعالى بالعبودية بمعناها الحقيقي! حيث أن الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا في القرآن الكريم بأن أهل الكتاب سوف يدخلون إلى الإيمان والإسلام عندما ينزل عيسى عليه السلام إلى الأرض في آخر الزمان:

---

٤٩٧ البقرة، ١٤٦.

٤٩٨ البقرة، ١٥٩.

﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [499]

إن السبب الوحيد لعدم ترك المسيحيين للضلالة التي هم فيها اليوم هي حالة الأناجيل، حيث أنهم أعملوا فيها أقلامهم، ووجهوها بما يتوافق مع أهوائهم ورغباتهم، ليحرفوا بذلك الإنجيل المقدس الحق الذي أنزله الله تعالى على نبيه عيسى. يقول الله ﷻ في ذلك:

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [500]

وذلك لأن التدخلات التي أجروها على الكتاب الإلهي مسألة خطيرة للغاية ومحظورة، إذ لم يأذن بها الله ﷻ حتى لأنبيائه الكرام عليهم السلام. حيث أنه ورد في هذا الشأن أمر وتحذير إلهي حتى بحق نبينا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم. إذ قال الله ﷻ:

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ. لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ. فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [501]

٤٩٩ النساء، ١٥٩.

٥٠٠ البقرة، ٧٩.

٥٠١ الحاقة، ٤٤ -- ٤٧.

ومن جهة أخرى فقد قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ...﴾ [٥٠٢]

فاقتضت إرادة الله ﷻ أن يظل حكم الإسلام الذي هو الدين الحق والخاتم إلى يوم القيامة. ولن يأتي بعده أي دين آخر. وبناءً على ذلك فقد حفظ الله تعالى القرآن الكريم من التدخلات والتحريفات البشرية.

ويبين الله ﷻ هذه الحقيقة بقوله:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [٥٠٣]

ماهية الأناجيل الأربعة:

إن مما لا شك فيه أن الإنجيل المقدس الذي أنزله الله تعالى على عيسى عليه السلام حق، ويُعتبر الإيمان به من أركان إيمان كل مؤمن، حيث يدخل ضمن ركن الإيمان بالكتب السماوية الواجب على كل مؤمن. وقد ذكر الله تعالى في كثير من آيات القرآن الكريم الإنجيل والتوراة في إشارة إلى الأحكام والتعاليم الإلهية التي وردت فيهما، والتصديق بهما من قبل النبي عليه الصلاة والسلام، وذلك لأن الإنجيل الأصلي سبيل للهداية الإلهية مثله كمثل القرآن الكريم.

٥٠٢ آل عمران، ١٩.

٥٠٣ الحجر، ٩.

وكما ذكرنا من قبل فإن الكنيسة المسيحية قد عملت بشتى الوسائل على بترٍ حقيقي وجدّي لكثير من حقائق حياة عيسى عليه السلام وتقطيع أوصال التعاليم السماوية التي جاء بها، وكان أول قطعة بتروها هي الجذع الأساسي لهذا الدين، فأخرجوا من المسيحية عقيدة التوحيد التي هي أساس الدين.

إن نظام الوحي في المسيحية على خلاف الحالة في الإسلام، عبارة عن شهادات لمجموعة من البشر ـ على عكس ما يتخيله كثير من المسيحين ـ التي نقلوها بالوكالة. وكما يقرّ به العلماء المسيحيون، فإنه لا يوجد أي دليل أو معلومة سليمة في المسيحية التي نعرفها اليوم تعود إلى الزمن الذي عاش فيه عيسى عليه السلام.

وفي الحقيقة، إن أهم مشكلة يواجهه الكتاب المقدس اليوم هي اللغة الأصلية التي استخدمت في كتابته، إذ أن اللغة العبرية هي اللغة الأصلية لقسم "العهد القديم" الذي يحتوي على الكتب التي تعود إلى عصر ما قبل عيسى عليه السلام، وأما اللغة الاصلية لقسم "العهد الجديد" الذي يحتوي على الكتب العائدة إلى عصر ما بعد عيسى عليه السلام فهي اللغة اليوناني، في حين أن اللغة الأصلية لهذا القسم كانت اللغة العبرية أيضاً، ولا توجد النسخة الأساسية للإنجيل التي تُرجمت عنها النسخ اليونانية، وفي هذه الحالة، لا نعلم إلى أية درجة يمكن القول بصحة أسانيد الترجمات التي أُجريت على الإنجيل في ظلّ عدم وجود النسخة الأصلية؟

وحتى الآن فإن أقدم النسخ الموجودة للأناجيل ـ ما عدا إنجيل متى ـ هي باللغة اليونانية، وأما المصادر المسيحية فإنها تفيد بأن المسيح عيسى عليه السلام كان يتكلم باللغة العبرية ـ الآرامية ويلقي على الناس تعاليمه ومواعظه بهذه اللغة. وفي هذه الحالة إذا أخذنا موضوع لغة الأناجيل وأقوال عيسى عليه السلام بعين الاعتبار، أليس من المفروض ـ على الأقل النسخ الأصلية ـ كتابتها بلغة عيسى عليه السلام والمحافظة عليها من الضياع والتلف؟ ولكن الذي نراه اليوم أنه لا الأناجيل المعروفة، ولا أقوال عيسى عليه السلام مكتوبة بلغته الأصلية.

وعلى الرغم من كتابة مسودات الإنجيل الأولى باللغة العبرية، إلا أنه فُقدت هذه المسودات وسرعان ما تمت ترجمة الأناجيل الأخرى المكتوبة باللغة العبرية إلى اللغة اليونانية، وإتلاف النسخ العبرية، وحتى أنه تُرجم "العهد الجديد" مع "العهد القديم" إلى اللغة اليونانية، وبذلك تم تدوين الكتاب المقدس بشكل كامل إلى اللغة اليونانية، ونتيجة لذلك يظهر بشكل واضح تأثير الثقافة اليونانية على جوانب مهمة من الثقافة المسيحية. وبهذه الحالة، فإن الثقافة اليونانية قد سيطرت بتأثيرها بشكل طبيعي على المسيحية بنفس الدرجة التي أثرت عليها فلسفتها من قبل، فأفسدت المسيحية، وأَدخلت عليها الكثير من المفاهيم والأفكار اليونانية الجانحة عن الحق، وبذلك قُضي على الجانب التوحيدي لهذا الدين الإلهي، ولهذا السبب قال الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [٥٠٤]

ولهذا السبب أيضاً، فإن هناك فجواتٌ عميقة وخلافات بين الحقائق العلمية الثابتة وبين الأناجيل المتداولة في عصرنا هذا. حيث أن العالم المشهور "غاليليه" عندما اطّلع على ثقافة المسلمين وعلومهم، وتوصل منها إلى قناعة بالدوران (دوران الأرض)، أخبر هذه الحقيقة إلى الناس من حوله، ولما وجدت الكنيسة أن ما يقول به هذا العالم يتناقض بشكل صارخ مع المعلومات الواردة في الإنجيل بهذا الخصوص، أظهرت معارضة شديدة ومدهشة ، وقالت له مع التهديد والوعيد:

- إما أن تعود عما قلته، أو نقتلك!.

أما غاليليه الذي تلقى التهديد بالقتل لأنه قال الحقيقة، فوقف عاجزاً أمامهم، وقال:

- ليكن كما تقولون! ومن ثم قال بصمت متذمّراً من عملهم والحكم الذي أصدروه عليه:

- فحتى لو قلتم أن الدنيا لا تدور، فإنها تدور! ولم يستطع أن يفعل شيئاً غير ذلك.

---

٥٠٤ البقرة، ٧٩.

وبسبب هذه الفجوات، والإحساس بضرورة إخفاء التناقضات الواردة في الأناجيل، نجد أن الكتب المتعلقة بالتعاليم الدينية للمسيحية بشكل عام في حالة من الأجزاء المختارة. فلا تُقرأ الأناجيل كلها بحالتها الكلية. وحتى داخل المذهب والجماعات يتم اللجوء إلى نوع من الاختيار للكتاب، إن هذه الحالة لوحدها، لا تدع مجالاً لأصحاب العقول السليمة إلا القبول بمنطق القول بعدم صحة الكتاب المقدس حتى من ناحية طرق نقله وتداوله بين الناس.

وهكذا، فإن "ي. جاكوب" خرج بنتيجة بعد البحث والتدقيق الذي أجراه على الرواية التي في الأناجيل، خرج بنتيجة أن هذه الأناجيل كأنها أخذت شكل الأساطير لا أكثر.

ويقول "موريس بوتشيل" أيضاً:

"إن الكتاب المقدس الذي غيّر متنه الناس وفق ما تودّه قلوبهم، عبارة عمّا تركوه لنا من أهوائهم ورغباتهم. ومن أجل ذلك فإنه لا يتم التوقف على أهم الموضوعات الأساسية التي تتناولها هذه الكتب التي خُطت بالأقلام، وإنما يتم تجاوزها، وإنّ هذه الكتب قد تعرضت لتدخلات كثيرة من قبل البشر مثل الشيء الذي يُمرر من خلال الغربال لدفعات عدة، ولا يتم في كل مرة تحليل المعلومات الخاطئة التي بلغت أعداداً لا حصر لها، وإنما يتم تجاوزها بالاكتفاء بالسكوت عنها، ولكن ما أشد الألم الذي يسببه للإنسان اعتبار الكتاب البشري الذي لا يتم حتى تصويبه، اعتباره كتاباً مقدساً!"

ونحن حتى لو لم نجد مثل هؤلاء الذين يعترفون بخطأ وتحريف الكتاب المقدس "الأناجيل"، فإن بيان الله تعالى الذي أنزل هذه الكتب السماوية والإنجيل واحد منها بأنه قد تعرض للتحريف والتدخل البشري، إن هذا البيان كاف لنا لإثبات ذلك، حيث أن الله ﷻ يقول في معرض بيانه لهذه الحقيقة، وفي نفس الوقت تحذيره لأمة محمد ﷺ من الغفلة والانزلاق في مثل هذه الضلالات:

﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [٥٠٥]

كما يُفهم من هذا البيان الإلهي أيضاً، أن كل الأديان التي كانت قبل الإسلام وكل كتبهم قد تم تحريفها مثلما فعل المسيحيون من التبديل والتحريف في الدين الذي أرسل الله تعالى به عيسى عليه والكتاب "الإنجيل المقدس" الذي أنزله عليه، وبناءً على ذلك فإن الأناجيل الأربعة المعروفة والمتداولة اليوم لا علاقة لها ألبتّة بالإنجيل المقدس الذي أنزله الله تعالى على عيسى عليه السلام. وهكذا فإن:

إنجيل متى:

متى هو يهودي كان جامعاً للضرائب باسم الامبراطورية الرومانية، وقد كتب الإنجيل للجماعة المسيحية التي يعود أصلها لليهودية. ويقال أن هذا الإنجيل قد كُتب في سنة / ٦٥ ميلادية/ .

---

٥٠٥ الروم، ٣٢.

وبحسب إحدى وجهات النظر أن هذا الإنجيل قد جرى تدوينه بهدف إثبات أن عيسى إنما جاء ليتمّم التاريخ الإسرائيلي، ولكن يقول بعض الباحثين أن كاتب إنجيل متى الذي يتم تداوله اليوم ليس "متى" وإنما كاتب هذا الإنجيل هو يهودي فلسطيني مجهول الاسم، وفي الحقيقة، فإنه بالتدقيق والنظر بانتباه في هذا الإنجيل يتبين أنه يعكس نمط التفكير اليهودي أكثر مما يعكس التفكير المسيحي.

إضافة إلى ذلك، عند كتابة إنجيل متى تمت الاستعانة بالإنجيل الذي كتبه مرقس والذي لا يُعد من حواريي عيسى ﷺ، وفي الحقيقة إن استعانة متى الذي يعتبر نفسه من الحواريين في كتابة إنجيله، بإنجيل شخص آخر لا يُعدّ من الحواريين أمر لا معنى له. ويقول "أ. تريكوت" في حق هذا الإنجيل:

"إن هذا الكتاب الذي أُلبس الثوب اليوناني، هو كتاب يهودي بلحمه، وعظمه، وروحه، وتوجد فيه الآثار اليهودية واضحة، ويحمل بشكل واضح علاماتها الفارقة."

إنجيل مرقس:

لقد كتب مرقس في البداية إنجيلاً مختصراً، ووسّعه فيما بعد. ولكن بعد ذلك بفترة ضاعت ثلاثة أرباع هذا الإنجيل، فقام مرقس بكتابة الإنجيل مستعيناً بالمجموعات السابقة له ليصل إلينا إنجيله بالشكل الحالي، وفي مواجهة هذه الحالة، يحاول المؤلفون

المسيحيون عبثاً جعله تلميذاً لبتروس، وبولس وذلك من أجل خلق نوع من الاطمئنان، والاعتماد على الإنجيل الذي كتبه.

وهناك كثير من علامات الاستفهام حول كون مرقس هو المؤلف الحقيقي لإنجيل مرقس، فحسب رأي البعض أن هذا الإنجيل لم يكتبه مرقس، وإنما دوّنه بيتروس.

وفي الواقع فإن مرقس لم يلتقِ بعيسى عليه السلام، ولم يسمع منه، وما كانت كتاباته إلا مما سمعه، وما علق في ذهنه مما تعلمه من غيره، وهذه الكتابات غير منتظمة ومليئة بالأخطاء، وإن العبارات والفصول التي يتضمنها لا تحمل أي أثر للاهتمام بالتسلسل الزمني أو التاريخي.

ويقول "م. ب. روغت" بحق كاتب هذا الإنجيل الذي يُعتقد بأنه كُتب بين عام / ٦٣ و ٧٠ ميلادي / :

"إن مرقس كاتب أعجمي، وهو من أقل كتاب الإنجيل مستوى."

إنجيل لوقا:

إن مهنة كاتب هذا الإنجيل الثالث لوقا الأصلية هي الطب، وقد كتب هذا الشخص كتاباً يتعلق بأعمال الأنبياء أيضاً.

وقد تم تدوين هذا الإنجيل الذي كتبه لوقا من أجل اليونانيين، ولكن هذا الكتاب مليء بمغالطات وأخطاء تاريخية كثيرة. وقد

استعان لوقا خلال كتابته الإنجيل بمرقس، إضافة إلى ذلك فقد اعتمد لوقا على الآثار غير الإلهية، وحتى على مصادر شفوية، وأضاف عليها الكثير من الأمثال. ولهذا السبب فقد وصفه "م. ب. كانينجيسر" بأنه: "روائي حقيقي!"

إن لوقا ذو الأصل اليوناني عندما يتناول وصف عيسى عليه السلام فإنه إنما يتبنّى خيال مؤرخ يوناني، وإن استخدامه لأسلوب من يبحث في حياة بطل يوناني، ومنطق الروائي الذي يضمنه كتابه يوحي للوهلة الاولى بأننا لسنا أمام كتاب إلهي، بمعنى أن إنجيل لوقا عبارة عن كتاب يحاول لوقا إبرازه بأنه نتيجة لجهد بشري وليس وحي إلهي.

إنجيل يوحنا:

يُقدم إنجيل يوحنا الذي يعتبر الإنجيل الرابع على أنه الإنجيل الذي كتبه زبدة صديق عيسى عليه السلام وحواريه، ويوحنا بن سالوم. ولكن يرى الباحثون بأنه بالنظر في هذا الإنجيل يتبين بأنه قد أُخذ من مكتبة الفلسفة الاسكندرية، وأن أساسه قد تأثر بفكر منطق الفلسفة اليونانية بشكل واضح، ولذلك فإنه قد كُتب من قبل شخص آخر تحت اسم مستعار وهو يوحنا، وذلك لأنه ليس من المعقول أن يكون كاتب الإنجيل يوحنا حواري عيسى عليه السلام ومن ثم يتشبّع بالفلسفة اليونانية ويبقى تحت تأثيرها ليعكسها على الإنجيل الذي

يكتبه، ومن جانب آخر فإن هدف كاتب إنجيل يوحنا هو إثبات ألوهية عيسى ﵇، وإظهار أنه ليس ذاك الحواري الذي آمن في الحقيقة بروح الله.

ولا يمكن العثور في إنجيل يوحنا هذا الذي يُقال بأنه كتب بين عام / ٩٠ و ١١٠ ميلادي / على أية معلومة أو عبارة تشير على أنه وحي إلهي. وقد ورد في هذا الإنجيل أيضاً بأن الحواريين يخاطبون عيسى ﵇ بقولهم له: "يا رب!". ولهذا الاعتبار، فإنه يرجح أن يكون يوحنا هو شخص من أتباع بولس اليهودي الذي حرف الإنجيل خلفه وراءه ليتابع التحريف الذي بدأه. ولذلك فإن "م. ب. روغيت" يوضح الفكر الذي يتضمنه الإنجيل الذي صاغه يوحنا بقوله:

"بينما الأناجيل الثلاثة الأولى متى، ومرقس، ولوقا التي تشبه بعضها البعض تنقل أقوالاً متضاربة لعيسى ﵇، وتقترب من بعضها بأسلوب القول، في حين نرى أن كل شيء في إنجيل يوحنا يغرق بفكر مؤلفه. لدرجة أننا نضطر للوقوف أمام أنفسنا لنتساءل: (هل المتكلم عيسى ﵇، أم أن أقواله يتم التوسع فيها من قبل كاتب الإنجيل بحيث تتداخل مع مقدماته، وتوضيحاته.؟"

❀ ❀ ❀

لقد تم الاعتراف بهذه الحالات الغريبة للأناجيل من قبل بعض رجال الدين المسيحي بالذات:

وقد قال "توست" الذي ينتمي إلى المذهب المناوية والذي يحتل المرتبة الثالثة، قال بشأن مؤلفي الأناجيل:

"الجميع يعلم بأن الأناجيل لم تُكتب لا من قبل عيسى عليه السلام، ولا من قبل حوارييه، وإنما كُتبت من قبل أشخاص مجهولين جاؤوا بعد عيسى عليه السلام والحواريين بزمن طويل، ولأن هؤلاء الأشخاص قد علموا بأن الناس لن تصدقهم بشأن أشياء لم يروها بأنفسهم، فقد نسبوا بداية كلامهم إلى الحواريين، أو إلى أسماء أشخاص كانوا قريبين من الحواريين."

وأما الإنجيل المقدس الحقيقي الذي أُنزل على عيسى عليه السلام والذي لم يعد له وجود الآن، فإنه ليس كما هو وارد في الأناجيل المتداولة اليوم، وإنما كان كتاب هداية وموعظة للمتقين. ويبين الله عز وجل ذلك في كتابه الكريم:

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [٥٠٦]

ويبين الله تبارك وتعالى أن أهل الكتاب الذين فسد دينهم، إذا ما اتبعوا الإسلام خاتم الأديان، والتزموا بأوامر الله تعالى فإنه سوف يغفر لهم سيئاتهم وذنوبهم، حيث يقول في كتابه العزيز:

---

٥٠٦ المائدة، ٤٦.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[٥٠٧]

❀ ❀ ❀

وكما ذكرنا من قبل فإنه بالإضافة إلى الأناجيل الأربعة المتداولة حالياً هناك إنجيل آخر مشهور، وهو "**إنجيل برنابا**". وبرنابا هو من أصحاب عيسى عليه السلام المقربين، ويدين بعقيدة التوحيد. ولذلك فقد حدثت مشاكل وصراعات كبيرة بين البرنابيين الذين تمسكوا بعقيد التوحيد ودافعوا عنها بقوة، وبين البولسيين الذين انحرفوا عن عقيدة التوحيد واعتنقوا عقيدة التثليث.

إن إنجيل برنابا الذي يفترق عن الأناجيل الأخرى، فإنه يتميز عنها بالفروقات الرئيسية الآتية:

١. إن عيسى عليه السلام في إنجيل برنابا ليس إلهاً، ولا ابناً للإله. وإنما هو نبي من أنبياء الله الذي أرسله إلى الناس.

٢. إن ابن إبراهيم عليه السلام الذي أراد التضحية به في سبيل الله تعالى هو إسماعيل عليه السلام، وليس إسحاق عليه السلام.

٣. إن عيسى عليه السلام لم يُصلب.

٤. إن المسيح المنتظر هو سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

---

٥٠٧ المائدة، ٦٥.

التناقضات التي في الأناجيل الأربعة:

قبل الخوض في هذا الموضوع لا بد أن نذكِر هنا بأن الدين الوحيد على وجه الأرض الذي يُقر بأن عيسى عليه السلام الذي يُعتبر أساس العقيدة المسيحية قد وُلد من فتاةٍ بكر تتمتع بعفة وشرف منقطع النظير من غير أب، هو الدين الإسلامي. وقد كان نبي الإسلام سيدنا محمد ﷺ يعلم أصحابه الكرام بأن عيسى عليه السلام من كبار الأنبياء الذي أرسله الله تعالى ليخرج الناس من ظلمات الضلالة والجهل إلى نور الهداية والإيمان.

ولم يتعرض الإسلام في أي عصر من العصور للدين المسيحي الحق الذي بُعث به عيسى عليه وبلغه للناس بأي سوء أو تجريح، وإنما على العكس من ذلك فقد أوجب على المسلمين ضرورة الإيمان بنبوة عيسى عليه السلام والإنجيل الذي أُنزل عليه وإظهار بالغ الاحترام والتبجيل لمريم العذراء أمّ عيسى عليه السلام، ولكن هذا التبجيل، والتقديس والإيمان موجه إلى الدين الأصلي الذي جاء به عيسى عليه السلام، والذي لم يدخله التحريف والتغيير.

وبعد هذا التذكير القصير سوف نخوض في تقييم الأناجيل المتداولة في أيامنا هذه والتي فُقدت هويتها الأصلية:

ليس هناك اتفاق حتى بين اثنين من المؤلفين على تاريخ كتابة الأناجيل الأربعة التي لم يرها عيسى عليه السلام، ولم يأمر بكتابتها، ولهذا

السبب فإنه لا يخفى على أحد الأخطاء الكثيرة، والتحريفات، والتناقضات الموجودة في هذه الأناجيل، إن التدخلات والكتابات البشرية التي وكأنها قد صفت الأناجيل من طبيعتها العلوية غير قابلة للفهم، ومليئة بالمعلومات المتضاربة مع بعضها البعض.

وإن من أهم هذه المعلومات هي:

- يتم تبيين ونقل الحوادث نفسها في مختلف الأناجيل، وأحياناً في الإنجيل الواحد نفسه بشكلين أو ثلاثة أشكال أو أكثر من ذلك وبطريقة مليئة بالتناقضات، ومن الثابت والمحقق أن الله سبحانه وتعالى لا يبين الأمور للناس بصورة مناقضة للحقيقة.

- في حين أن إنجيل مرقس وإنجيل يوحنا لا يبحثان في نسب عيسى عليه السلام، نجد أن إنجيل متى وإنجيل لوقا يقدمان سجلاً لنسبه. وبينما يعدد إنجيل متى أربعين شخصاً يصل من خلالهم عيسى عليه السلام بنسبه إلى إبراهيم عليه السلام، نجد أن إنجيل لوقا يذكر خمسة وخمسين شخصاً في هذا النسب. إضافة إلى أن إنجيل لوقا يضيف عشرين شخصاً ليصل بنسبه إلى آدم عليه السلام، فيكون العدد خمسة وسبعون شخصاً، بينما لا يقدم إنجيل متى أية معلومات تتعلق بنسب عيسى عليه السلام قبل إبراهيم عليه السلام.[٥٠٨]

٥٠٨ متى، ١/ ١٧؛ لوقا، ٣/ ٢٣– ٣٨.

وإن عدد الأربعين شخصاً في نسب عيسى عليه السلام إلى إبراهيم عليه السلام المذكورين في متى غير ناشئ عن نسيان الخمسة عشر رجلاً المذكورين في لوقا، إذ أنه عند دراسة الأسماء نجد وبشكل واضح للعيان أن كلها أسماء غير متشابهة وحتى الأسماء المتشابهة مع بعضها أيضاً موجودة في أماكن مختلفة من سلسلة النسب.

إن هذه التناقضات التي لا تُقبل حتى في الكتب البشرية هي نواقص جدية في الأناجيل، فلا نعلم كيف نقيّم قبول الإنسان اليوم بكتبٍ لا دليل عليها، ولا سند لها، ومليئة بالتناقضات ومن ثم الإيمان بها، بينما كان يطلب أدلة ومعجزات للإيمان بالأنبياء وكتبهم على الرغم من أنه كان يرى هؤلاء الأنبياء بأمّ عينه، ويسمع ويشهد على الكتب التي يتلونها؟

- بحسب إنجيل متى فإن يحيى عليه السلام هو "إيليا" [٥٠٩]، بينما يبين إنجيل يوحنا بأنه ليس "إيليا" [٥١٠]

- هناك عبارات مختلفة حول ما إذا كان يحيى يعرف عيسى، أم لا يعرفه. وأما فيما يتعلق بمقتل يحيى فإننا نجد أن إنجيل متى وإنجيل مرقس يستفيضان بالكلام حول هذا الموضوع، في حين نرى أن إنجيل يوحنا يقتصر على جملة أو جملة بشأن هذا الأمر. [٥١١]

---

٥٠٩ متى، ١١/ ٤.

٥١٠ يوحنا، ١/ ٢١.

٥١١ يوحنا، ١٩/ ٢٨– ٣٠؛ متى، ٢٧/ ٣٢– ٥٦؛ مرقس، ١٥/ ٣٣– ٤١ .

• يوجد الكثير من العبارات البعيدة عن بعضها البعض والمتضاربة بين تلك الموجودة في إنجيل يوحنا وبين ما هو موجود في غيره من الأناجيل الأخرى والتي تتعلق بلقاء عيسى عليه مع حوارييه واتخاذهم إلى جانبه.[٥١٢]

• هنالك معلومات متضاربة في الأناجيل حول بلاد وقوم المرأة التي طلبت من عيسى العون والمساعدة من أجل إشفاء ابنتها التي تلبّسها المرض خلال مجيء عيسى إلى منطقة صور وصيدا، فحسب إنجيل متى إن تلك المرأة كانت كنعانية.[٥١٣] وأما حسب إنجيل مرقس فإن المرأة كانت يونانية.[٥١٤] إن هذا التضارب بين هذه الكتب التي يُدعى زوراً بأنها كتب إلهية يثير العجب والاستغراب حقاً، فإن كان حتى إنسان عادي لا يمكن أن يلتبس عليه مكان ولادته، فهل من الممكن أن يلتبس على الخالق المنزه عن كل صفات النقص مكان ولادة أو خلق أحد من مخلوقاته؟ بالتأكيد لا، وحاش لله!

وهذه الحالة تبين أن الأناجيل قد كتبت من قبل أشخاص منفصلين لا يمتّ أحدهم بصلةٍ للآخر ، أو خبر، وقد ألف كل واحد منهم إنجيله بحسب مستوى ثقافته وعلمه، ووفق ما تمليه عليه أهواؤه النفسية وميوله الشخصية، ولذلك فهي مليئة بالاختلافات والتناقضات الحادة.

---

٥١٢ لوقا، ٥/ ١- ١٧؛ يوحنا، ١/ ٣٥- ٥١؛ متى، ٤/ ١٨- ٢٢.

٥١٣ متى، ١٥/ ٢١- ٢٢.

٥١٤ مرقس، ٧/ ٢٦.

• على الرغم من الأناجيل تذكر عيسى ﵇ بإسناد صفة الألوهية إليه، إلا قد أنه ورد ذكر عيسى ﵇ في كثير من الأماكن على أنه "ابن آدم" و "عبد الرب" [٥١٥]. فكيف يمكن أن نفسر حالة شخص هو ابن الله، وفي نفس الوقت ابن لإنسان؟ وحتى لو اعتبرنا في هذه الحالة أن الإنسان = الله، فإن هذه الفكرة تستحيل مناقشتها أو تصورها. وذلك لأن الله هو الخالق، وأما الإنسان فهو مخلوق.

ولذلك فإن المسيحين الذين يدركون هذه الحالة يرون بأن تفسير عبارة "ابن الله" الواردة في الأناجيل هو أن الله تعالى قد حل بعيسى ﵇، ودخل في جسده واستقر فيه، وقد تجلى للناس من خلال جسد عيسى، ولهذا السبب فإنهم بجهالة مطبقة يدعون بأن عيسى ﵇ قد تأله. إن قبول مثل هذا الأمر لا يليق البتة بالخالق ﷻ المنزه عن كل صفات المخلوقات، وبألوهيته التي فوق كل شيء.

ويستخدم تعبير "ابن الله" في الأناجيل للدلالة على المسيحيين الآخرين أيضاً، حيث يقول عيسى ﵇ في الإنجيل لحوارييه:

"وأما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم؛ لكي تكونوا **أبناء أبيكم** الذي في السماوات...!" [٥١٦]

٥١٥ متى، ١٢/ ١٧– ١٨؛ أعمال الرسل، ٣/ ١٣، ٤/ ٢٧– ٢٨.

٥١٦ متى، ٥/ ٤٤– ٤٥، ٦/ ١؛ لوقا، ٦/ ٣٥.

وكذلك يُروى أن عيسى عليه السلام قال:

"طوبى لصانعي السلام، لأنهم **أبناء الله** يُدعون." [517]

إن العقيدة الباطلة للثقافة المسيحية التي تنعكس من تعبير "الله هو البابا" واضحة للغاية إلى درجة أنها تمزق أغشية التأويل الذي يجري بحقها بهدف إخفائها عن الأبصار. ومن جهة أخرى، فإن المسيحيين يعتبرون هذه العبارة سبباً لعلو شأنهم على الناس الآخرين.

ولكن الله عز وجل يرد على سلوكهم هذا في كتابه العزيز بقوله:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [518]

❀ ❀ ❀

وتمتد التناقضات الواردة في الإنجيل إلى أمور أخرى:

- لقد ذكرت الأناجيل الأربعة الأحداث التي وقعت ليلة القبض على عيسى عليه السلام بشكل مفصل، ولكن البيان الذي ورد في هذا الشأن في كل إنجيل يختلف عما ورد في الأناجيل الأخرى، بحيث تظهر الاختلافات فيما بينها إلى درجة التناقض والتضارب. [519]

---

٥١٧ متى، ٥/ ٩.

٥١٨ المائدة، ١٨.

٥١٩ متى، ٢٦/ ٤٧- ٥٦؛ مرقس، ١٤/ ١٣- ٥٢، ٢٢/ ٤٧- ٥٣.

• إن زوج السيدة مريم العذراء يوسف بحسب إنجيل لوقا هو ابن هالي، ووفق إنجيل متى هو ابن يعقوب. [٥٢٠]

• يتبين من أناجيل متى، ومرقس، ولوقا أن عيسى عليه السلام تم تعميده من قبل يحيى عليه السلام، في حين لم يرد في إنجيل يوحنا أي ذكر للتعميد. [٥٢١]

• وفق أناجيل متى، ومرقس، ولوقا فإن مملكة عيسى عليه السلام الأصلية هي الجليل، بينما يذكر إنجيل يوحنا أن مملكته هي اليهودية. [٥٢٢]

• يبين إنجيل متى، وإنجيل مرقس أن مهمة عيسى عليه السلام قد بدأت بعد إلقاء يحيى عليه السلام في السجن، بينما يذكر إنجيل يوحنا أن مهمته بدأت قبل سجن يحيى عليه السلام. [٥٢٣]

• إن وجود معلومات متناقضة بدرجة كبيرة في الأناجيل والتي تتعلق بحادثة إلقاء القبض على عيسى عليه السلام، ومحاكمته، وتعليقه على الصليب، ودفنه، وقيامته حياً من المقبرة ولقائه مع تلاميذه، ومن ثم صعوده إلى السماء؛ يؤكد أن ذلك لا يمكن أن يكون من شأن كتاب إلهي. [٥٢٤]

٥٢٠ لوقا، ٣/ ٢٣؛ متى، ١/ ١٦.

٥٢١ متى، ٣/ ١٧؛ مرقس، ١/ ٩- ١٢؛ لوقا، ٣/ ٢١- ٢٢.

٥٢٢ متى، ١٣/ ٥٤- ٥٨؛ مرقس، ٦/ ٤؛ لوقا، ٦/ ٢٩؛ يوحنا، ٤/ ٣، ٤٣، ٤٥.

٥٢٣ متى، ٤/ ١٢- ١٧؛ مرقس، ١/ ١٤- ١٥؛ يوحنا، ٣/ ٢٢- ٢٦، ٤/ ١- ٣.

٥٢٤ متى، ٢٧- ٢٨؛ مرقس، ١٥- ١٦؛ لوقا، ٢٣- ٢٤؛ يوحنا، ١٩- ٢٠.

• ومن ناحية أخرى فإن العبارة التي وردت على لسان عيسى عليه السلام عندما اقتيد إلى الصليب حسبما جاء في إنجيل متى، وإنجيل مرقس:

– إلهي، إلهي لماذا تركتني؟ [٥٢٥]، لا يمكن أن تكون من كلام نبي، لأن مثل هذه العبارة تظهر سلوكاً اعتراضياً على الإله عز وجل. وهذا ليس من شأن الأنبياء عليهم السلام.

• إن عيسى عليه السلام وفق إنجيل متى عندما وصل إلى بلاد "الجَدَريين" التقى بشخص تلبّسه جان، ومجنونين، وأما بحسب ما جاء في إنجيل مرقس، وإنجيل لوقا فإنه التقى بمجنون. [٥٢٦]

• وفيما يتعلق بطلب اليهود من عيسى عليه السلام دليل نبي الله يونس عليه السلام يذكر إنجيل مرقس أن عيسى عليه السلام يخبر القوم:

"لن يُعطى هذا الجيل آية"، بينما ورد في إنجيل متى "أنهم سوف يُعطون هذا الدليل أو الآية." [٥٢٧]

فهذا هو الدين المسيحي اليوم! دين يتلاطم بين أمواج المعلومات المختلفة والمتضاربة، كما تأرجح بين آراء المؤرخين المختلفة!..

---

٥٢٥ متى، ٢٧/ ٤٦؛ مرقس، ١٥/ ٣٤.

٥٢٦ متى، ٢/ ٢٨؛ مرقس، ٥/ ١– ٢؛ لوقا، ٨/ ٢٧– ٢٩.

٥٢٧ متى، ١٢/ ٣٨– ٤١؛ مرقس، ٨/ ١١– ١٢.

سبب صلب سيدنا ﷺ وفق رأي المسيحيين:

بحسب رأي المسيحيين أن سيدنا آدم ﷺ وأمنا حواء قد اقترفا الذنب الإنساني بأكلهما من فاكهة الشجرة المحرمة عندما كانا في الجنة.[٥٢٨] ولهذا السبب فقد حكم الله ﷻ بحرق كل البشر الذين سوف يولدون من نسلهما في نار جهنم، إلا أن عيسى ﷺ قد تألّم قلبه كثيراً لحال الإنسانية، ولأجل ذلك تحمّل كفارة وزر الناس جميعاً بتعليقه على الصليب، وفدى بنفسه في سبيل الإنسانية جمعاء. وبذلك فقد تخلّص الناس من الذنب الذي توارثوه من آدم وحواء.[٥٢٩]

وقد بين الله تعالى في القرآن الكريم بطلان هذا الأمر، وعدم وقوعه، حيث يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا. وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾[٥٣٠]

﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[٥٣١]

---

٥٢٨ التكوين، ٣/ ٢٤.

٥٢٩ رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية، ٣/ ٢٣– ٢٦.

٥٣٠ النساء، ١٥٦– ١٥٧.

٥٣١ النساء، ١٥٨.

فعلى الرغم أن هذه هي الحقيقة الناصعة التي بينها القرآن الكريم، نقول أيضاً ما أغرب هذه العقيدة حيث أن الله ﷻ من أجل أن يهدئ غضبه وسخطه يقرر قتل ابنه بسبب فاكهة أكلها جده، فيتحمل الإنسان بذلك جريرة ووزر غيره الذي أكل فاكهة بأن يُقتل! إن الادعاء بوجود مثل هذه العقيدة في دين أنزله الله تعالى الذي بين لنا بأنه لا يتحمّل العبد وزر عبد آخر، ولا يمكن لعبد أن يُحَمّل ذنبه لغيره؛ وهذا ليس إلا دليلاً على تحريف ذلك الدين وبطلانه، وعندما يدعو المسيحيون اليوم الناس إلى دينهم، فإنهم يعملون على تجميل هذا الدين الذي أُفسد أصله تماماً وجعله جذاباً للنفس من خلال قولهم بأن عيسى عليه السلام قد افتدى بنفسه في سبيل البشرية جمعاء، وتحمّل عنهم أوزارهم كلها مستغلين غفلة الناس وضعف أنفسهم.

إلا أنه ينبغي التفكير والتساؤل هنا، أنهم بينما يعتبرون أن أكل فاكهة محظورة ذنباً إنسانياً عظيماً، فكيف يقبلون على أنفسهم الانغماس في مظالم عظيمة لا تليق بالكرامة والشرف الإنساني، وإغراق أنفسهم في المنكرات، والمعاصي، والإنكار، والرذائل التي يأبى الإنسان السوي التلفظ بها بلسانه، ومن ثم يجيزون كل ذلك لأنفسهم؟!.. وإن بقاء المسيحين في موقف المتفرج حيال المجازر البشعة التي حصلت على مرّ التاريخ ومن بينها الإبادة الجماعية التي حصلت مؤخراً في بوسنة وأشباهها، وإنّ تجاوز المؤسسات البابوية والبطارقة هذه الجرائم المنكرة بصمت، هل

يأتلف هذا السلوك مع موقف من يدعون أنهم من أتباع نبي الرحمة والسلام عيسى عليه السلام؟ وهل لا يذنب هؤلاء، ولا يرتكبون جرماً ومعصية عندما يبقرون بطون النساء الحوامل فقط لأنهن لسن من أتباع ديانتهم، ويريقون دماء أطفالهن البرآء الطاهرة بوحشية منقطعة النظير؟

إن عيسى عليه السلام أحد أنبياء الله الأجلاء الذي أحرز المقام العالي والبارز بين الناس، والمرسل من أجل تعليم الإنسانية الأخلاق الحميدة، ومقبول من عند الله تعالى في كل شيء. ولذلك فإنه يستحيل حتى مجرد التفكير ـ بغض النظر عن الاعتقاد ـ بأن هذا الرسول الذي اختاره الله تعالى وأحبه، وجعله من أولي العزم قد سيق ـ بسبب ذنب اقترفه جده ـ إلى التعليق على الصليب ليذوق أشد العذاب، ويتعرض لأبشع أنواع التنكيل، عدا عن أن هذا الأمر جهالة بحق الخالق عز وجل، وإسناد للظلم إليه بشكل منكر، وخارج عن واجب الخضوع والإذعان للمولى عز وجل. على أية حال فإن الله سبحانه وتعالى قد وعد أنبياءه عليهم السلام بمراتب سامية ومشرفة كثيرة، وأعد لهم إحساناً، ومكرمات، ومقامات عالية، وبقي أن نقول، إن عيسى عليه السلام الذي أُسندت إليه الألوهية، لو كان هو الله كما يدعون، فهل يُعقل أن يكون الله ضعيفاً إلى درجة يقف فيها عاجزاً بين أيدي بضعة من البشر يقودونه إلى التعليق على الصليب؟

ومن جهة أخرى، فإننا لو نظرنا إلى حكم الله تعالى وبيانه في هذه المسألة التي يدعون فيها بأن عيسى عليه السلام قد تحمّل جزاء غيره، تستبين لنا الحقيقة جلية ناصعة لا مرية فيها، حيث يقول الله عز وجل:

﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا﴾ [٥٣٢]

إن الآية الكريمة تبين بأنه حتى الإنسان المذنب لا يمكن أن يُحمل ذنوب غيره، وبالتالي فإن الادعاء بأن بتحمل إنسان بريء ذنوب غيره من البشر مجاف للحقيقة الإلهية، وإن هذا الادعاء مناقض حتى للمنطق الإنساني! فمن يمكن له أن يقبل بتحمّل مسؤولية ذنب يقترفه غيره ولا علاقة له به؟

❀ ❀ ❀

إذا أمعنا النظر في حقيقة مسألة اقتراب آدم عليه السلام من الفاكهة المحظورة في الجنة؛ نجد أن ذلك كان بالنسبة له ذلة لا أكثر، أي مجرد خطأ لاإرادي. ومن وجهة جانب آخر فإن ذلك قد حصل بموجب الإرادة الإلهية. وذلك لأن الإرادة الإلهية قد اقتضت إنزال آدم عليه السلام وأمنا حواء إلى الأرض التي خُلقت من أجل الإنسان، واستمرار نسله بالتكاثر والبقاء فيها إلى يوم القيامة؛ ومن ثم، فمن تعهد نفسه بالتزكية والتطهير، وسما بروحه بالقرب من الله تعالى

٥٣٢ الإسراء، ١٥.

فإنه سوف يعود إلى الجنة التي خرج منها آدم عليه السلام، وأما من اتبع أهواءه نفسه ورغباتها فإنه يكون صاحباً للشيطان ويدخل نار جهنم.

ويوضح لنا النبي ﷺ هذه الإرادة الإلهية، حيث يقول:

"احتج آدم وموسى، فقال له موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة، قال له آدم: يا موسى اصطفاك الله بكلامه، وخط لك بيده، أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ فحج آدم موسى، فحج آدم موسى " [٥٣٣]

ومن جهة أخرى، فإن آدم عليه السلام وأمنا حواء لما اقترفا الذنب قالا كما ينقل لنا الله تعالى كلامهما في القرآن الكريم:

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [٥٣٤].

وانشغلا بالتوبة والاستغفار لربهما عز وجل، وفي النهاية نالا العفو الإلهي، وأُسبغت عليهما نعمه الكثيرة.

وعلاوة على تنقية آدم عليه السلام من أثر الذنب الذي اقترفه بالمغفرة التي تفضل الله تعالى بها عليه، فإنه تشرف بأكثر المقامات قرباً من الله تعالى والذي لا يناله المرء بكسب يده وإنما بلطف الله تعالى وفضله ألا وهو مرتبة النبوة.

---

٥٣٣ البخاري، القدر، ١١/ ٦٦١٤؛ مسلم، القدر، ١٣/ ٢٦٥٢.

٥٣٤ الأعراف، ٢٣.

وخلاصة القول، إذا كان الذنب الذي لم يُغفر بعد، لا يمكن تسلسله وتعديه إلى غير مرتكبه، فمن باب أولى ألا يتسلسل الذنب المغفور إلى الغير! حتى إن الذنوب التي تصبح مظهراً للعفو بعد التوبة الصادقة المخلصة، فإنها تُبدل إلى ثواب، وحسنات بلطف الله تعالى وفضله. حيث قال الله ﷻ في كتابه العزيز:

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [٥٣٥]

❀ ❀ ❀

إن كل الكتب السماوية الإلهية التي أرسلها الله تعالى من عنده إلى عباده تحمل صفة "المبين". وإن القرآن الكريم الذي يُعد آخر هذه الكتب وخاتمها يبرز هذه الصفة بشكل واضح، وتتكرر فيه كلمة "المبين" بكثرة التنبه إلى هذه الحقيقة، وتؤكدها بشكل صريح، إلا أننا لا يمكن أن نعثر على ما يشير إلى هذه الخاصية في الأناجيل التي حرفت وشكلت سبباً لنزول القرآن الكريم.

إن التناقضات الموجودة في الأناجيل تعطينا معلومات أكثر مما نقدمه بخصوص ما إذا كانت هذه الأناجيل حصيلة الوحي أم لا. لأن كل صاحب عقل سليم يدرك بأن الله تعالى القادر على كل شيء، والمنزه عن كل نقص يستحيل أن يرسل إلى عباده كتاباً إلهياً

---

٥٣٥ الفرقان، ٧٠.

متناقضاً إلى هذه الدرجة، ومليئاً بكثير من النواقص والمغالطات، لأنه سبحانه وتعالى فوق كل نقص.

الحقيقة أن المسيحية التي حُرفت بسرعة بعد رفع عيسى عليه السلام إلى السماء قد فقدت صفتها الأصلية كدين حق خلال فترة قصيرة، وأُحيطت بطبيعة وثنية.

وقد طُبقت فكرة "بطل الشعب المصلوب" التي كانت سائدة في الثقافة الوثنية على عيسى عليه السلام بالذات، وجُعل الصليب المتعلق بهذه الحادثة رمزاً للقدسية، لأن الصليب كان موجوداً في الثقافة الأوروبية قبل المسيحية.

في العصور الأولى للمسيحية لم يكن يُحتفل باليوم الأول من شهر كانون الثاني كبداية لرأس السنة، وإنما أثرت احتفالات رأس السنة التي كان يقوم بها الوثنيون في الفترة الواقعة بين / ٢٤ كانون الأول و ٦ كانون الثاني / والتي كانت تضمّ أياماً مختلفة، أثرت في المسيحيين فتمّ الادعاء بأن الأول من كانون الثاني يصادف ميلاد عيسى عليه السلام، وشكّلوا تقويماً جديداً، وبدأوا بالاحتفال بهذا اليوم كعيد للميلاد.

وقد كان الهدف الأول والوحيد للأباطرة والملوك الرومانيين، واليونانيين القدماء أن يتم تأليههم بعد الموت، وطُبق هذا المفهوم بحق عيسى عليه السلام، وتم إظهاره في الأناجيل وكأنه بطل أسطوري متأله.

باختصار، إن كلام الله تعالى في الأناجيل قد تداخل بشكل معقد مع كلام البشر والأفكار الباطلة.

لقد أفسد اليهود الماديون عقيدة التوحيد التي جاء به عيسى عليه السلام منذ الأزمنة الأولى، إن هذا السلوك طبيعي بالنسبة إلى اليهود الذين اعتادوا منذ القدم على هذه التصرفات من تحميل أنبيائهم أقوالاً وأفعالاً زوراً وبهتاناً بما يسهّل عليهم حياتهم، ويحقق لهم منافعهم ومصالحهم الخاصة، وتلبي أهواءهم ورغباتهم النفسية.

❀ ❀ ❀

ولا ينبغي أن ننسى بأنه كما أن التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام كانت سراجاً منيراً يضيء طريق الهداية، فإن هذا الحكم ذاته يسري على الإنجيل الذي أنزل على عيسى عليه السلام، والقرآن الكريم الذي أنزل على سيدنا محمد ﷺ فهما مرشدان إلى الهداية في الزمن الذي أُنزلا فيه، ومن المؤكد هنا، أن الذي يضع حكماً (قانوناً) يسري على نفس الأمر في الأزمنة المختلفة والمتعاقبة، وأما إذا نُسخ الحكم القديم بحكم جديد فلا شك في هذه الحالة أن الحكم الأخير هو الذي يسري، فلو أنه في عهد موسى عليه السلام لم يُعمل بالتشريع الذي أُنزل على موسى عليه السلام، وإنما اتُبع التشريع الذي أُنزل على سيدنا إبراهيم عليه السلام، فإن ذلك لا يُعد طاعة لله تعالى، بل على العكس هو عصيان لله سبحانه وتعالى. ولأن إرادة الله تعالى تعلقت بجعل الإسلام خاتمة الأديان، وإبقاء حكمه سارياً إلى يوم

القيامة، لذلك فإن الكتاب الإلهي الوحيد الذي بقي حكمه جارياً حتى اليوم وسوف يبقى إلى يوم القيامة هو القرآن الكريم.

إن المصدر والمنبع الأصلي والوحيد لكل الكتب السماوية الإلهية هو الله تعالى. وقد بُعث جميع الأنبياء والرسل لغاية واحدة، فآمنوا بالأنبياء الذين أُرسلوا من قبلهم وصدقوهم، وبشروا بالأنبياء الذين سوف يُبعثون من بعدهم، وقد صدَق نبينا محمد ﷺ وأيّد الرسل والأنبياء المرسلين من قبله، إلا أنه بلغ الناس بأن الإسلام هو آخر الأديان، وأنه خاتم الرسل والأنبياء، وأن القرآن الكريم هو خاتم الكتب السماوية.

يقول رسول الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم:

"أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة، وليس بيني وبينه نبي، الأنبياء إخوة من علات أمهاتهم شتى ودينهم واحد. فمن لقيه منكم فليقرئه مني السلام." [٥٣٦]

❀ ❀ ❀

لقد عاش عيسى عليه السلام حياة ملؤها الزهد والتقشّف على عكس الكنيسة اليوم، وقد كانت علامته الفارقة تزكية النفس وتصفية القلب؛ أي أنه كان في حالة من الابتعاد والتخلي التام عن الرغبات والأهواء النفسية، والتوجه نحو حياة روحانية، والتمسك بالأخلاق الحميدة، والتحلي بمشاعر الرحمة والأخوة.

٥٣٦ أحمد، مسند، جـ ٢، ٤٨٢/ ١٠٢٦٣؛ جمع الفوائد، جـ٥، ١٦.

وقد نزل الوحي الإلهي على عيسى عليه السلام بشأن واحد من أهم وأبرز دساتير التصوف وهو "الحب في الله، والبغض في الله" بهذه الصورة:

"إن عبدتني بمقدار عبادة من في السماوات والأرض، ولم يكن في قلبك صداقة لأجلي وعداوة لأجلي، فلن ينفعك كل عبادتك!"

إن كمال كل عبادتنا وحركاتنا بمثابة عمقنا الروحي. أي ينبغي أن يكون حبنا من أجل الله تعالى، وبغضنا أيضاً من أجل الله تعالى.

يقول سيدنا عيسى عليه السلام:

"كونوا أصحاب الله بعداوتكم للعصاة! واقتربوا من الله تعالى بابتعادكم عن العصاة، واحصلوا على رضا الله ببغض العصاة!.."

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا من عبادك الصالحين الذين يتقلبون بالنعم التي في بساتين رضاك!

آمين!..

الغربة:

إن طريق التصوف بشكل عام هو طريق الغربة، لأن نتيجة هذا الطريق هي تولُدُ الوحشة والغربة تجاه الناس، والقرب من الله ﷻ.

وهكذا فقد رأى كل من زكريا ﵇، وابنه يحيى ﵇، وابن خالة يحيى عيسى ﵇ مظاهر مختلفة من الغربة، فعلى الرغم من أن هؤلاء الأنبياء الثلاثة كانوا في وطنهم وبين قومهم وجماعتهم إلا أنهم عايشوا غربة صعبة للغاية، إذ أن قليلاً من الناس المحيطين بهم آمنوا بهم وصدقوهم خلال دعوتهم إلى سبيل الهدى والرشاد، وفي نهاية الأمر استُشهد اثنان منهم على أيدي القوم، وأما الثالث فقد أريد قتله بإصرار وتصميم إلا أن رعاية الله تعالى أدركته، فنجى منهم ورُفع إلى السماء، إلا أن هؤلاء الأنبياء الثلاثة كانوا يعيشون في غربتهم هذه حياة تضحية وإخلاص لله تعالى إلى أن كانت النتيجة تكريم الله ﷻ لسيدنا زكريا ويحيى بشرف الشهادة، وتكريم سيدنا عيسى ﵇ برفعه إلى السلام، وقوله لهم "سلام عليكم."

وقد ذُكر شعور الوحدة والغربة الذي أُسند إلى هؤلاء الأنبياء الثلاثة بصفة ملفتة للانتباه في الحديث الشريف، حيث يقول النبي ﷺ:

"كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل" [٥٣٧]

"... فطوبى للغرباء"[٥٣٨]

❀ ❀ ❀

التصوف ينمّي الميول السامية والرفيعة الموجودة في فطرة الإنسان عن طريق مهذب الكلام، والذكر، والرياضة الروحية، والإخلاص، ليخرج هوية "الإنسان الكامل" من الإنسان الفطري الخام، ولأن استعدادات الناس وقدراتهم العقلية والنفسية مختلفة ومتفاوتة فيما بينها، لذلك فإن تعريف الناس واطلاعهم على أسرار الحوادث والأشياء باستخدام مناهج وطرق التصوف لا يعطي النتيجة ذاتها مع كل فرد. إلا أنه يظهر قدر مشترك في بعض الميول ـ حتى مع وجود الفروقات الفردية بينهم ـ بين كل الناس. ومن أحد هذه الميول التي يشترك فيها جميع الناس هو الحنين والميل نحو العودة إلى المكان الذي انحدر منه الإنسان، أي العودة إلى الموطن الأصلي.

ولهذا فإن من إحدى غايات التصوف هي الارتقاء بالإنسان من المشاعر الدونية إلى المشاعر العلوية عن طريق تحقيق الكمال بالذكر الدائم في استعداداته وميوله، ورغباته، وبحثه المتعلق

---

٥٣٧ البخاري، الرقاق، ٣/ ٦٤١٦؛ الترمذي، الزهد، ٢٥/ ٢٣٣٣.

٥٣٨ مسلم، الإيمان، ٢٣٢/ ١٤٥.

بالعودة إلى إقليم الوصل واللقاء مع ربه الذي يتجلى في ﴿**أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ**﴾. وإن سبيل الوصول إلى هذه الحالة التي تعبر عن كمال العبودية يبينها الله تعالى في الآية الكريمة، حيث يقول:

﴿...**أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾[٥٣٩]

إن هذه الحالة هي إحدى الكيفيات التي تظهر بالشكل الأجمل في الإنسان الكامل. لأن الإنسان الكامل يكون قد وصل إلى سر الآية الكريمة التي تقول:

﴿**الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾[٥٤٠]

إن الميل نحو العودة إلى الموطن الأصلي يصبح مصدراً للقلق والحسرة لدى الإنس والجن المجهزين بأعلى قدرات الإدراك من بين جميع الكائنات وذلك بقدر ما يُفلح هؤلاء بالوصول إلى المستوى الأعلى لهذا الميل والإدراك، وعند ذلك فإن كل عبد صاحب إدراك سليم يُحس بنفسه في غربة دائمة مع كل شهيق وزفير.

في الحقيقة إن الغربة تعرض مظاهر متنوعة من الصفحات المختلفة التي مرت بها الكائنات اعتباراً من منشئها الأول مروراً بالمكان الذي استقرت فيه. فمثلاً، بينما يكون الإنسان في البدء في

---

٥٣٩ الرعد، ٢٨.

٥٤٠ البقرة، ١٥٦.

عالم الأرواح، إلا أنه يفارق هذا العالم والمكان ليستقر بعده في عالم الرحم، ومن ثم ينتقل منه ليأتي إلى الدنيا، ويمكن أن يمر في الدنيا بأماكن مختلفة ومتنوعة، وثم يتجاوز هذه الدنيا ليهاجر إلى عالم البرزخ، وفي نهاية الأمر يعود إلى ربه سبحانه وتعالى.

وقد أفرغ أحد الشعراء الذي أحس في قلبه بصفحات الغربة هذه، أفرغ بعض مراحلها في الأبيات الآتية:

مرحلة فيها الدنيا بالشمس ترى

ومرحلة منها الدنيا والعقبى ترى

وبدءُ فصل الأحزان من المراحل المنتهى

فيها شهود الرؤيا وما يأتي وما قد مضى

أجل، إن الغربة عندما نأخذ كل الكلام الذي ذكرناه بعين الاعتبار والدقة هي عبارة عن مراحل، وحسرات، ودرجات، ويمكن تنحية هذه الغربة جانباً، وتجاوز كل المراحل التي تفصل الإنسان عن الموطن الأول بالعودة إلى ربه سبحانه وتعالى. وبناء على هذه الحالة، فإن الذي يزيح الحسرة العميقة والمتجذرة لهذه الغربة التي تولد القلق والاضطراب في الروح هو الوصل مع الله تعالى. وإن المعاني العميقة لهذه الغربة تبقى في الحقيقة في طيات اللاشعور من أعماق أولئك الناس العاديين المضطربين بسبب

مفارقة منازلهم وديارهم والذين لم يدركوا هذه الحسرة العميقة والاضطراب الروحي. ولا يفهم اضطراب الروح هذا بشكل لائق إلا أولياء الله الصالحين أصحاب الإدراك العلوي السامي الذين يتبرؤون من هموم المراحل الفاصلة ويعيشون حياة مليئة بالشوق إلى الوصال الإلهي.

ولهذا السبب فإن جنيد البغدادي يعرف التصوف بأنه:

"هو أن يميتك الحق عنك، ويحييك به."

وإن أجمل مظهر لهذه الحالة يتحقق بوصول العبد إلى سر الصحبة مع ربه، والمداومة على ذكره بمشاعر فياضة من المحبة.

فالذكر ليس مجرد ترديد لفظ الجلالة باللسان، وإنما هو الشعور باحتلال الله تعالى كل مكان في القلب عن طريق إدراك ذات الله تعالى وإحاطة التجليات الإلهية على كيان العبد كله. وبمداومة الذكر يتوصل العبد إلى مرحلة تتوحد فيها حقيقة الذكر مع غاية خلق الإنسان بحيث تعكس الذكر. إن حقيقة الذكر منزهة عن الحروف، والكلمات والأصوات.

ولأن جوهر القلب شيء رباني وإلهي، فإنه لأجل ذلك لطف منزه. وعندما تصبح هاتان الماهيتان بهذه الحالة المجردة عن المادة، فإنهما تصبحان شيئاً واحداً، وتتوحدان، لتصلا إلى التوحيد الحقيقي. يصل القلب هناك إلى التجرد والفراغ، حيث يمحى ويُزال

منه كل شيء ما عدا مذكوره ومحبوبه وهو الله سبحانه وتعالى. لأن القلب في هذا المقام يصبح مركزاً لتجلي الأسماء الإلهية مثل عدسة المكبر التي تستجمع أشعة الشمس لتحرق كل ما تحته، فيحرق كل ما سواه، ويزيله. وهذه الحالة تُسمى بـ "الفناء".

في هذا المقام يخرج كل الفانين من القلب ليستقر فيه "الباقي"، وهو الاطمئنان؛ حيث يصل العبد فيه إلى السكينة والهدوء.

❀ ❀ ❀

والخلاص من غربة الدنيا والتلاقي مع الوصال هو الحقيقة التي جعلت من مولانا جلال الدين الرومي في مقام يشبه الموت وكأنه (شبيه العروس) أي العروس التي تأتي ليلة الزفاف.

إن من إحدى أهم خصائص أهل الله هي احتراقهم بالحسرة الكبيرة في هذه الدنيا التي هي ديار الغربة للحصول على الخلود الحقيقي. ويرى مولانا أن هذا التحرق والاكتواء بنار العشق الإلهي لا يسكن حتى بالموت، ويبين ذلك في البيت الذي قال فيه:

"افتحوا قبري بعد موتي لتروا الدخان الذي ينبعث من كفني بسبب النار المشتعلة داخلي!"

وقد سئل أحد العشاق الإلهيين وقد كان يتألق وجهه فرحاً وسروراً على الرغم من أنه على فراش الموت:

- كيف يمكنك الابتسام بينما أنت في لحظات الموت؟

فرد العاشق بالجواب الآتي:

- الآن تحول كل جسدي إلى شفةٍ وتبتسم! في هذه اللحظة تضحك شفتي بابتسامة أخرى!..

البروانة "نوع من الفراشات" تواقة للسراج، وبسبب توقها للسراج وارتباطها بالوهج الذي يحيط بالسراج لا يقال لها فراشة، وإنما يقال لها بروانة. فإذا ما أبصرت وهج السراج تقع في جاذبيته، وتنتفي إرادتها، وفي النهاية تصطدم بالسراج وتحرق بدنها، لتفنى في السراج، وتنال الوصل.

ويقول مولانا:

"لا يمكن الوصول إلى لذة العشق والمحبة الإلهية من غير إحراق البدن!."

وهكذا فإن حلّاج المنصور نتيجة تعرضه لاختلاجات الروح العميقة اشتاق إلى الموت، فقال:

"إن بعثي، وحياتي، ووصلي يكمن في مماتي!."

إن الغربة وفق التجليات الداخلية هي:

- فراق عن الخالق.
- نار متقدة في القلب.

- اكتواء بالحسرة.
- وحدة.

لأن الإنسان تابع لرحلة إلهية. وقد بدأ الإنسان هذه الرحلة من ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ ومن ثم أُرسل إلى هذه الدنيا حيث ديار "الغربة". ودخلت الروح الحرة الطليقة في أسر الجسد، وأصبحت تحت حكم خمس حواس، ولأنها أصبحت في حالة فراق عن منشئها، ظهر فيها انجذاب وحسرة نحو العالم الذي جاءت منه، ويشتد اضطراب هذه الحسرة، ويزداد اشتياق العودة إلى المكان الذي جاءت منه بمقدار صفاء المشاعر، وهذا يعني أن الإنسان غريب دائماً، ويعيش حالة الغربة باستمرار.

وللغربة أنواع كثيرة:

وبعبارة عامة نقول هنا، إن للأنبياء والأولياء الصالحين في غربة هذه الدنيا غربة ثانية وهي اكتواؤهم بألم ونار فراق الأحبة والأصحاب، ولذلك فإن الفراق والهموم والغربة الشديدة التي قدرت لنبي الله يعقوب عليه السلام وابنه يوسف عليه السلام أراد الله تعالى لهم من خلال ذلك أن تزداد إنابتهم إليه أكثر! وهكذا فإنهم يتوجهون إليه بشكل دائم، ويكون حاضرين بقلوبهم وكيانهم مع الله، فتنقطع علاقاتهم عما سوى ربهم سبحانه وتعالى لينالوا عنده أعلى المراتب والدرجات!..

وبناءً على هذه الحكمة، فقد قُدرت الغربة على الأنبياء مدة من الزمن بعيداً عن أوطانهم، ليذوقوا مرارة وحسرات الغربة بجميع أشكالها وماهياتها.

ولهذا فقد أُذيق نبينا ﷺ الغربة في الطائف بأشد أشكال القسوة والمرارة. حيث رُجم بالحجارة من قبل سفهاء ومجانين الطائف حتى غرق جسده الشريف بالدم، ولكن بسبب رحمته الواسعة تجمّل بالصبر والرضا بكل توكل، وبدل أن يدعو على أهل الطائف الذين رجموه بالحجارة بالهلاك والبلاء، دعا لهم بالهداية والإيمان. وبعد هذا تجلت مكافأة الله ﷻ لعبده ونبيه عليه الصلاة والسلام ووصله له بحادثة "المعراج."

ومن أجل ذلك فإن الغربة هي معرض القلق والاضطراب، والألم. يقول مولانا الرومي في مثنويته التي تعتبر في مقام بحر الحكم:

أصغي سمعك لما تحدث عنه الكون

إنه يشتكي إليك من آلام الفراق

ومن جهة أخرى، فقد عانى آدم عليه السلام من القلق والاضطراب والحسرة، وذرف الدموع لسنوات طويلة بسبب فراقه الجنة المكان الذي بدأ حياته فيه كان في مناخ وصل ربه سبحانه وتعالى، وإرساله إلى غربة ووحشة الدنيا. لأن موطنه الأصلي هو في الجنة قرب إلهه. وهناك إحساس بهذه الغرب والوحشة في نسله أيضاً. ولدى التفكير

بأنين البلبل الذي ينوح باكياً صارخاً حتى في أجمل الأقفاص الذهبية يقول: "وطني، وطني!" نفهم جيداً الحكمة من نواح وبكاء الإنسان الذي هبط من العالم العلوي السامي إلى المكان السفلي.

ويجري مولانا مقايسة بين الناي والإنسان، ويوضح لنا الأمر الآتي:

- "يقول الناي: أنوح وأئن بألم يعتصر صميم قلبي منذ أن اقتلعتموني من أصلي القصب، فأبكى كل ما في الكون واغروقت أعينهم بالدموع."
- "ليمزق الفراق صدري أشتاتاً، حتى أتمكن من التعبير عن آلام العشق!."
- "فكل من يفارق أصله ويبتعد عن موطنه، يبقى أبد الدهر منتظراً لحظة الوصل واللقاء!"
- "أنا صاحب كل من يبكي في المجالس سواء كان من الصالحين أو من الفاسقين."
- "كل أمرئ يلقي بالود إليّ حسب ظنه، ويريد تعلم أشياء من مجالستي وصحبتي."
- "على الرغم أن نُواحي وأنيني يفشي سري، ولكن لا يوجد في كثير من القلوب نور يفهم هذا!"

- "الروح والبدن ليسا مخفيين عن بعضهما، إلا أنه ليس من المسموح رؤية الروح. "
- "صار صدى الناي ناراً، فلا تظنن أنه نغمة فارغة! واحسرتاه على كل من ليس فيه هذه النار!."

ويقول مولانا أيضاً في إحدى رباعياته:

- "اِستمع إلى الناي فإنه يقول الكثير؛ إنه يفشي أسرار الله المخبوءة المخفية. إنه يئن وينوح قائلاً من غير كلام ولا لسان (الله... الله...) على الرغم من وجهه المصفر، وداخله المفرغ، ورأسه المقطوع، أو على الرغم من تركه لنَفَسَ العازف."

لأن الناي قُطع عن القصب الناضج وفارقه؛ وفتحت ثقوب في صدره بكويه بالنار. وعلقت أسلاك وحلقات معدنية على رأسه، وقدميه، وحتى بين مفاصله، أي أنه أُحكم أسره بالأصفاد، وبذلك فإنه أصبح ذابلاً شاحباً من الصفرة، واليباس.

وإن الإنسان مثل ذلك تماماً، فقد جيء به إلى الدنيا من موقعه في العالم الإلهي وتمّ تكبيله بالقيود البشرية، واكتوى قلبه بنار الفراق فتمزق إلى شرائح شتى، ولكن هذه الحقيقة التي هي واقع كل إنسان، فإنها تتميز بفضل التفكر والتخصص وتظهر للعلن عندما يبلغ حالة الإنسان الكامل.

إن كل المخلوقات في الكون التي نراها، والتي نعجز عن رؤيتها هي مظاهر لقسم من أسماء الله ﷻ. وأما الإنسان فتوجد فيه التجليات الكاملة لكل أسماء الله ﷻ. فالإنسان قد نال سر الآية الكريمة:

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾[٥٤١].

ولهذا السبب فإن الإنسان يُعد بديع خلق الله تعالى، أي أنه أعجوبة صنعه. فقد تجلت صنعة الخالق، وقدرته، وقوة خلقه في الإنسان بمعناها الكامل. وبهذا الاعتبار فإن الإنسان إذا تمت تنقيته من الأدران المعنوية، ومن الأهواء النفسية فإنه يصبح كاملاً بمعناه التام، إن الإنسان يحس باشتياق وحنين شديد نحو العالم الذي قدم منه مثل المغناطيس الذي يجذب إليه القطع المعدنية التي تحيط به.

إن الإنسان مجهّز بقابلية واستعداد الوصل إلى الله لأنه آت من روح الله تعالى، وأداة هذا الاستعداد هي المحبة، فالمحبة مثل الشعلة في القلب حيث لا يترك فيه سوى الله تعالى، فيحرق كل شيء غيره. وبهذا الاحتراق يظهر في الإنسان الميل نحو العودة إلى المكان الذي جاء منه، ويزداد اشتياقه ورغبته إلى ربه، وتشتد حنينه وحزنه.

ويشرح ويبين لنا مولانا قدس الله سره رغبة بلال رضي الله عنه بالتخلص من عالم الغربة والوصل إلى ربه تعالى، بالشكل الآتي:

٥٤١ الحجر، ٢٩.

"لقد أصبح سيدنا بلال من الضعف مثل الهلال رفيعاً، وظهر على وجهه لون الموت وظله، ولما أبصرت امرأته حالته هذه قالت:

- يا حسرتاه، لقد تهدم بيتي!

أما بلال فقال لها:

- لا، لا يا امرأة! لا تقولي ذلك! إن هذا وقت النشوة والسرور، لقد عُمر بيتي!

وتابع بلال قائلاً:

- وقد كنت إلى الآن داخل قدر هذه الدنيا، أي حياة الغربة البعيد عن الحق سبحانه وتعالى!

وعندما كان بلال ينطق بهذه الكلمات كانت تتفتح على وجهه أزهار النرجس، والخزامى، والورود العطرة الجميلة، وكان وجهه المبارك يتلألأ بالنور والضياء أكثر.

ولما رأت امرأته أن نفس بلال بدأ بالضعف، وازداد وهنه ونقصت طاقته، قالت:

- يا بلال، يا صاحب الطبع الجميل، والأخلاق العالية الرفيعة! يبدو إذاً قد دنت لحظة الفراق!..

وأما بلال فقال:

- لا، لا! لقد حان وقت الوصل واللقاء، وسوف تنتهي هذه الحسرة والغربة!

قالت زوجه:

- إنك ذاهب هذه الليلة إلى الغربة؛ وإنك تفارق أقاربك، وأولادك، وأحبابك وتغيب عن أعينهم!..

فقال بلال:

- لا، ربما روحي تعود الليلة إلى موطنها الأصلي من ديار الغربة هذه!

وقالت زوجه سائلة:

- ألن نرى وجهك بعد اليوم؟

فقال بلال:

- إن نظرتِ إلى العلا فسوف ترين وجهي بين الخواصّ من عباد الحق سبحانه وتعالى! وإياك والنظر إلى الأمور الدنيا؛ فهناك الوجوه البشعة للعالم الملوث بالقذارة!

قالت زوجه مرة أخرى:

- وا أسفاه عليّ، لقد تهدم بيتي!

فقال بلال هذه المرة:

– انظري إلى الروح؛ ولا تنظري إلى الجسد! لقد كان أولادي كثيرون، وبيتي ضيقاً، وقد هدم الله تعالى بيت جسدي من أجل أن يكون معمراً بشكل أفضل، وأكثر جمالاً، لأنه في حال لم يُهدم بيتي الجسدي لما انتهت غربتي وعدت إلى موطني الأصلي حيث العالم المليء بالجمال والخالي من الكدورات، ولَما وصلتُ إلى الحسن المطلق!

ويقول أيضاً عزيز محمود هدائي وهو واحد من أهل الله الكبار الذي عاش هذه الحالة الروحية الفريدة، مترنّماً بأحاسيسه التي في حياة الغربة هذه:

ما لي وللدنيا أنا محتاج إليك يا رب

تركت ما سواك محتاج إليك يا رب

أهل الدنيا في دنياه وأهل العقبى في عقباه

وكلٌ عاشق ليلاه وأنا عاشق لك يا رب

أينفع عشق الهوى ابحث عن ربك يا صاح

هذا ما قاله الهدائي يكفيني قربك يا إلهي

ومن أحد الذين جاؤوا إلى ديار الغربة هذه ولم ينجذبوا لحب هذه الدنيا الزائلة، واحترقوا بنار الوصل هو حضرة الزاهد يونس امره. وقد كان في هذا العالم مثل مجنون ليلى الذي لم ير في الكون

غير محبوبه ومعشوقه، وتعجب غاية العجب من أمر المخدوعين ببريق هذه الدنيا الفانية، ووصف حياة الغربة والحسرة التي عاناها في هذه الديار الغريبة، حيث قال:

لقد أتيت بأمر عجب ولا يعلم أحد ما بحالي

أقول فلا يسمعه غيري لا يفهم أحد مقال لساني

❀ ❀ ❀

لأن كيان الإنسان المادي متكون من التراب، لذلك فإنه يعيش على التراب، ويتغذى من التراب، وفي النهاية يفنى في التراب؛ فيتوحد مع التراب ليعود إلى أصله الحقيقي.

ولأجل هذا السبب ولاعتبار أن "الغربة" هي المعنى المراد للكمال في هذا العالم وبسبب حمله صفة الوجود والعدم، فقد صار من المعلوم والمشهور تلقي هذا العالم على أنه "دار للضيافة" (عابر سبيل). لأن شرط العودة في الوقت الذي تريده غير موجود في الغربة. ومقابل ذلك فإن مسألة المؤقتية (الأجل) في الاستضافة، وفكرة العودة إلى المحل الذي أتى منه عاجلاً أو آجلاً، فإنها تظهر منذ اللحظات الأولى من بدء الضيافة.

لذلك فإن النبي ﷺ نام ذات يوم على حصير وقد ترك الحصير آثاراً على جسده الشريف، ولما قال له أصحابه الكرام:

– لو أننا مددنا لك شيئاً على الحصير! قال لهم النبي ﷺ:

"ما لي وللدنيا؟ ما مثلي ومثل الدنيا، إلا كراكب سار في يوم صائف، فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار، ثم راح وتركها" [٥٤٢]

ومن جهة أخرى، فقد وضع النبي ﷺ ذات يوم يده على كتف عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال له عبارة مبيناً له فيها حالة الدنيا المؤقتة:

"كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل." [٥٤٣]

وكم من عاشق محروق الفؤاد عاش غريباً في سبيل الوصال الإلهي، الذي نشأ من حقيقة الغربة التي تفضل بها النبي ﷺ في هذا الحديث. حتى غدا ترنّم أولئك بالعشق الإلهي:

إلهي اجعلنا من الذين دخلوا دار جنانك

اجعلنا من الذين دخلوا وشاهدوا جمالك

و إلى جانب الدعاء، و بحب رسول الله ﷺ:

انكويت يا رسول الله بحبك فدعنا نفرح بجمالك.

أصبح نحيبهم وبكاؤهم تعابير عما يختلج في أعماق القلوب المحترقة.

---

٥٤٢ أحمد، مسند، ١، ٣٩١/ ٢٧٤٤.

٥٤٣ البخاري، الرقاق، ٣/ ٦٤١٦؛ الترمذي، الزهد، ٢٥/ ٢٣٣٣.

ومن كبار مشايخ متأخري العصر السيد محمد أسد الأربيلي يناجي معشوقه وهو في دائرة ذاك الاشتياق:

يتمنى قلبي المظلم لمعة من نور جمالك يا حبيبي

وتتشوق عيني كحلاً بغبار سبيلك الحق يا طبيبي.

"يا حبيبي! إن قلبي الذي رُمي به في ظلمة ديار الغربة هذه يتمنى لمعة من نور جمالك. يا طبيبي! إن ديار الغربة هذه التي حجزتني عن رؤيتك، تتمنى عيناي فيها أن تتكحل بإثمد غبار سبيلك."

لا تهدأ عيناي من الدموع ولا مدد لي من نوح الفؤاد

أملي من ذاك مغفرة لآثامٍ أثقلت كاهلي وكذا لطف الأنبياء

"لا راحة لي من دموع العيون ولا مدد يأتيني من أنين قلبي الباكي، يا حبيبي أرجو تلطفاً من جناب الأنبياء لوضع ثقل هذه الذنوب التي لم يعد لي قدرة على حملها، أي أتمنى أن أنال الشفاعة منك."

كيف يرجو المفتون بجمال وجهك غيراً سواك

أيرغب بمال وملك وجاه أو شهوة صفاء كل من يهواك

"مما لا شك فيه أن الذين عشقوا جمال وجهك لا يريدون شيئاً سواك، ولذلك فإنهم لا يؤثرون عليك بمال أو ملك أو مقام أو شهوة وصفاء."

رجوتك يا حبيبي شهوداً ولو مرة لبهاء كمال جمالك

أكرمه بذاك يا من عُبيدُك أسعد الفقير بمهجته يفتديك

"يا حبيبي! إن عبدي الفقير الذي يتمنى أن يفتديك بنفسه، يرجوك ولو مرة واحدة أن تشرفه بجمالك الذي لا يدرك ولا يتخيل كمال ماهيته، وأن تدخل السرور بذلك إلى نفسه."

إن كل فانٍ يأتي إلى الدنيا - دار الغربة - فإن تقويم عمره ينتهي بالموت، ولذلك فإن الذين يعيشون كعابر سبيل وهم في حال إدراك تام على أن الدنيا عبارة عن دار مرور لا استقرار، يعملون بشوق التوفيق الإلهي حتى يكونوا موفّقين قدر الإمكان في ابتلاءات الدنيا المليئة بالمشقات والاضطراب والهموم والأحزان، ويعيش أولئك دائماً في حالةٍ من التوكل والتسليم والصبر والرضا أمام المظاهر المختلفة لحياة الغربة التي تتجلى على شكل سرور وأحياناً عل شكل أحزان، وموت هؤلاء المحظوظين تظهر على شكل وصالٍ يبحث عن أبواب الرحمة الأبدية، يعني اللقاء مع الرب سبحانه وتعالى.

وكم من بواعث للاعتبار نشاهدها في شواهد القبور التي تعتبر آخر ذكريات الغربة، فإن لكل واحدة منهم لساناً مختلفاً عن لسان الأخرى ، تحكي لنا عمّا لا يعد من الحقائق المعبرة:

حيث أن أماً تتوفى مع توأميها أثناء الولادة، وبتأثر طاهر المولولي ـ شارح المثنوية ـ من هذه الحادثة كثيراً جداً ثم يقوم

بالبحث عن أقارب المرأة المتوفية حتى يجدهم، ويقول لهم:

"إني أريد أن أعدّ شواهد قبور هؤلاء الموتى الثلاث وأكتب عليها." ثم يكتب عليها هذه الرباعية:

أنت صفحة المكتوب يا قبر:

لم يترك الأجل للاحتضان في الدنيا مجال

مع فلذتا كبدي في مقبر واحد كان المآل

قابضاً أيادي اليتامى وبهم يكون المقال

وبيّتم طفلين منك إلهي أبتغي السؤال

وهذه الأسباب كلها فإن المتصوف الكبير مولانا جلال الدين الرومي كان يصور أحياناً الحياة الدنيا على أنها غربة، ويصورها بعالم عابر السبيل حيناً آخر. وبسبب عدم الوفاء والفناء والخداع الذي تصتف بها الدنيا، كان يؤكد دائماً خسران الذين يعتمدون عليها. وكان حضرة مولانا يشبه الدنيا أحياناً بسبب عدم ديمومتها يشبهها بدار الضيافة، وحتى لعدم ديمومة الروح في البدن فإنه كان يؤكد أنه يعيش كحياة الضيف فيها.

وهكذا فإنه يمكن مشاهدة العديد من الأشكال المتداخلة مع بعضها من مظاهر وصفحات هذه الضيافة، ويشرح لنا حضرة مولانا وبأسلوبه الحكيم هذه الحقيقة وهو يتعرض أيضاً لحقيقة معايشة

الأضداد جنباً إلى جنب وبشكل متداخل في هذا العالم، فيقول:

- "يا أيها الشاب المراهق! إن هذا البدن عبارة عن مكان للاستضافة، وإن النشوة والفرحة التي تحلّ بك ضيفاً في كل صباح، فإنهم يأتون إلى ذلك المكان مسرعين."
- "تعقّل، وإياك أن تقول أن هذا الضيف يقيم فيّ دائماً، فإنه سوف يطير للفناء ويفنى، يعني لا بقاء للسرور والهموم على الدوام."
- "فليأتي من يأتيك من عالم الغيب، فما هو إلا ضيفٌ يحلّ في قلبك فعليك أن ترحب به دائماً، يعني لا تغرق في الحزن جراء الهموم، ولا تسبح في بحار النشوة جراء السرور النازل بك."
- "إن التفكر بالهمّ يغلق باب النشوة، فلا تنالها، مع أن الغمّ في حقيقتها تفتح سبيلاً مختلفاً جداً للسرور والنشوة."
- "إن الأفكار والهموم تكنس دار القلوب من الأفكار الأخرى حتى يأتي للقلب أفكار ومسراتٍ أخرى جديدة."
- "إن يد الهموم تزيل الأوراق المصفرة عن أغصان القلوب حتى تأتي الأورق الخضراء من الأغصان متتالية خلف بعضها."
- "أن كل ما تسقطه الهموم من القلوب وتزيله، فإنها تأتي مكانها ما هو خير منها."

وكذلك الشاعر المعاصر قدير مصر أوغلو يترنّم بهذه الحقيقة في شعره الذي يحمل اسم "الغربة" والذي كتبه أثناء إقامته بعيداً عن الوطن، فيقول:

ليس للوطن ولكن للرب...

لعالم السكونة

بالرجوع لها تنتهي الغربة

الأبدي المطلق هو العقبى

ولكن حتى تلك المنتهى

يعز ألف ذليل ويذلُّ عزيز

من أشهر ما قيل من الأمثال

كفاك لا تتعب و تنهي الأنفاس

يكفيك الله وما سواه شهوة النفس.

اللهم يارب! أكرمنا أن نحيا حال الوصال في دار الغربة هذه. وأدخلنا في زمرة عبادك الصالحين الذين يشاهدون جمالك.

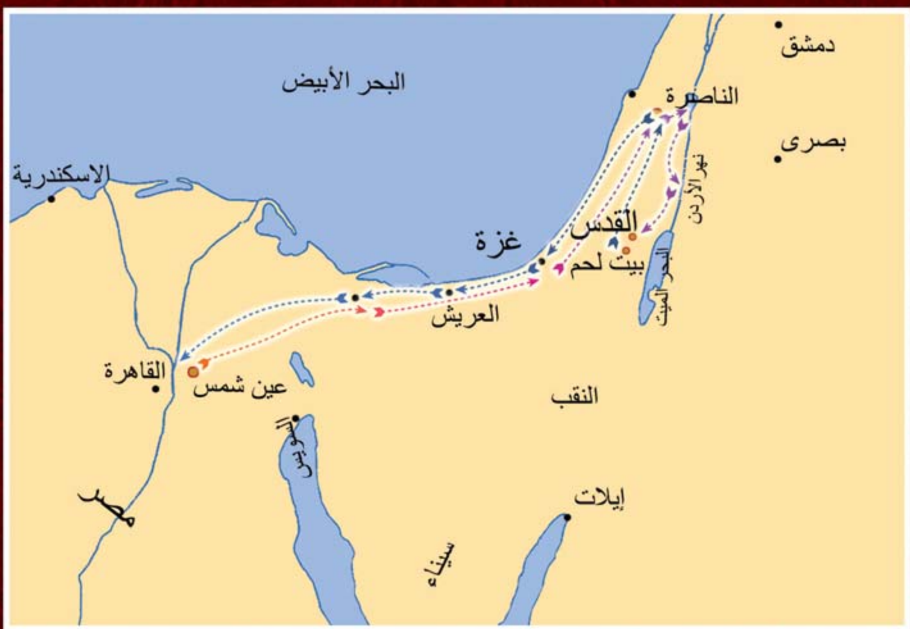
آمين...

تم بحمد الله

سيدنا زكريا عليه السلام و سيدنا يحيى عليه السلام



سيدنا عيسى عليه السلام



المحتويات

سيدنا سليمان عليه السلام / ٦٩

سيدنا عزير عليه السلام / ١٤٣